

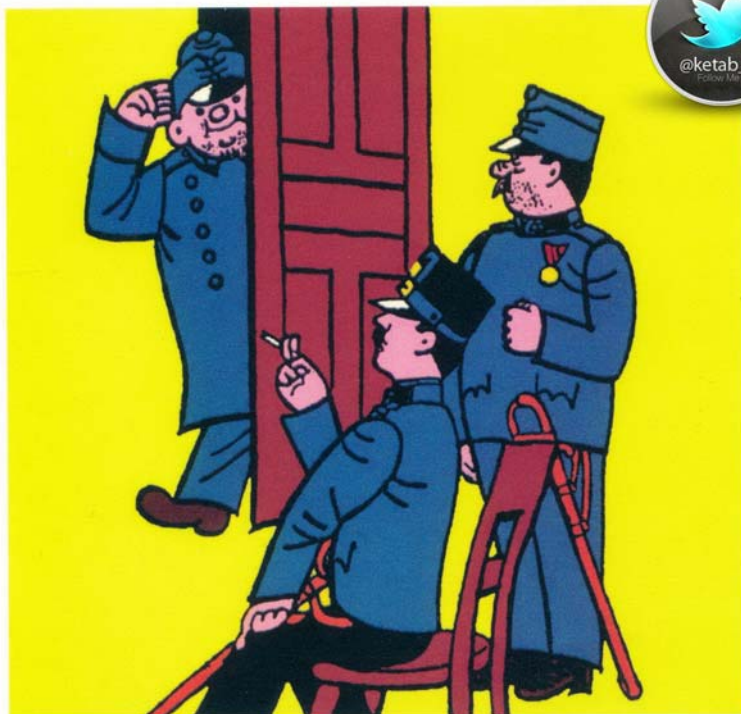
ياروسلاف هاشيك

الجندي الطيب شفيك

وما جرى له في الحرب العالمية

الكتاب للعلامة خلف الخطوط

30.3.2017



ترجمة
توفيق اللاسدي

ياروسلاف هاشيك

الجندي الطيب شفيك وما جرى له في الحرب العالمية

وكتاب لأول خلف الخطوط

رواية

ترجمة: توفيق الأسدي

للطباعة والنشر والتوزيع  دار الإكتفاء

خلف الحظوظ

THE GOOD SOLDIER SVEJIK

الجندي الطيب شفيك

خلف الخطوط

تأليف، ياروسلاف هاشيك

ترجمة، توفيق الأسدي

حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر ©



للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 - شارع الكويت

المنارة - بيروت - 2036 6308

لبنان - تفاعس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتفنيذ **الخيال** للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2008

الرسوم: يوسف لادا

تسيق الغلاف: مهدي شمص

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الاللكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

مقدمة

كان ياروسلاف هاشيك، مؤلف رواية «الجندي الطيب شفيك» بوهيميا حقيقياً بالمعنى الذي يتضمنه تعبير «البوهيمي»، ولكنه كان أبعد ما يكون عن التشيكي النموذجي، رغم كونه تشيكياً.

كان أبوه معلماً فقيراً ظل يسكر حتى الموت، فتركه وهو في الثالثة عشرة، دون رعاية أبوية مناسبة، وسرعان ما اكتسب الولد ذوق وعادات الأفاقين أو «البيتنيك»⁽¹⁾.

ولد هذا المتبطل الحقيقي في براغ، في الثلاثين من نيسان (أبريل) من عام (1883) في منزل يقع في شارع سمي على نحو ملائم باسم «شارع المدرسة». كان كسولاً في المدرسة. هذا وبسبب الظروف الاقتصادية الخانقة التي عاشتها أسرته بعد موت والده، عمل في صيدلية يملكها «السيد كوكوشكا». وهذا الحدث القصير لم ينعكس في «الجندي الطيب شفيك» فحسب، بل في قصص مجموعته المسماة «من صيدلية صيدلي عجوز» أيضاً. وهكذا فإن شفيك قد بدأ منذ سنوات مراهقته بتخزين المادة التي كان سيستعملها لاحقاً للأغراض الأدبية.

في عام (1899)، وكان في السادسة عشرة من عمره، دخل «الأكاديمية

(1) Beatnik: الشخص الوجودي السلوك والملبس (المترجم).

التجارية التشيكوسلوفاكية» المؤسسة حديثاً، ويبدو أنه قد بذل بعض الجهد في الدراسة للمرة الأولى في حياته فنال بعض التقدير، ولكنه شرع ايضاً في الاهتمام بما كان سيصبح أهم مهنتين في حياته: الكتابة والتشرد. وقد نشرت صحيفة تصدر في براغ وهي «نارودني ليستي» أول قصة له دون ذكر اسم المؤلف وذلك حين كان يقوم برحلاته خلال العطلة في مورافيا وسلوفاكيا والبحر وغاليسيا. لقد انطلق إلى تلك الرحلات وليس في جيبه فلس واحد، معتمداً على التسول ومعايشة الغجر والمشردين والأفاقيين واكتسب الكثير من العادات السيئة منهم.

وقد استطاع هاشيك بعد حصوله على سجل جيد من الاكاديمية التجارية أن ينال وظيفة في مصرف «سلافيا بنك» عام (1902) ولكنه تخلى عنها وانطلق نحو سلوفاكيا. وبعد أسابيع قليلة عاد إلى وظيفته فقبل من جديد. ولكنه حين ترك الوظيفة مرة اخرى للقيام برحلة اخرى جرى تنبيهه خطأً.

ومنذ ذلك الحين قرر أن يتعيش من الكتابة، ولكنه لم يستطع أن ينشر خلال ثماني سنوات (1900-1908) سوى (185) مقالة من نوع «الفويتون» Feuilleton وهو عدد غير كاف لإعالتة.

لم يكن هاشيك بوهيميا حقيقياً فحسب بل كان بالفطرة ميالا إلى الخداع. وقد شارك منذ أن كان تلميذاً في المظاهرات المضادة للألمان في براغ وذلك في عام (1897)، ومزق اعلانات فرض قانون الطوارئ وأتلف شعارات الامبراطورية النمساوية-الهنگارية، وحطم نوافذ المكاتب الحكومية كما ساهم بمرح في اشعار النار في ساحة منزل أحد الألمان من سكان براغ. وفي عام 1906 نظم هذه النزعات عن طريق الانضمام الى الحركة الفوضوية مما ادى الى المزيد من الاحتكاك مع الشرطة وتعرضه للتوقيف وللسجن لفترات قصيرة. ولكنه مر أيضاً في العام نفسه بتجربة من

نوع آخر. لقد قابل «يارميلا ماير وفا» ابنة محترف لزخرفة الجص فأحبها بشدة. ولكن المشاكل كانت في انتطاره، إذ أن حياة التشرذ التي عاشها وقناعاته الراديكالية ما كانت لتجد لدى أبويها البورجوازيين المحترمي السمعة أي استحسان على الأرجح.

وفي عام (1907) تزايدت نشاطاته الفوضوية، فأصبح محرراً لصحيفة «كومونا» «الفوضوية وبدأ يلقي محاضرات على عمال المناجم وصناعة النسيج في المقاطعات. وقد أفاد مخبرو الشرطة النمساوية انه كان خطراً على نحو خاص كما أن كل تحركاته موضوعة تحت المراقبة المشددة. هذا وقد قبض عليه لدى مشاركته في مظاهرة فوضوية بسبب مهاجمته أحد الشرطة وحكم عليه بالسجن شهراً واحداً.

وقد راح يرسل قصائد الحب من السجن الى يارميلا، فحاول أبوها أن يمنعها من مشاهدته وطلب منها أن تحذره بأن أي تورط آخر في الحركة الفوضوية سيجعل لقاءهما ثانية من المستحيلات، هذا إذا تجاوزنا عن التفكير في الزواج. وقد وعد هاشيك بأن يتخلى عن الفوضوية، ولكنه استمر في التجوال في ملابس رثة إلى حد أن والد يارميلا أكد له أنه إذا كان يود فعلاً أن ينافس على طلب يدها، فإن عليه على الأقل أن يرتدي ملابس لائقة وأن يجد وظيفة دائمة. وللمرة الثانية وعد هاشيك بأنه سيطيع أوامره.

وهكذا قلّت صداماته مع الشرطة. وفي العام التالي لم يستدع للتحقيق إلا مرتين فقط، مرة لأنه حاول أن ينزل علماً منصوباً في ساحة فنتسيسلاس والمرة الثانية لخرقه النظام العام. ولكن هذا كان أكثر مما يستطيع والدا يارميلا احتماله فأخذتا ابنتهما بعيداً عن براغ. إلا أن طالب يدها الملحاح غير المرغوب فيه لاحقها طوال الطريق إلى الريف، وحين لم يعد لديه أية نقود يشتري بها تذاكر للقطار ليعود إلى براغ عاد مسافة الستين ميلاً على قدميه.

في عام (1909) بدا وكأنه يبذل جهداً حقيقياً ليثبت لوالدي يارميلا أنه قادر على إعالة نفسه واعالتها أيضاً. ففي هذا العام كتب أربعاً وستين قصة نشر معظمها في صحيفة «كاريكاتوري» التي كان يحررها الفنان «يوسيف لادا» الذي رسم الصور التزيينية لرواية «الجندي شفيك». وفي وقت لاحق عين في منصب جيد خلفاً لأحد أصدقائه الصحفيين في مجلة تسمى «عالم الحيوان»، ولكن سرعان ما صرف من العمل لكتابه مقالات عن حيوانات لا وجود لها قام هو باختراعها. في الواقع هذا ما يزعم ماريك بالضبط أن هاشيك فعله في هذا الكتاب أيضاً.

كانت التحضيرات جارية من أجل الزفاف وألح والدا يارميلا على أن يجري الاحتفال في الكنيسة. ولهذا الغرض، كان على هاشيك أن يوافق على العودة إلى المذهب الكاثوليكي، الذي كان قد تخلى عنه قبل ثلاث سنوات. وأخيراً جرى الزفاف في 13 أيار (مايو) 1910. لقد نال هاشيك حبيبته يارميلا أخيراً، ولكن زواجه منها جعله على احتكاك بدوائر لم يكن يشعر فيها بالراحة. وعلى أي حال، كان عام 1910 جيداً بالنسبة لإنتاجه الأدبي فقد كتب ونشر خمساً وسبعين قصة.

في عام 1911 نشر في صحيفة كاريكاتوري أول قصصه عن «الجندي الطيب شفيك». وقد كانت تلك عبارة عن حكايات تتعلق بجندي لم تتطور شخصيته بعد لتصبح شخصية شفيك في الكتاب الذي بين أيدينا وإن كان يحمل تشابهاً قوياً معه. في السنة التالية أدرجت هذه القصص في مجموعة من القصص القصيرة بعنوان «الجندي الطيب شفيك وقصص غريبة أخرى»، رغم أن قصص شفيك لم تحتل سوى 29 صفحة من الكتاب. في هذه الأثناء، أظهر هاشيك أنه غير قادر على ممارسة حياة نظامية أو أن يكون وفق المعايير التي تريدها منه يارميلا وأبواها. وبما أنه كان قد سبق له وارتكب بعض الحيل على قراء «عالم الحيوان»، فقد راح الآن يطور هذا الفن إلى مرحلة جديدة

وذلك بالادعاء في أحد الأيام أنه قد انتحر بالقفز من جسر تشارلز في البقعة التي رمي فيها إلى الماء القديس يوحنا النيموكي الأسطوري. استدعت الشرطة وأخذ إلى مصحح المجانين. وهناك تمكن من جمع المادة التي استخدمها في هذا الكتاب في تلك المقاطع التي وصف فيها مغامرات شفيك بين المجانين. وبعد ذلك، قرر هاشيك أن يؤسس «معهد علم الكلاب» الخاص به (الاسم الذي اخترعه لحنوت بيع الكلاب). وقد ساعدت يارميلاه في هذا العمل، ومن جديد فإن تجاربه في هذا المجال موجودة في صفحات هذا الكتاب ولكن في أعمال أخرى له أيضاً. وبعد عام أو عامين، نشر مقالته «معهد علم الكلاب» في مجلة «سفيتوزور» المصورة الرائجة الصادرة في براغ. وقد شرح كيف وجد عبارة «علم الكلام» في إحدى الموسوعات وكيف قرر استخدام كلمة «معهد» بعد مروره بالمعهد الزراعي. كتب يقول: «وأخيراً ها أنذا أملك معهداً الآن».

أما مغامرته التالية فتجلت في تأسيس حزب سياسي جديد أسماه «حزب التقدم المعتدل والسلمي ضمن حدود القانون». كان ذلك أوان الانتخابات للبرلمان النمساوي - الهنغاري وقد ترشح عن هذا الحزب، وراح يفضح علناً الملكية ومؤسساتها ونظامها الاجتماعي والسياسي. وبالطبع لم يكن تلك سوى حيلة جديدة، صممت جزئياً لإرضاء عطش هاشيك الكامن للاستعراضية وجزئياً لدعم مالية الحانة التي كانت تجري فيها اجتماعات الانتخابات.

في عام 1912، أنجبت له يارميلا ابناً سمي ريتشارد، ولكن الزواج لم يكن من النوع السعيد وسرعان ما انهار. لقد خسر هاشيك وظيفة واعدة لدى صحيفة رئيسية في براغ بعد أن هاجم علناً قادة الحزب السياسي صاحب الصحيفة. تركته يارميلا وذهبت لتعيش مع والديها، بينما عاد هاشيك إلى سابق عهده من الحياة البوهيمية. استمر في الكتابة بشكل وافر، وكان قادراً

الآن على أن يستمد الإلهام من تجاربه الزوجية. كان انفصاليه عن يارميلا قد قاده إلى غربة شبه تامة عن المجتمع ، وعاش منذ ذلك الحين فصاعداً «في الخفاء». لم يكن مسجلاً في أي مكان وراحت الشرطة تبحث عنه دون جدوى.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان يسكن بشكل متقطع مع لادا رسام الكاريكاتير، الذي روى لاحقاً أن هاشيك كتب قصصاً كثيرة وطبخ وجبات رائعة خلال إقامته معه. وبالفعل، اشتهر بموهبته كطباخ كما اشتهر ككاتب، كما أن التفاصيل المطبخية في «الجندي الطيب شفيك» تستحق دراسة جدية.

في هذا الوقت ارتكب هاشيك ما كان على الأرجح أكثر حيله جرأة. لقد جمع من حوله أساطير كثيرة شأن القديسين، وتقول إحدى الروايات عما جرى ما يلي: لقد قرر أن يخدع السلطات بأن استأجر غرفة في «يو فالشو»، وكان هذا مكاناً سيئ السمعة على أنه نصف فندق ونصف ماخور. وقد سجل نفسه هناك على أنه روسي الجنسية. وكان الاسم الذي خطه في سجل الزوار يبدو روسياً على نحو واضح، ولكن حين يقرأ بالعكس وبالتشكيكية يصبح معناه «قبل مؤخرتي». وحين سئل عما يريد فعله في براغ كتب أنه كان يبحث في أنشطة رئاسة الأركان النمساوية. في ذلك الحين كانت حمى الحرب في ذروتها وقد استنفرت الشرطة وحاصرت الفندق. إذ ظنت أنها قد أمسكت بجاسوس هام ولكنها أصيبت بخيبة الرجاء والخرج حين وجدت أن ذلك الشخص لم يكن سوى هاشيك الذي كان في ذلك الحين قد أصبح مشهوراً بالغوغائية. وحين سئل عن سبب فعله ذلك أجاب بكل براءة أنه أراد أن يؤكد لنفسه أن الشرطة النمساوية كانت تؤدي عملها بشكل فعال. ولم يحكم عليه سوى بعقوبة خفيفة هي الحبس لخمسة أيام.

في عام 1915 استدعي للخدمة العسكرية وألحق بالفوج 91 مشاة في تشسكه بوديوفيتسه - الفوج نفسه الذي كان ينتمي إليه شفيك. وشأنه شأن ماريك في رواية «الجندي الطيب شفيك» فقد قبل كمتطوع لعام واحد ولكن سحبت منه لاحقاً مزايا رتبته، وفي حالته فقد كان السبب أنه اكتشف لاحقاً أنه مسجل في سجلات الشرطة على أنه فوضوي خطير. ومن يوهيميا الجنوبية سرعان ما انتقل الفوج 91 إلى كيراليهدا في هنغاريا ومن هناك أرسل إلى الجبهة.

خلال فترة وجوده القصيرة في الفوج لاحظ هاشيك بعناية الضباط وضباط الصف والجنود الذين احتك بهم، وخاصة قائد كتيبته النقيب ساغز وقائد فصيلته الملازم الأول لوكاش، والملازم أول الاحتياطي ميتشاليك، وأخيراً وصيف الملازم الأول لوكاش المسمى ستراشلييكا. إن أسماء هؤلاء الأشخاص جميعاً الذين سيظهرون لاحقاً بأسمائهم نفسها أو بأسماء مختلفة في «الجندي الطيب شفيك»، يمكن أن نجدتها في سجلات الفوج 91. كان هاشيك من مرافقي الملازم أول لوكاش. لم يكن وصيفاً له ولكنه خدم تحت إمرته، وكان معجباً به إلى حد كبير وكتب عدداً من القصائد مكرسة له. وقد احتفظ ذلك الملازم الأول الذي تقاعد بعد الحرب في جمهورية تشيكوسلوفاكيا، بالقصائد لفترة طويلة بعد وفاة هاشيك. ولكن لسوء الحظ اختفت تلك القصائد بعد وفاته هو.

كما عرف هاشيك المساعد الأول مسؤول التموين فانيك، وكان يساعده في الحسابات ويتقاسم معه مكتبه. وكان الملازم الأول ميخاليك هو النموذج للملازم الأول دوب سيئ السمعة. وهناك ذكر أيضاً للمرشح بيغلر والرائد فنتسل في السجلات. ويبدو أن هاشيك أخذ اسم يوسيف. شفيك من نائب برلماني محترم له الاسم نفسه. وعلينا أن نفترض أنه بالنسبة لشخصيتي شفيك وماريك فقد استمدهما من تجاربه الشخصية، باستثناء ستراشلييكا، الوصيف

الحقيقي، فيبدو أنه نموذج لشفيك. والصور الفوتوغرافية المحفوظة لهؤلاء الأعضاء في الفوج ولا يشبهون إطلاقاً الرسوم التوضيحية التي رسمها لادا والموجودة ضمن هذا الكتاب. إن صورة ستراشليبيكا أقرب بكثير إلى الصورة التي يشكلها القارئ عن شفيك من صور لادا البارعة إنما المثيرة للسخرة. ولم ير هاشيك نفسه أياً من الصور التوضيحية الموجودة في هذا الكتاب ولكنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه.

لقد تزود هاشيك من الرحلة الطويلة بالقطار ثم على الأقدام من كيراليهدا إلى الجبهة في غاليسيا بالمادة التي استخدمها لوصف الرحلة نفسها في الكتاب. ولكنه لم يمكث طويلاً على الجبهة. فقد وقع أسيراً في 23 أيلول (سبتمبر) بعد أن بقي منقطعاً عن وحدته في مخبأ نتيجة لاختراق روسي مفاجئ. ورغم أن الملازم الأول لوكاش حاول شخصياً أن يقنعه بالتراجع مع الآخرين إلا أنه لم يلحق بهم واستسلم للروس.

كانت الأوضاع في المعسكرات الروسية لأسرى الحرب رهيبة في تلك الأوقات، وخاصة بالنسبة للتشيكيين. فقد كان الروس يعتبرون هؤلاء التشيكيين من السلاف أي من عنصرهم نفسه على أنهم الفئة الأقل امتيازاً بين الأسرى واعتبروهم متفانين. بما فيه الكفاية لروسيا الأم بحيث أنهم سيفخرون بأن يعانون أشد المعاناة وأن يتعهدوا بالقيام بأقصى الأعمال والجهود. أرسل هاشيك أولاً إلى معسكر قرب كييف ثم إلى آخر في توتسكوي قرب أقصى جنوب الأورال. وهنا حالفه الحظ بالهروب من أسوأ متاعب المعسكر بأن راح يعمل في مكتب مريح يخص أحد قادة المعسكر. وشأنه شأن معظم الأسرى الآخرين فقد أصيب بعدوى التيفوس المبعث ولكن الإصابة لم تكن خطيرة.

وفي أحد الأيام وصلته أنباء عن أن وحدة متطوعين عسكريين كانت على وشك أن تتشكل من التشيكيين والسلوفاكيين الموجودين في روسيا. وكانت

تلك نواة الفيلق التشيكي اللاحق ، وقد ظلب الالتحاق بها فوراً. قبل طلبه وتم تجنيده فوراً للقيام بخدمات التجنيد من قبل اتحاد الجمعيات التشيكية في روسيا. وقد هيأته مواهبه الأدبية للعمل الصحفي والدعائي، وكان من الطبيعي أن يعمل في صحيفة هي «تشيخوسلوفان» التي كانت تنشر من قبل المستوطنة التشيكية في كييف، وهنا بدأ هاشيك يكتب سلسلة ثانية من القصص عن شفيك تحت عنوان: «الجندي الطيب شفيك في الأسر». وقد نشرت في كييف بشكل كتاب عام 1917.

لم يكن يتوقع من هاشيك إلا بالكاد أن يكون مستخدماً يمكن للاتحاد الاعتماد عليه، وغالباً ما كان يسبب لهم الإحراج بكتاباته خارج الصحيفة. لقد هجا القيادة في مقال في «تشيخوسلوفان» سماه «نادي بيكويك» وقد تعرض للتأديب بسببه. ولم يكن شديد العصبية للتشيكيين فحسب وشديد الكره للنمساويين فحسب، بل ومحباً للروس أيضاً. لقد رحب بنباً لترويج الامبراطور النمساوي الجديد في عام 1916 بالكلمات التالية: «لقد بدأنا ثورتنا لعزل آل هابسبرغ وأن نصب على العرش التشيكي ملكاً من سلالة رومانوف العظيمة». وحتى بعد ثورة شباط (فبراير) في روسيا استمر هاشيك في التعبير عن آرائه المؤيدة للملكية ويهاجم البلاشفة. ولكن بعد ثورة تشرين الأول (أكتوبر) أصبحت آراؤه أكثر راديكالية. وقد عارض بقوة الخطط لإرسال الفيلق بعيداً عن روسيا للقتال على الجبهة الغربية، معتقداً أنه ينبغي عليه البقاء على التراب الروسي ومحاربة الألمان هناك. وحين غادر الفيلق كييف لينتقل إلى داخل روسيا تحضيراً لنقله لاحقاً إلى الغرب، لم يمض هاشيك معه. في نهاية شهر شباط (فبراير) 1918، غادر إلى موسكو للانضمام إلى الجيش الأحمر. بعد شهر من ذلك، أصبح عضواً في الحزب البلشفي. لم يستطع، لم يعد هاشيك قادراً على إثارة عواطف الفيلق لمحاربة الألمان في روسيا، حيث أن البلاشفة وقعوا معاهدة سلام مع قوى المحور في الثالث من آذار (مارس). وقد أعلن الفيلق أن هاشيك خائن وأصدر أمراً

بتوقيفه. أرسل هاشيك لاحقاً إلى بلدة سامارا ليعمل من أجل البلاشفة، ولكن بعد أن وقعت بين أيدي الفيلق، أسرع بالاختفاء في مقاطعات آسيا الوسطى متكرراً بلباس مستوطن ألماني. وحين استطاع الجيش الأحمر أن يسيطر على روسيا، وانسحب الفيلق تدريجياً، بدأ هاشيك يؤسس لنفسه موقعاً في منظمة الحزب البلشفي الروسي، ليصبح في الواقع عضواً في جهاز الحزب الشيوعي. وفي كانون الأول (ديسمبر) 1918، عين نائب قائد لبلدة بوغولما. لقد أصبح رجل الجيش الأحمر التشيكي القومييسار الروسي «غاشيك» (الروس ليس لديهم حرف ه استهلاكي في أبجديتهم لذلك كانوا يلفظون اسمه بهذه الطريقة). وقد خلد هاشيك هذه البلدة الصغيرة بالقصص المسلية التي كتبها عن الحياة السوفيتية ونشرها عند عودته إلى براغ. في عام 1919، عين سكرتيراً للجنة الشيوعيين الأجانب في البلدة الروسية أوبا، وفي العام نفسه أصبح سكرتيراً لخلية الحزب في مكتب الطباعة المسمى «السهم الأحمر»، وبعد عام من ذلك رئيساً للقسم الدولي من الدائرة السياسية للجيش الخامس. كما يقال أنه أكمل دورة في مدرسة الحزب الشيوعي السوفيتي. والأهم هو الحقيقة المدهشة أنه تخلى عن الشراب وعاش حياة نظامية خالية من السكر مدة ثلاثين شهراً.

ويبدو أنه من غير المحتمل أن هاشيك - البوهيمي والفوضوي؟ سيتمكن من أن يكيّف نفسه مع قساوة النظام السوفيتي لأي فترة من الزمن، ولكن لحسن الحظ كانت لديه خيارات أخرى متاحة أمامه. وحين دعاه وفد من الحزب الاشتراكي الديمقراطي التشيكي للعودة إلى موطنه، فقد وافق فوراً. وفي 19 كانون الأول (ديسمبر) 1920 وصل فجأة إلى تشيكوسلوفاكيا وبدأ بكتابة مقالات في «رودي برافو» صحيفة الجناح اليساري للحزب الاشتراكي الديمقراطي. ولم يستطع العودة إلى يارميلا، لأنه جلب معه زوجة أخرى من روسيا. يقول البعض إنها كانت أرستقراطية، قرية الأمير لفوف، ولكن من المحتمل أن هذه كانت واحدة من الحكايات التي ينسجها هاشيك.

ومع ذلك، فقد كان حريصاً على أن يعيد الصلة مع يارميلا، وأن يطلب مساعدتها لإيجاد عمل دائم. ولكن لم يكن هذا بالأمر السهل. ففي الجمهورية الجديدة لم يكن هاشيك ممن ينظر إليهم على أنهم من الوطنيين، سياسياً واجتماعياً. وقد اتهم بالخيانة والبلشفية وأخيراً بأنه متعدد الزوجات. ولما لم يتمكن من إيجاد عمل عاد مجدداً إلى حياة السكر والتشرد التي عاشها في سنوات ما قبل الحرب. وعلى أي حال، كان عليه أن يعيل نفسه وزوجته الروسية الجديدة وهذا ما حفزه على أن يحاول كتابة رواية كاملة للمرة الأولى.

وفي بدايات عام (1921) بدأ بكتابه «الجندي الطيب شفيك» وفي صيف العام نفسه انتقل إلى مدينة «لينينتسه» على نهر «سازافا» والتي تقع على مسافة مئة ميل تقريباً إلى الشرق من براغ، حيث أمل أن يكون قادراً على التركيز على الكتابة دون مضايقات ضمن محيطها الجميل. وقد طالت الرواية فأصبحت في أربعة كتب دون أن يجد ناشراً يتحمس لها. ونتيجة لذلك اضطر هاشيك إلى نشر الكتاب الأول على نفقته الخاصة وقام بتوزيعه بنفسه مع صديقه «فرانتا سارو». ولكن بعد أن نجح الكتاب الأول وجد هاشيك ناشراً مستعداً لنشر الكتب الأخرى. ورغم أنه لم يكسب الكثير من الكتاب الأول إلا أنه كسب ما يكفي لشراء كوخ في «لينينتسه»، حيث استطاع أن يباشر في إملاء الكتب اللاحقة.

ولكن عودته إلى الحياة البوهيمية بعد تجربته القاسية في روسيا أضرت بصحته إلى حد كبير. فبعد أن عاش حياة تتسم بالاعتدال لمدة ثلاثين شهراً لم يستطع جسمه ان يتحمل العودة إلى عريضة وافرط الشباب، وكان ان مرض مرضاً شديداً ومات في الثالث من كانون الثاني (يناير) من عام (1923). ولم يحضر جنازته سوى ابنه ريتشارد وكان في الحادية عشرة من عمره وقليل من الأصدقاء. وقد بقي الكتاب الرابع من روايته دون انتهاء، إلا

أن صديقه «كارل فانيك» كتب نهاية له تم حذفها، رغم قيام «لادا» بتصوير رسوم تزيينية لها، من الطبعات المنشورة مؤخراً، حيث أنها ليست منحولة فحسب بل تعتبر أقل قيمة بكثير من الأصل. وهي غير متضمنة في كتابنا هذا.

* * *

رغم أن «الجندي الطيب هاشيك» لاقت نجاحاً شعبياً منذ البداية، إلا انها لم تعامل بجدية من قبل النقاد الأدبيين ولفترة طويلة.

وبالفعل، فإن الكتب التي تدور حول الحرب العالمية الأولى لم تبدأ في لفت الأنظار على نحو جدي إلا بعد عشر سنوات من انقضائها. وخلال الفترة التي تلت الحرب مباشرة كان الناس لا يزالون واقعين تحت تأثير الانفعالات التي فجرتها الحرب. لقد كانت حرباً عظيمة وبطولية من كل النواحي ومن أي جانب نظرت إليها. ولكن الناس لم يستطيعوا إلا بعد مرور سنوات أن يحرروا أنفسهم من هذا الاستحواذ والنظر إليها من وجهة نظر نقدية وباردة. وبالنسبة للتشيكيين كان ذلك صعباً على نحو خاص. فرغم أنهم اضطروا للقتال على الجانب غير الصحيح، إلا أن الكثيرين منهم كانوا «قد أدوا واجبهم» وكانوا فخورين بما فعلوه. ومن الناحية الأخرى فإن بعضهم كان قد فرّ إلى روسيا وساعد على تشكيل «الفيلق التشيكي» هناك. ولفترة قصيرة كان «الفيلق» أقوى وحدة عسكرية في روسيا وقد حقق انتصارات على الجيش الأحمر نفسه. وحين عاد أفراد الفيلق إلى الوطن بعد الحرب أصبحوا جزءاً من الأسطورة الوطنية. وقد كان هناك كثيرون من التشيك الذين يعتقدون أن شفيك نفسه ليس دعاية جيدة للشخصية للتشيكية. وحين كانت الجمهورية الجديدة تحاول تأسيس شخصيتها وشهرتها في الخارج، لم يكن الوطنيون التشيكيون راغبين في أن تكون لهم

علاقة في أذهان القراء الأجانب بالصفات التي ميّزت شفيك. ولكن هذه المخاوف كانت غير مبررة. فرغم ان «الشفيكية» عبارة تستعمل عادة لتمييز المقاومة السلبية الخاصة بالتشكيكين، إلا ان اي شخص يقرأ الكتاب بعناية ويعرف التشكيكين، سيدرك ان شفيك ليس بالضرورة شخصية تشيكية. فقد يكون من سكان اي بلد من وسط اوروبا بل هو في الحقيقة «السيد كل شخص»، وذلك بمعنى انه يشبه اي «رجل صغير» تحت عجالات آلة بيروقراطية ضخمة.

ان تقييما حقيقيا للرواية يتطلب فهما كاملا لشخصية شفيك. انها شخصية معقدة. فرغم انه طرد من الخدمة العسكرية على أساس أنه احمق برخصة، كما يقول هو للجميع، إلا انه أبعد ما يكون عن الحمق. فهو قادر على جعل نفسه «يبدو» كأحمق وذلك للتخلص من حالة ما، وربما طرد من الجيش بسبب حيلته الواسعة تلك. فشفيك يتحدث معظم الوقت حديثا مزدوج المعنى. انه يتظاهر بأنه يتفق مع كل شخص يتعامل معه، وخاصة ان كان ذلك ضابطا رفيع الرتبة. ولكن السخرية الكامنة وراء تعليقاته أمر ممكن ادراكه. وليست ملاحظاته وشروحه هي الساخرة فحسب بل الكثير من تصرفاته أيضا. ومن الأمثلة على ذلك جهوده «الواضحة» للوصول الى الجبهة عن طريق اظهار وطنيته وإخلاصه للملكية، حين يكون واضحا ان تصرفاته لا تؤدي إلا إلى اعاقه تحقيق ذلك الهدف المعلن.

ليس شفيك بالجهول، فهو أخ لمعلم مدرسة ورجل مثقف على نحو واضح. ورغم انه يعبر عن نفسه بلهجة أهل براغ الدارجة إلا أن لديه لغة غنية بالمفردات الأدبية مع معرفة موسوعية تقريبا، وهي مستمدة دون شك من مطالعة واسعة للصحف والمجلات. إنه مراقب دقيق للطبيعة البشرية كما أن بعض استنتاجاته نفاذة تماما. أما أسلوبه في تعامله مع رؤسائه فيخفي آراءه الحقيقية، وهو حتى لدى مخاطبته للأشخاص الذين هم من طبقته

نادراً ما يكشف آراءه الحقيقية. في نهاية الجزء الأول وفي حوار مع جندي يقول رأيه بالامبراطورية النمساوية - الهنغارية بالضبط: «ملكية حمقاء الى درجة انه لا يجب ان تكون موجودة اطلاقاً». ومع ذلك فإنه يقبل برباطة جأش، فيها الاستسلام وحتى المرح، كافة الصراعات والحرمانات التي تفرضها الحياة العسكرية في زمن الحرب. ورغم انه لا ينظر الى معظم رؤسائه باحترام إلا انه قادر على أن يخلص على نحو شخصي للضابط الذي كان يعمل كوصيف له، على الأقل، ألا وهو الملازم الأول لوكاش.

وفي المواقف التي تكون له فيها اليد العليا يمكنه ان يكون حاسماً الى حد القسوة. ان الطريقة التي يعاقب فيها «بالون» بسبب غشه لسيده تتناقض الى حد مذهل مع الصورة التي شكلها بعض الناس عنه كوصيف مرأوغ صبور على الأذى. هذا وتنمو مكانة شفيك مع اثباته لتفوقه على من هم حوله، انه ند كامل لأي من الجنود او ضباط الصف الذين يشاء حظهم العاشر ان يكونوا برفقته. انه قادر على أن يجعل الملازم الأول «دوب» يخرس تماماً. وفي الوقت نفسه فإن له أسلوباً استرضائياً في جذب اعجاب واستحسان جنرال او عقيد ما. ان له «طريقته الخاصة في الأمور».

هذا ولا يستطيع سوى القلة من الناس - بمن فيهم ممثلو النيابة العامون الصارمون - ان يقاوموا عينيه الزرقاوين الودودتين الجريبتين.

وفضلاً عن ذلك، فإن شفيك بخلاف طبعه، ليس فوضوياً. انه يؤمن بالقانون والنظام ويعني ما يقوله حين يؤكد انه لا بد من المحافظة على النظام. وفي الوقت نفسه فإنه مليء بالمشاعر والتعاطف الإنساني. يقول: «لا بد ان تقع الأخطاء»، وهو مستعد دائماً لان يعذر او يدافع عن شخص ما في حين يهاجم الآخرون. قد تكون هذه ميزات التشيكيين ولكنها ليست بالضرورة كذلك. ان بعض هذه الميزات مألوفة لدى كثيرين ممن يوضعون في الموقف الذي يجد شفيك فيه نفسه. ولكن

جمع هذه الصفات كلها فيه تجعل شفيك شخصية فريدة من نوعها. ومن الكتاب الذين ادركوا عظمة رواية هاشيك بعد كتابتها لفترة قصيرة «ماكس برود» الذي شخص عبقرية كل من «كافكا» و«يانا تشيك» كتب يقول: «كان هاشيك ظريفا من طراز رفيع جدا. وربما سيضعه عصر لاحق على المستوى نفسه مع سرفانتس ورايبليه». لقد رأى ماكس برود شيئا من «سانشو بانزا» في شخصية شفيك. وهناك بعض الحقيقة في ذلك. فالملازم الاول لو كاش كان يمكن ان يقول لوصيفه، وقد قال ذلك مرات عديدة، ما قاله «دون كيخوته» لسانشو بانزا: «إذا رويت قصتك بتلك الطريقة ياسانشو وكررت كل ما عليك ان تقوله مرتين فلن تنتهي في يومين». ومن الممكن ان يكون شفيك قد أجاب بطريقة سانشو رغم انه لم يفعل ذلك: «الطريقة التي اروي بها قصتي هي الطريقة التي تحكى بها كل القصص في بلدي، ولا اعرف طريقة اخرى احكيها بها». ولكن بينما كانت وظيفة سانشو هي اظهار دون كيخوته عن طريق المغامرة، فإن شفيك هو الشخصية الرئيسية للرواية التشيكية.

كما ان سانشو لا يتمتع بثقافة ولا شجاعة شفيك. «لم اقرأ أبدا كتب التاريخ لأنني لا استطيع القراءة او الكتابة» هذا ما يقوله سانشو، الذي يعترف ايضا لسيدته انه شخص مسالم بطبيعته كما انه «ضد اقحام نفسه في الشجارات والنزاعات». ولكن شفيك ليس بالتاكيد ذلك الشخص الذي يتورع عن ان يهاجم بكل قوته، كما نرى ذلك بالطريقة التي يشارك فيها «فوديتشكا» في الشجار مع الهنغارين او حين يحث «كونيرت» على الشكوى من الملازم الأول دوب.

أما التماثل مع رايبليه فهو اكثر صحة. ففي هذه الرواية يمعن هاشيك في الفظاظ والبذاءة. وهنا نراه يكشف بالفعل آراءه الحقيقية كفضوي يريد ان يوقظ البورجوازية من رضاها الذاتي المريح وروح الاحترام المترعة

بالنفاق، وهو لا يتردد عن العبث بالقاذورات لمجرد إثارة الروائح الخبيثة. لقد مرت أوقات على براغ كان كل ما على المرء أن يفعله حتى يخترع طرفة جديدة، هو ان يذكر اسم زوجة قائد سياسي بارز وأن يضيف إليه من القذارة أكبر قدر ممكن. وهذه هي بالضبط طريقة هاشيك في التعامل مع الكنيسة الكاثوليكية. ان بعض حوادث الرواية المتعلقة بالكاهن العسكري لا يمكن ان يقال عنها انها تزين الكتاب. لقد كان هاشيك حاقداً أشد الحقد على الكنيسة والدين حتى انه في هذه الرواية وفي كثير من قصصه الاخرى قد غالى كثيراً بحيث ان القارئ يشعر بالتخمة هذا ان لم يشعر بالغيثان. ويمكن للمرء ان يلاحظ انه كان أكثر تسامحا تجاه الكنيسة الارثوذكسية.

كما يجب على المرء ألا يعمي عينيه عن عيوب هاشيك ككاتب. إنه دون شك معلم في مجال رسم الشخصيات والحوار. وبالفعل، فإن حوار هاشيك الذي يزود مادة رسم الشخصيات لديه. كما انه يكشف عن براعة هائلة وقدرة على الإبداع والتخيل لا يستهان بها وذلك في اختراع القصص العديدة التي يرويها شفيك والشخصيات الاخرى خلال الرواية. ولكن تعليقاته ووصفه أقل نجاحاً. لقد كان جيداً في تسجيل ما كان قد سمعه في الحياة الحقيقية خاصة ما يجري على طاولة الشراب في الحانات: الأحاديث والمغامرات، ولكنه يستطيع ان يكون مقصراً في وصفه وغير مقنع في أسلوب سرده. أما اعظم إنجازاته فهي قدرته على المحافظة على زخم الكتاب وحيوية السرد رغم انه يقدم لنا الكثير من الحكايات التي تعيق حركة الحدث. كان يكتب دون اتقان وبسرعة.

ومن الواضح احيانا انه كان ثملاً اثناء الكتابة، بحيث تصبح أفكاره وجملته شديدة التشوش. ولكن رغم كل عيوبها فإن «الجندي الطيب شفيك» اثر كلاسيكي من الطراز الاول وأنا لا أعرف رواية اخرى تنقل لنا

بكل تلك الحدة ليس بشاعة الحرب فحسب بل الالاجدوى المطلقة لكل ما له علاقة بها.

ان ترجمة «الجندي الطيب شفيك» الى الانكليزية وللمرة الاولى دون اختصار او تشذيب ستمنح القارئ الانكليزي فرصة لاعادة النظر في آرائه حول المؤلف وشخصيته الرئيسية. ولكنه من المستحيل طبعا ان ننقل الى القارئ الذي لا يعرف التشيكية او الالمانية تلك النواحي المرهفة التي لا بد ان تضيع مع الترجمة. ان يوسف شفيك لا ينفصل عن الأسلوب الذي يعبر فيه عن نفسه. ان لغة شفيك هي شفيك نفسه. ولسوء الحظ فإنه من المستحيل ترجمتها الى الانكليزية دون المخاطرة بتشويه صورته وعصره وبيئته.

الرسوم التوضيحية

رغم ان «يوسيف لادا» (1887-1957) كان صديقا لهاشيك منذ عام (1907) ونشر عام (1911) بعض قصص هاشيك في مجلة «كاريكاتوري» الهزلية، إذ كان في حينه رئيسا لتحريرها، إلا ان هاشيك لم يطلب منه حتى عام (1921)، ان يصمم غلافا للحلقات الاسبوعية التي كانت «الجندي شفيك» تظهر فيها. وقد قبل «لادا» هذه المهمة وبدأ الرسم. هذا ويفيد «لادا» ان هاشيك صادق عليها وكذلك صديقه «ساور» وكان الاثنان آنذاك الناشرين الخصوصيين لرواية هاشيك. هذا ولم يتلق «لادا» المبلغ الذي وعد به لقاء ذلك أبداً، بل انه دفع ايضا فاتورة حساب الوجبة التي تمت الصفقة خلالها.

وكان ذلك الاسكتش اول رسمة توضيحية صوّرها «لادا» لرواية شفيك. وهي لا تشبه إلا قليلاً الرسومات التوضيحية اللاحقة التي نعرفها، ولكنها على اية حال الرسمة التوضيحية الوحيدة التي وافق عليها هاشيك شخصياً.

ولم يكلف لادا حتى عام (1924)، اي بعد وفاة هاشيك بسنة واحدة، بأن يرسم (540) رسمة توضيحية لرواية شفيك لصالح ملحق الأحد

الأسبوعي لصحيفة «تشييسكه سلوفو» اليومية، وقد ظهرت هذه الرسوم كل اسبوع على شكل مسلسل وكان يرفق بكل رسمة نص مختصر جداً مقتبس من الكتاب من قبل الرسام نفسه. وفي تلك الرسوم غير لادا شكل شفيك وخلق شخصيات اخرى وفق خياله هو. كما اخترع نهاية مختصرة للرواية غير المنتهية ورسم لها رسوما توضيحية. وقد لاقت هذه السلسلة الهزلية نجاحا شعبيا كبيرا وسرعان ما ادت الى ظهور طبعة جديدة للرواية تحوي ربع الرسوم التوضيحية الاصلية التي رسمها لادا. ولكن كان هناك تغيير في الرسوم. وقد بدا شفيك الآن ورأسه حلقة من البداية. وفي الحقيقة فإنه أصبح أقل شبها وبالتدريج بسترا شليبيكا الذي كان الموديل الأصلي للشخصية على الأرجح، وأكثر شبها بفكرة لادا عن الشخصية. وفي هذا الكتاب الذي بين أيدينا (156) من هذه الرسوم.

ورغم أن هاشيك لم ير هذه الرسوم او يوافق عليها، ورغم ان الشخصيات المرسومة لا تشبه إلا قليلاً الاشخاص الحقيقيين الذين هموا هاشيك، إلا انها اصبحت الآن جزءاً لا يتجزأ من شفيك كما اصبحت رسوم «تنيل» جزءاً لا يتجزأ من «أليس في بلاد العجائب». هذا ورغم عدم التشابه هذا، فإن هذه الرسوم تمثل بأمانة وبالكاريكاتور الصورة التي يحملها التشيكيون عن موظفي وضباط الامبراطورية النمساوية - الهنغارية.

ولو أن لادا لم يرحم أي ضابط أو موظف نمساوي إلا انه ليس أكثر رحمة في تصويره لشخصيات موطنه الأصلي: الكبار منهم والصغار وفي ذلك كان لادا مؤيداً لآراء هاشيك، فأكبر أحقق في الرواية «الملازم أول دوب» تشيكي الأصل وقد صور بالكاريكاتور دون رحمة.

ورغم أن لادا كان فنانا جديا نال الشهرة باللوحات المائية التي رسمها للمناظر الطبيعية وصور الحيوانات والرسوم التوضيحية للكتب، إلا انه يعرف اليوم على انه رسام شخصيات حكايات هاشيك. ويقال انه رسم

(1339) رسماً توضيحياً لمختلف أعمال هاشيك و(909) لرواية «الجندي الطيب شفيك» وحدها. إن رسومه الواضحة المعالم ذات الضربات الجزئية التي خلدت الأيماءات الهزلية لأشخاص ذلك العصر وتلك المنطقة، تجمع البدائي والشعبي على نحو مؤثر. إنها تمرد ضد تمجيد التاريخ والأسطورة التشيكيين الذي نراه في أعمال «مانيس» وأليش» من خلال رؤيتهما البطولية لـ«ليبوشه» و«جيجكا» أو «جيجي» من «بودبيرادي» بقدر ما هي كتابات هاشيك تمرد ضد الرومانسية الوطنية التي سادت الأدب التشيكي من «بيراسيك» إلى «ميديك».

ملاحظات حول الترجمة الإنكليزية

يواجه مترجم «الجندي الطيب شفيك» بعدد من المشاكل منذ البدء. ففي البداية لا توجد نسخة معتمدة للرواية. هذا ولم ير المؤلف سوى الطبعة الأولى والثانية خلال حياته، ولكن لا يوجد ما يثبت أن هذين النصين يمثلان ما كتبه هو فعلاً أو وافق عليه. هذا ولم يتبق من المخطوطة الأصلية سوى جزء منها. ويبدو أن المؤلف لم يكن يهتم كثيراً بما كان يكتبه طالما أنه أرسله إلى المطبعة.

إذن هناك مجموعتان من النصوص: النصوص التي نشرت قبل الحرب العالمية الأولى وهي التي كتبها المؤلف نفسه كما هو مفترض، والنصوص المنشورة بعد الخمسينيات وحتى الآن، والتي عدلت أملانيا ونحوها ومن حيث بناء الجمل. لقد اعتمدت في ترجمتي هذه على المجموعتين كليهما، وانتقيت النص الأوضح والأكثر تماسكاً. إن الخلافات بين النصوص، باستثناء التهجئة وبناء الجمل، ليست كبيرة، والخلاف الوحيد الرئيسي هو، حذف «رسالة» من هاشيك إلى «الرئيس ماساريك» وذلك في الطبعات التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية والتي كانت منشورة في طبعات ما قبل الحرب. وهذه الرسالة منشورة في هذه الترجمة.

لقد سبق لي ان اشرت الى اللغة التي يعبر بها شفيك عن نفسه واستحالة ترجمتها الى الانكليزية. يستعمل شفيك وكثير من الشخصيات الاخرى «التشيكية العامية»، وهي تختلف عن التشيكية الأدبية. ان استعمال التشيكية العامية في اقليمي بوهيميا ومورافيا لا يقتصر على غير المتعلمين. فالتشيكيون شعب ديمقراطي وحين يجتمعون ويطلقون العنان لأنفسهم، نراهم يتحدثون - متعلمين كانوا أم لا - بلهجة وطنية عامية. وهذه لا يمكن ترجمتها على نحو ملائم الى الانكليزية حيث أن المعادل الوحيد المناسب سيكون إما الانكليزية العامية أو الانكليزية الرديئة وكتاهما ستكونان غير صالحتين في هذا السياق. وعلينا ان نذكر ان الأحداث تجري خلال الحرب العالمية الأولى في الامبراطورية النمساوية - الهنغارية بين شخصيات تشيكية وهذا سيخلق جوا غير صحيح إذا كانت اللغة المستعملة في الترجمة الانكليزية ذات علاقة بأناس وشروط من نوع مختلف تماما. ان الكثير من سحر سرد شفيك لحكاياته يكمن في استعماله للتشيكية العامية.

وهناك مشكلة اخرى، وهي انه رغم أن كل قومية في الجيش النمساوي - الهنغاري كانت تتحدث بلغتها ضمن وحداتها، إلا ان اللغة الالمانية كانت لغة القيادة. ولذا يوجد في الكتاب عدد كبير من الكلمات والعبارات الالمانية، بعضها مشوه بسبب لفظها على نحو خاطئ من قبل التشيكيين. كما ان هناك أهمية ومغزى حين تتحدث الشخصيات بالألمانية أو بالتشيكية وكذلك نوع هذه اللغة الالمانية او التشيكية التي يجري الحديث بها. وهذا ايضا أمر لا يمكن نقله على نحو مناسب في الترجمة.

وهناك تعقيد آخر يتجلى في غنى «اللغة العامية الرديئة» التشيكية بالمقارنة مع «اللغة العامية الرديئة» الانكليزية. فهناك قاسم مشترك بين التشيكية واللغات السلافية الاخرى والالمانية كذلك في كونها تفتخر

بحيازتها على مدى واسع من كلمات الشتيمة وبكل درجات الكثافة المعروفة. ولا يمكننا ان نقارن هذه مع ما هو موجود في بريطانيا حيث ان حجم هذه المصطلحات الخاصة بالشتيمة قليل جدا - ولا شك ان ذلك يعود الى تأثير البيوريتانية - كما ان تعبيرنا شديدة اللهجة في هذا المجال تقتصر على سبّة واحدة او اثنتين مبتذلتين فحسب. أما الشائم في التشيكية فتتضمن عادة الحيوانات المنزلية والبراز او تلك الاجزاء المتعلقة به من البدن. اما مثيلاتها بالإنكليزية فتتعلق عادة بالوظائف الجنسية او مختلف انواع الشذوذ الجنسي، رغم ان هناك بالطبع مساحة ضيقة مشتركة بين اللغتين. واذ لاحظ القارئ وجود نوع من الرتابة في الكلمات التي اختارها المترجم فأمل ان يدرك هذا القارئ ان العازف مضطر للتقيّد بحدود آتة.

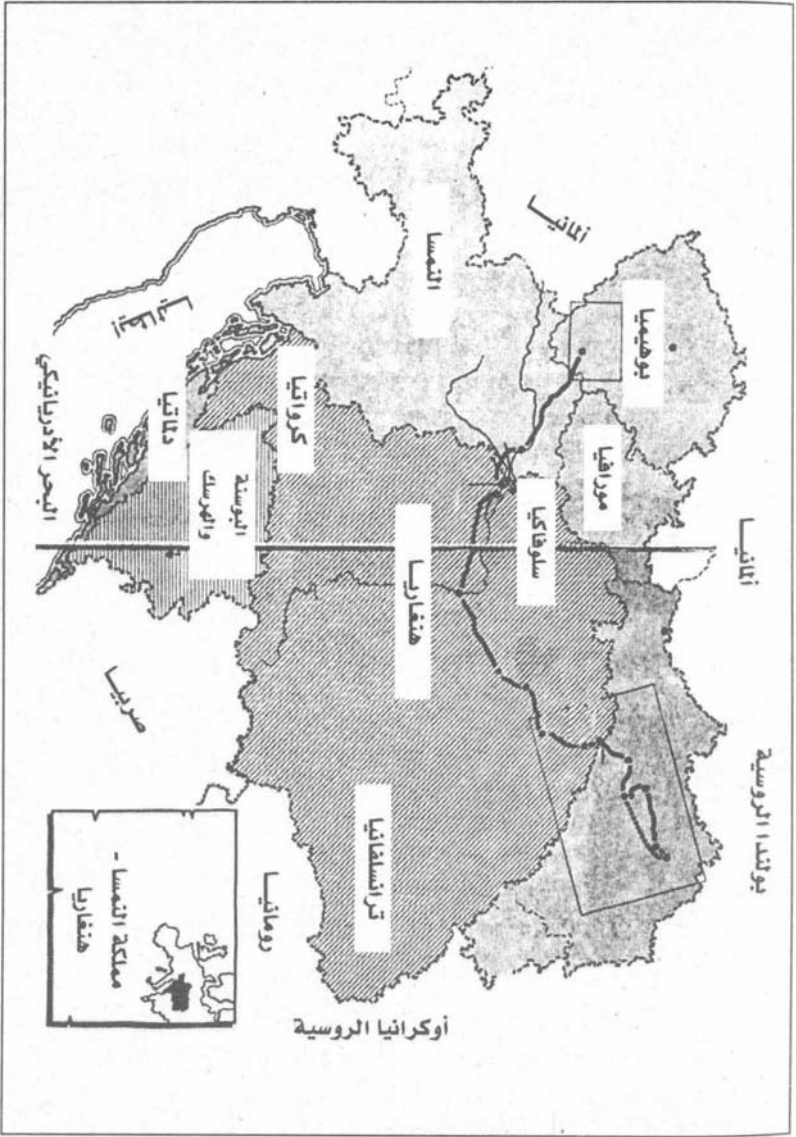
ومن مميزات اسلوب شفيك في سرد الحكايات انه لا يكثرث ببناء الجملة. وهذا يشير بالطبع الى عقليته الخاصة وهو جزء من شخصيته، ولكنه انعكاس ايضا لعدم اكتراث المؤلف بقواعد النحو. وخلال ترجمة طُرف شفيك المطوّلة فقد كان من الضروري تقسيم بعض جملة حتى يستطيع القارئ فهم معناها ويدرك مغزى الحكاية، وقد فعل المترجم ذلك مخاطرا بأن يتهم بأنه قد «صحح» عمل هاشيك. وفي الحقيقة فإن على اي مترجم لهاشيك ان يمارس كبحا كبيرا للنفس حيث انه غالبا ما يشعر باغراء يدعو الى اعادة كتابته. وقد ينجم عن ذلك كله ان هناك مقاطع من رواية «الجندي الطيب شفيك» الاصلية غير مفهومة تماما. وفي مثل هذه الحالات يضطر المترجم الى ان يتركها كما هي اي غير مفهومة. ولحسن الحظ فإن مثل هذه الحالات قليلة جداً وليست ذات اهمية حيوية.

هذه اذن أول ترجمة كاملة غير مشدّبة لرواية «الجندي الطيب شفيك» باللغة الانكليزية. أما المترجم الوحيد السابق فقد اختصر الكتاب الى اقل من ثلثي النسخة التي بين أيدينا. ولا شك ان هاشيك كان يكتب ليكسب وانه زاد

في حجم الكتاب حتى يزداد مدخوله منه. ليس هناك من يذكر ان الكتاب في حاجة الى تشذيب، ولكن الامر يختلف حين تمارس الرقابة على الكتاب. لقد متّع هاشيك قراءه بكلمات لم تظهر قبله في الأدب التشيكي. وفي الملاحظة التي كتبها في آخر الجزء الاول من الرواية نراه يفسر السبب في فعله ذلك ومدى اهمية ذلك له. وفيما يخص الترجمة فإن حذف الطرائف او النكات لانها «بذيئة» او حذف التلميحات الى الملوك او الآلهة لأن في ذلك خيانة وتجديفاً، مثل هذا الحذف لم يكن مبرراً عام (1930)، فكيف ندافع عنه في عام (1973). اليوم يجب أن يقف «الجندي الطيب شفيك» كما هو دون ورقة التوت.

أشعر بامتنان عظيم للدكتورة «دانا كنيوركوفا» لمساعدتها التي لا تقدر بثمن اذ قرأت مخطوطتي وساعدتني على حل الكثير من المشاكل المتعلقة بالترجمة.

(سيسيل باروت)



مقدمة

تتطلب الأوقات العظيمة رجالا عظاما. هناك أبطال غير معروفين، متواضعون، ولا يتمتعون بأي فتنة تاريخية كالتي كانت لنابليون. وإذا ما حللت شخصيتهم ستجد انها ستكسف حتى مجد اسكندر الكبير. واليوم يمكنك ان تقابل في شوارع براغ رجلاً يرتدي ملابس رثة، لا يدرك حتى هو نفسه اهميته في تاريخ هذا العهد الحديث العظيم. انه يسير بتواضع في طريقه دون ان يزعج أحداً. ولا يزعجه الصحفيون طالبين منه المقابلات. ولو سألته عن اسمه سيجيبك ببساطة ودون ادعاء: (أنا شفيك).

وهذا الرجل الهادئ، غير المدعي، الرث الثياب، هو بالفعل ذلك الجندي العجوز الطيب البطولي الشهم الذي اسمه شفيك. خلال العهد النمساوي كان اسمه مرة على شفاه كل سكان مملكة بوهيميا، كما ان مجده لن يخبو في الجمهورية ايضا.

أنا مولع جدا بالجندي الطيب شفيك، وإذ احكي لكم مغامراته في الحرب العالمية فأنا على قناعة بأن هذا البطل المتواضع المجهول سيكسب تعاطفكم جميعا. وهو بخلاف ذلك الأحمق «هيروستراتس» لم يشعل النار في معبد الآلهة في ايفيسوس لمجرد ان تذكر اسمه الصحف والكتب المدرسية.

وهذا يكفي.

المؤلف

ياروسلاف هاشيك

1



الجندي الطبيب شفيك

يتدخل في الحرب الكبرى

«اذن فقد قتلوا فرديناند»⁽¹⁾

هذا ما قالته الخادمة للسيد شفيك الذي كان قد ترك الخدمة العسكرية منذ سنوات خلت، بعد ان شهد له مجلس طبي عسكري بأنه معتوه، وأصبح يمتهن الآن بيع الكلاب: وهي كلاب بشعة ووحوش هجينة يزور لها شفيك أنسابها.

(1) فرديناند: هو الارشدوق فرانتس فرديناند، ابن أخ الامبراطور النمساوي فرانتس يوسف، وقد اغتيل مع زوجته على يد مواطن صربي قومي النزعة اسمه «غافريلو برينسيب» عام 1914 (سيسيل باروت) وكانت تلك هي الشرارة التي أضرمت الحرب العالمية الأولى) المترجم.

وإذا وضعنا مهنته جانبا فإنه كان يعاني من الروماتيزم وكان في هذه اللحظة بالذات يفرك ركبتيه بمرهم «أليمان».

سألها شفيك وهو يستمر في التمسيد: «أي فرديناند يا سيدة مولر؟ أعرف اثنين بهذا الاسم. احدهما يعمل ساعيا لدى «بروشا» الصيدلي، وقد شرب مرة بطريقة الخطأ زجاجة زيت شعر. والآخر هو، «فرديناند كوكوشكا» الذي يجمع روث الكلاب للسماد. ولا أجد في موت اي منهما اية خسارة».

- لا يا سيدي، انه صاحب السمو الامبراطوري الآرشدوق فرديناند من «كونويشتيه»، ذلك البدين المتمسك بتقاليد الكنيسة.

صاح شفيك:

- لليسوع ومريم! ياله من عمل فخم! وأين حدث ذلك لسموه الامبراطوري؟

- لقد قتلوه في سارايفو يا سيدي، بمسدس، كما تعلم. كان هناك في سيارة مع آرشدوقته.

- حسنا هذا ما حدث يا سيدة مولر راذن، في سيارة. نعم، بالطبع، ان جتلماناً مثله يمكنه أن يشتري مثلها، ولكنه لم يتخيل أبداً أن مشواراً بها قد ينتهي بهذا السوء! وفي سارايفو أيضاً! انها في البوسنة يا سيدة مولر. اعتقد ان الأتراك فعلوها. كما تعرفين، كان من الواجب الا تأخذ البوسنة والهرسك منهم⁽¹⁾. هكذا اذن يا سيدة مولر. ان صاحب السمو الامبراطوري يستريح الآن مع الملائكة. هل عانى طويلاً؟».

- لقد مات صاحب السمو الامبراطوري على الفور يا سيدي. أنت

(1) بعد الحرب الروسية التركية بين عامي (1875-1878) احتلت الامبراطورية النمساوية - الهنغارية البوسنة والهرسك. وقد بقيتا تحت السيادة التركية حتى عام (1908) حين ضمتهما الامبراطورية النمساوية - الهنغارية إليها. (س. ب).

تعرف ان المسدس ليس مجرد دمية. منذ فترة ليست بالطويلة كان هناك سيد في «نوسله» مسقط رأسي، يحب العبث بمسدس ايضا. وما الذي حدث؟ لقد قتل عائلته كلها والبواب الذي جاء ليرى من كان يطلق النار في الطابق الثالث.

- هناك مسدسات يا سيدة مولر لا تنطلق حتى لو فجرت نفسك. هناك الكثير من المسدسات من ذلك النوع. ولكن لا بد انهم قد اشتروا شيئا افضل لأجل صاحب السمو الامبراطوري. ولا مانع عندي أن أراهن يا سيدة مولر على ان الشاب الذي فعل ذلك قد ارتدى ملابس أنيقة لهذه المناسبة. اطلاق النار على سمو امبراطوري ليس بالعمل السهل كما تعرفين. لا يشبه ذلك اطلاق سارق الصيد النار على حارس الطرائد. المشكلة هي كيفية الوصول إليه. لا يمكنك الاقتراب من جنتلمان رائع كهذا إذا كنت ترتدين خرقة بالية. يجب ان ترتدي قبعة حريرية عالية حتى لا تعتقلك الشرطة سلفاً.

- يقال انهم كانوا كثيرين هناك.

قال شفيك وهو ينتهي من تمسيد ركبتيه: «طبعاً يا سيدة مولر. إذا اردت قتل صاحب السمو الامبراطوري، فستحتاجين الى النصح. ان عدة رؤوس أكثر حكمة من رأس واحد. يقول أحدهم هذا الرأي فييدي الآخر رأياً مختلفاً ثم يتوج العمل بالنجاح كما يقول نشيدنا الوطني. الأمر الاساسي هو ان ينتظر المرء حتى لحظة مرور جنتلمان كذاك بالقرب منه. مثل «لوتشيني» العجوز. هل تذكرينه ذاك الذي طعن مرحومتنا المأسوف عليها اليزابيت⁽¹⁾ بمبرد؟ لقد ذهب ليتمشى معها. من الذي يثق بأي شخص الآن؟ بعد الآن لن تكون هناك مشاوير مع الامبراطورات وهناك الكثير من

(1) اليزابيت هي امباطورة النمسا التي طعنها احد الفوضيين عام (1898) في سويسرا. (س.ب).

الاشخاص الذين سيأتي دورهم ايضا، كما تعرفين. تذكرتي كلماتي هذه يا سيدة مولر، سيأتي بعد ذلك دور قيصر وقيصرة روسيا وربما - لا سمح الله - دور حتى صاحب الجلالة الامبراطورية، الامبراطور، بما أنهم بدؤوا بعمه⁽¹⁾. ان لديه كثيرا من الاعداء، ذلك الجنتلمان العجوز. حتى اكثر مما لدى فرديناند. ومنذ فترة ليست بالطويلة كان هناك جنتلمان في احد البارات يحكي لنا انه سيأتي زمن يقتل فيه الأباطرة جميعا الواحد تلو الآخر، ولن تستطيع كل جيادهم ورجالهم انقاذهم. وبعد ذلك لم يكن لدى ذلك الجنتلمان مال يدفع به الحساب فسلمه صاحب البار الى الشرطة. وقد لكّم صاحب البار في فكه مرة ولكم الشرطي مرتين. وهكذا أخذوه بعد ذلك في عربة السكارى ليجعلوه يصحو ثانية. حسنا يا سيدة مولر، ياله من عالم ذاك الذي نعيش فيه وبكل تأكيد! يا لها من خسارة للنمسا مرة اخرى! حين كنت في الجيش قتل جندي مشاة نقيبا مرة. لقد حشا بندقيته ودخل مكتبه. قالوا له ان عليه أن يغادر المكتب ولكنه ألح على مخاطبة النقيب. خرج النقيب وصاح فوراً: «يُحبس في الثكنة!» ولكن الجندي أمسك ببندقيته فانطلقت واصابت النقيب في قلبه. ثم طارت الرصاصة من ظهره واعطبت المكتب ايضا. لقد كسرت زجاجة حبر فلوثبت الوثائق الرسمية.

- يا للرب الطيب، وماذا حدث للجندي؟

هكذا سألت السيدة مولر فيما بعد بينما كان شفيك يرتدي ملابسه.

قال شفيك وهو ينظف قبعته المستديرة السوداء:

- لقد شق نفسه بحمالة بنطاله. فضلا عن ذلك لم تكن الحمالة ملكا له. كان قد استعارها من السجان بحجة أن بنطاله كان يسقط باستمرار. هل تعتقدين انه كان عليه ان ينتظر حتى يعدموه بالرصاص؟ أنت تعرفين يا سيدة مولر انه في موقف كذاك سيكون اي شخص في حالة اضطراب. لقد أنزلوا

(1) في الواقع كان فرانتس فرديناند هو ابن اخ الامبراطور. (س.ب.)

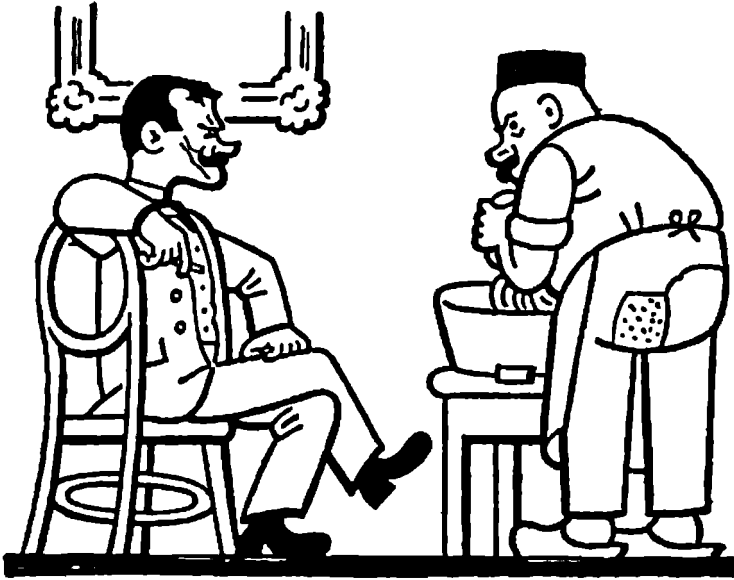
رتبة السجنان بسبب ذلك وحكموا عليه بالسجن ستة أشهر. ولكنه لم يته في فترة السجن بل هرب الى سويسرا وأصبح اليوم واعظاً في احدى الكنائس. في هذه الأيام لا يوجد سوى القليل من الناس الشرفاء يا سيدة مولر. استطيع ان اتخيل ان صاحب السمو الامبراطوري آرشدوق فرديناند، قد ارتكب خطأ ما تجاه ذلك الشاب الذي قتله. لقد شاهد جتلمانا وفكر: «لا بد انه شخص محترم حتى يهتف لي». إلا انه بدلا عن ذلك أطلق عليه النار بوم! بوم! هل اطلق عليه مرة واحدة او عدة مرات يا سيدة مولر؟.

- تقول الصحيفة يا سيدي ان صاحب السمو الامبراطوري قد تخرم جسده كالغربال. لقد افرغ كل رصاصاته فيه.

- حسنا، كان سريعا جدا يا سيدة مولر، سريعا الى حد رهيب. لو كنت أنا في مكانه لاشرتيت مسدسا من نوع براونينغ لمثل هذه المهمة. انه يبدو كدمية، ولكن في خلال دقيقتين تستطيعن ان تقتلي عشرين آرشدوقا به سواء كانوا نحيلين او بدنيين.. رغم اني اظن- وهذا بيني وبينك يا سيدة مولر- ان آرشدوقاً بديناً هو كههدف افضل من آرشدوق نحيل. هل تذكرين ذلك الملك الذي اطلقوا عليه النار في البرتغال؟ لقد كان رجلاً بديناً أيضا. على اية حال انت لا تتوقعين من ملك ان يكون نحيلاً، أليس كذلك؟ حسناً، سأذهب الآن الى البار، «بار كأس القربان»، وإذا ما جاء احد الى هنا من اجل ذلك «البنشر» المنمنم الذي قبضت سلفة عليه، فقول لي إن الكلب موجود عند مربى الكلاب الخاص بي في الريف، وإني قد قطعت أذنيه للتو ولا يجب ان يتحرك الآن قبل ان تشفى أذناه، وإلا فإنهما ستصابان بالبرد. هل لك ان تعطي المفتاح الى بواب المنزل من فضلك؟

* * *

كان هناك زبون واحد في «كأس القربان»، الا وهو الشرطي «بريتشنايدر» في الملابس المدنية الذي يعمل لدى «فرع أمن الدولة». وكان



صاحب البار «باليفتس» يغسل الكؤوس بينما يحاول بريتشنايدر عبثاً ان يورطه في حديث جدي.

كان باليفتس مشهوراً بلسانه السليط. فكل ثاني كلمة يقولها كانت اما «مؤخرة» او «براز». ولكنه كان في الوقت نفسه قارئاً جيداً ويدعو الجميع الى قراءة ما كتبه فيكتور هوغو حول هذا الموضوع حين وصف آخر جواب اعطاه حرس نابليون الخاص للبريطانيين في معركة واترلو⁽¹⁾.

قال بريتشنايدر وهو يياشر حديثه الجدي: «حسناً، انه صيف مجيد!».

أجاب باليفتس وهو يضع الكؤوس في خزانة: «براز على كل شيء».

قال بريتشنايدر بأمل ضعيف: «لقد فعلوا بنا شيئاً جميلاً في سارايفو».

سأله باليفتس: أي سارايفو؟ هل تعني قبو الخمرور ذاك الذي في «نوسله»؟

انهم يتشاجرون باستمرار هناك كما تعرف. طبعاً هذه هي «نوسله».

(1) حين طلب القائد البريطاني من المارشال كاميرون الاستسلام فقد اشتهر عنه انه اجاب: برازا الحرس يموت ولا يستسلم». (س.ب).

- بل في سارايفو في البوسنة يا سيد باليفتس. لقد قتلوا قبل قليل صاحب السمو الامبراطوري الآرشدوق فرديناند هناك. ما رأيك في ذلك؟

- لا اقحم أنفي في مثل هذه الأمور. يمكنهم ان يقبلوا مؤخرتي لو فعلت! هذا ما اجاب به باليفتس بلهجة مهذبة وهو يشعل غليونه. ثم قال:

- في هذه الأيام إذا ما تورط شخص ما في امر كهذا، فسوف يغامر بعنقه. أنا صاحب محل، وحين يدخل اي شخص الى هنا ويطلب كأساً من الجعة اماً له كأسه. ولكن سارايفو والسياسة والآرشدوق المرحوم المأسوف عليه امور لا علاقة لاشخاص مثلنا بها. انها تؤدي مباشرة الى بانكراتس⁽¹⁾.

صمت بريتشنايدر ونظر خائب الرجاء في أرجاء البار الفارغ من الزبائن. ثم عاد مرة أخرى بعد قليل ليقول: «هاهه! كانت هناك صورة لصاحب الجلالة الامبراطورية معلقة حيث المرأة الآن».

قال باليفتس:

- أنت على حق. لقد كانت معلقة هناك، ولكن الذباب اعتاد على ان يبرز عليها، ولذا وضعتها في العلية. ربما يأتي شخص ما ويجرؤ على ان يلاحظ الموضوع وعندها لن يكون الامر داعياً للسرور. لا اريد ذلك، هل اريده لنفسني؟

- كان أمراً شديداً البشاعة ما حدث في سارايفو يا سيد باليفتس.

هذا السؤال الماكر المباشر أثار جواباً شديداً الحذر من باليفتس:

- في مثل هذا الوقت من العام يكون الحر شديداً لاذعاً في البوسنة والهرسك. حين خدمت في الجندية هناك كنا نضطر الى وضع الثلج فوق رأس ملازمنا.

- في اي فوج خدمت يا سيد باليفتس؟

(1) سجن مدينة براغ. (س.ب).

- لا استطيع ان اتذكر مثل هذا الامر شديد التفاهة. مثل هذا الهراء لم يكن موضع اهتمامي بالمرّة، ولم يسبق لي ان اوجعت رأسي به. الفضول قتل القطّة!

صمت بريتشنايدر نهائيا. ولم يشرق وجهه العابس إلا مع وصول شفيك الذي دخل البار وطلب جعة سوداء داكنة ثم قال: «اليوم سيكون هناك حداد في فيينا ايضا».

لمعت عينا بريتشنايدر بالأمل، فقال باقتضاب: «على كونوبيشتييه عشر رايات سوداء».

قال شفيك بعد ان جرّع جرعة كبيرة: «يجب ان يكون هناك اثنتا عشرة راية».

قال بريتشنايدر: «ما الذي يجعلك تظن انها اثنتا عشرة؟».

أجاب شفيك: «حتى تكون رقما مدوّرا. الدزينة جمعها افضل، والدزينات ارحص دائما».

ساد الصمت، ولكن شفيك حطمه بتنهيده: «اذن فهو قد سبق له وتمدد هناك مع الرب والملائكة. يا للمجد! لم يعيش حتي يصبح امبراطورا. حين كنت في الخدمة العسكرية سقط جنرال عن جواده مرة وقتل نفسه دون اي هرج او مرج. أرادوا ان يعيدوه الى ظهر جواده، ان يرفعه، ولكنه كان وبالدهشتهم ميتا تماما. وكان سيرقى الى رتبة فيلد مارشال. لقد حدث ذلك خلال استعراض عسكري. هذه الاستعراضات لا فائدة منها. في سارايفو كان هناك استعراض ايضا. أتذكر مرة أني في استعراض كذاك فقدت عشرين زرا من بزتي العسكرية وقد ارسلت الى الحبس الانفرادي لمدة اسبوعين، حيث تمددت هناك مقيداً لمدة يومين مثل أليعازر. ولكن عليك في الجيش ان تكون انضباطيا وإلا فلماذا يكثرث اي شخص اطلاقا؟ لقد اعتاد ملازمنا ماكوفيتس ان يقول: لا بد من النظام ايها الحمقى اللعينون،

وإلا لكتتم تتقافزون على الأشجار كالقروود. الجيش سيصنع منكم بشرا، أنتم أيها البلهاء المنبوذون من الرب! أوليسَ هذا صحيحا؟ تصوروا حديقة عامة، في «ساحة تشارلز» مثلا، وعلى كل شجرة جندي غير منضبط! في هذا ما يكفي لمنحك كابوسا!

استأنف بريتشنايدر قائلاً: «في سارايفو كان الصرب هم من ارتكبوا ذلك».

اجاب شفيك: «أنت على خطأ هنا. لقد كان الأتراك هم مرتكبو الحادث وذلك بسبب البوسنة والهرسك».

ثم شرح شفيك آراءه حول السياسة الخارجية النمساوية في البلقان. في عام (1912) خسر الأتراك الحرب مع الصرب وبلغاريا واليونان. كانوا يريدون من النمسا ان تساعدهم، ولما لم يحدث ذلك، قتلوا فرديناند.

قال شفيك وهو يلتفت الى بالفيتس: «هل تحب الأتراك؟ هل تحب اولئك الكلاب الوثنيين؟ أنت لا تحبهم أليس كذلك؟».

قال بالفيتس: «كل الزبائن سيان عندي، حتى لو كانوا من الأتراك. بالنسبة لاصحاب المحلات من أمثالنا فإن السياسة لا علاقة لها بنا. ادفع ثمن جعتك، اجلس في باري وثرثر كما شئت. هذا هو مبدئي. والأمر سيان لديّ أكان فرديناندنا قد قتل على يد صربي أو تركي، كاثوليكي أو مسلم أو فوضوي من حزب تشيكوسلوفاكيا الفتاة⁽¹⁾».

استأنف بريتشنايدر الكلام وكان قد بدأ ييأس من إمكانية اصطلياد اي منهما: «حسنا يا سيد بالفيتس، ولكنك ستقر معي ان في ذلك خسارة كبيرة للنمسا».

اجاب شفيك نيابة عن صاحب البار قائلا: «اجل، انها لخسارة بالفعل،

(1) الحزب الوطني الليبرالي التشيكي الذي كان تحت قيادة الدكتور كرامارج الذي اصبح لاحقا راول رئيس وزراء للجمهورية التشيكوسلوفاكية. (س.ب).

لا يمكن إنكار ذلك. خسارة تبعث على الصدمة. لا يمكنك استبدال اي احمق تافه لا يساوي شيئا بفرديناند. ولكن كان عليه ان يكون اكثر بدانة فحسب».

تحمّس بريتشنايدر فقال: «ما الذي تعنيه؟».

أجاب شفيك بسعادة: «ما الذي اعنيه؟ ما اعنيه هو انه لو كان ابدن لكان قد مات بالسكّنة منذ زمن طويل، حين كان يطارد اولئك النسوة العجائز في كونوبيشتييه وهن يجمعن الحطب ويقطفن الفطر في اقطاعيته، ولم يكن ليموت تلك الميئة المخجلة. تخيلوا، تخيلوا ان عما لصاحب الجلالة الامبراطورية يقتل بالرصاص! عجباً، انها لفضيحة. الجرائد كلها تتحدث عن ذلك. منذ اعوام في مدينة بودييوفيتسه طعن تاجر مواش يسمى برتيسلاف لودفيك في ساحة السوق في شجار تافه. كان له ابن يدعى بوهوسلاف. وحيثما ذهب ذلك الفتى لبييع خنازيره لم يجد من يشتري منها شيئاً حتى قال الجميع: (هذا هو ابن ذلك الرجل الذي مات طعنا. ربما يكون ابن زنا من الطراز الاول أيضاً!) ولم يجد أمامه سوى ان يقفز في نهر فلتافا من ذلك الجسر في كروملوف، وكان عليهم ان يسحبوه من النهر وان يعيدوه الى الحياة ويضخوا الماء من جوفه، ثم كان عليه ان يموت طبعاً بين ذراعي الطبيب في تلك اللحظة التي كان يعطيه فيها الحقنة».

قال بريتشنايدر بلهجة صاحب الشأن: «ان مقارناتك غريبة بالفعل. تتحدث اولاً عن فرديناند ثم عن تاجر مواش».

دافع شفيك عن نفسه قائلاً: «لا، لست افعل ذلك. إني - لا سمح الله - لا اقرن احداً بأحد. السيد باليفتس يعرفني جيداً. لم يسبق لي ان قارنت احداً بأحد اطلاقاً، أليس كذلك؟ ولكني لن ارغب في ان اكون مكان ارملة ذلك الارشديق. ما الذي ستفعله الآن؟ الاولاد اضحوا ايتاماً والاقطاعية في كونوبيشتييه صارت دون سيد. هل تتزوج آرشدوقاً جديداً؟ ما الذي

ستكسبه من ذلك؟ ستذهب معه مرة أخرى الى سارايفو وترمل من جديد؟ كما تعرف فإنه كان في «زليف» بالقرب من «هلوبوكا⁽¹⁾» حارس طرائد. كان له اسم بشع جدا في «بندور⁽²⁾». وقد اطلق عليه النار بعض سارقي الصيد، وقد ترك وراءه ارملة وطفلين صغيرين. وخلال عامين تزوجت ارملة حارس صيد آخر اسمه «بييك شافل» من «ميدلو فاري». وقد قتل هذا ايضا. ثم تزوجت للمرة الثالثة من حارس صيد ايضا وقالت: «الثالثة ثابتة». وإذا لم انجح هذه المرة لن اعرف ما سأفعله». حسنا، لقد قتلوا الثالث ايضا واصبح لديها ستة اطفال الآن، حتى انها ذهبت الى مكتب صاحب السمو الأمير في «هلوبوكا» وشكت مما اصابها من حراس الصيد اولئك. وهكذا نصحوها بالزواج من شخص اسمه «ياريش⁽³⁾» يعمل كمسؤول عن الماء في برج المراقبة في «راجيتسه». وهل تستطيع ان تتخيل ما حدث؟ لقد غرق في البحيرة وهما يحاولان صيد السمك كله منها. وقد رزقت منه ايضا بولدين. ثم تزوجت رجلا يعمل في خصي الخنازير من «فودنياني». وفي احدى الليالي ضربها هذا على رأسها بفأس ثم سلم نفسه للشرطة طوعا. وحين شنقوه فيما بعد في ساحة الاقليم في «بيشيك» عض أنف الكاهن وقال انه غير نادم على اي شيء. كما قال شيئا شديد الفظاظه حول صاحب الجلالة الامبراطورية».

سأله بريتشنايدر والأمل يملؤه: «وهل تعرف يا ترى ما قاله؟».

- لا استطيع ان اقله لك لانه لا يوجد من يجرو على تكرار ما قاله. ولكن قيل لي انه شيء رهيب وفظيح بحيث ان احد القضاة اصيب بالجنون، ولا زال حتى اليوم موضوعا في الحبس الانفرادي حتى لا يعزف احد ما قاله المحكوم. ولم يكن ما قاله هو ذلك النوع العادي من الشتائم الذي يطلقه الناس

(1) انطاكية شهيرة للامير شفار نسيبرغر في بوهيميا الجنوبية. (س.ب).

(2) Little cock.

(3) كان جد هاشيك يسمى «ياريش» وكان يعمل كمسؤول عن الماء. (س.ب).



عادة على صاحب الجلالة الامبراطورية حين يكونون في حالة ضيق.

سأله بريتشنايدر: «وما هو ذلك النوع من الشتائم الذي يطلقه الناس عادة على صاحب الجلالة الامبراطورية حين يكونون في حالة ضيق؟».

قال باليفتس: «ها ايها السيدان، غيرا الموضوع رجاء. تعرفان اني لا احب هذا الموضوع. قد يتكلم احد كلاما في غير مكانه ونندم على ذلك».

كرر شفيك قائلا: «ما هو نوع الشتائم الذي يطلقه الناس عادة على صاحب الجلالة حين يكونون في حالة ضيق؟ كل الانواع، اسكر، ثم فليعزف النشيد الوطني النمساوي وسترى ماذا ستقول أنت نفسك! سترى نفسك وانت تفكر في كثير من الامور التي تتعلق بصاحب الجلالة الامبراطورية، ولدرجة انه لو كان نصف ما تفكر به صحيحا لكان كافيا للاحق الخزي به طوال حياته. ولكن ذلك الجتلمان العجوز لا يستحق ذلك بالفعل. فكر معي فقط بالذي اصابه! فابنه «رودولف»⁽¹⁾ الذي مات في ريعان الشباب، وفي اوج الرجولة، وزوجته اليزابيت التي طعنت بمجرده، ثم «جان اورت» الذي مات هو ايضا. اما اخوه امبراطور المكسيك⁽²⁾، فقد اوقف امام جدار واطلقت النار عليه في قلعة ما في مكان ما. وها هم الآن يقتلون له عمه بعد ان اصبح عجوزا. على الرجل ان يتحلى بأعصاب فولاذية حتى يتحمل ذلك كله. وبعد ذلك كله ها هو ابن زنا سكير يشتمه. لو انطلق المنطاد اليوم فسأذهب كمنطوع واخدم صاحب الجلالة الامبراطورية حتى آخر قطرة من دمي».

أخذ شفيك جرعة كبيرة من الجعة ثم استأنف قائلا:

- هل تظن فعلا ان صاحب الجلالة الامبراطورية سيصبر على مثل هذا النوع من الامور؟ إن كان الامر كذلك فأنت لا تعرفه اذن على الاطلاق.

(1) رودولف ابن الامبراطور فرانتس يوسف ووريث العرش والذي مات على نحو غامض في قصر الصيد الخاص به منطقة «مايرلينغ». (س.ب).

(2) الارشدوق يوهان تخلي عن لقب أسرة هابسبورغ وسمى نفسه «يوهان اورت». أما فرديناند مكسيميليان، اخو الامبراطور فقد توج امبراطورا للمكسيك وقد أسر ثم اعدم عام (1867). (س.ب).

ستكون هناك حرب مع الاتراك دون ريب. «لقد قتلتم عمي ولذا سأحطم فككم». الحرب اكيده. سيساعدنا الصرب وروسيا. لن يكون هناك نصف حمام دم.

بدا شفيك جميلا في لحظة النبوة تلك. كان وجهه البسيط، المبتسم كالبدريشع بالحماسة. كانت الامور كلها واضحة بالنسبة له.

قال وهو يستمر في عرضه لمستقبل النمسا: «لو جرت الحرب مع الاتراك ربما يهاجمنا الالمان، لان الالمان والاتراك متعاضدون معا. لا يمكنك ان تجد اولادنا اكبر منهم في اي مكان. ولكن يمكننا ان نتحالف مع فرنسا الحاقدة على المانيا منذ عام (1871). ثم سينطلق المنطاد. ستكون هناك حرب. ولن اقول اكثر من ذلك».

انتصب بريتشنايدر واقفا وقال بلهجة وقورة: «لا حاجة بك الى ذلك. تعال معي الى الممر. لدى شيء اقله لك هناك».

تبع شفيك الشرطي المرتدي الملابس المدنية الى الممر حيث كانت



تنتظره مفاجأة صغيرة. لقد اظهر له رفيق الشراب شعار النسر⁽¹⁾ واعلن له انه سيلقي القبض عليه ويسوقه فوراً الى مقر رئاسة الشرطة. حاول شفيك ان يشرح للجنتمان انه لا بد مخطئ، وانه بريء تماماً وانه لم يلفظ كلمة واحدة يمكن ان تزعم أحداً.

وعلى اية حال، قال له بريتشنايدر انه قد ارتكب بالفعل عدة جرائم بما فيها جريمة الخيانة العظمى.

ثم عاد الى البار وقال شفيك لباليفتس: «لقد شربت خمسة كؤوس جعة وأكلت زوجاً من مقائق فرنكفورت وقرصاً من الخبز. والآن اعطني كأساً من السيلفوليتسه وسأرحل لاني رهن الاعتقال».

اظهر بريتشنايدر شعار النسر لباليفتس ثم حدق فيه للحظة وسأله:

- هل أنت متزوج؟

- نعم.

- هل يمكن للسيدة زوجتك ان تنوب عنك في العمل خلال غيابك؟

- نعم.

وهنا قال بريتشنايدر بمرح:

- حين اذن يا سيد باليفتس. استدع زوجتك الى هنا، وسلمها مكانك،

وفي المساء سنأتي لنصطحبك.

حاول شفيك ان يواسيه فقال: «هون عليك، سأذهب الى هناك بتهمة

الخيانة العظمى فحسب».

أن باليفتس قائلاً: «ولكن بأي تهمة سأذهب أنا. وعلى كل حال فقد

كنت شديد الحذر».

ابتسم بريتشنايدر وقال بلهجة الانتصار: «لانك قلت ان الذباب برز على

(1) وهو النسر ذو الرأسين الذي كان شعار فرع امن الدولة النمساوي. (س.ب).

صاحب الجلالة الامبراطورية، فإنهم سيقومون باخراج صاحب الجلالة الامبراطورية من رأسك بالقوة وبكل تأكيد».

وهكذا غادر شفيك «كأس القربان» بمرافقة الشرطي المرتدي الملابس المدنية، وحين خرجا الى الشارع التمع وجهه بابتسامة ودية وسأل: «هل انزل عن الرصيف؟».

- ما الذي تعنيه؟

- ظننت اني طالما كنت موقوفا فلا حق لي بالسير على الرصيف.

وحين عبرا باب مقر رئاسة الشرطة قال شفيك: «حسن، لقد تمتعنا بوقتنا هناك. هل تتردد كثيرا على «كأس القربان»؟».

وبينما كانوا يصطحبون شفيك الى مكتب الاستقبال كان باليفتس في «كأس القربان» يسلم ادارة البار الى زوجته المنتحبة، وهو يواسيها بأسلوبه الفريد: «لا تبكي، ولا تنتحيي ما الذي سيفعلونه لي بسبب براز ما على صورة صاحب الجلالة الامبراطورية؟».

وهكذا حدث ان تدخل الجندي الطيب شفيك في الحرب العظمى بأسلوبه العذب الفاتن. وسيهتم المؤرخون برويته البعيدة للمستقبل. ولو ان الموقف قد تطور على نحو مختلف عما توقعه هو في «كأس القربان» فلا بد ان نتذكر انه لم يتلق اي تدريب تحضيرى في الدبلوماسية.



الجنري الطيب شفيك

في مقر رئاسة الشرطة

كانت حادثة الاغتيال في سارايفو قد ملأت مقر رئاسة الشرطة بالعديد من الضحايا. وقد جلبوا الى هناك الواحد إثر الواحد، وقال المفتش العجوز في مكتب الاستقبال بلهجة لطيفة:

- فرديناند ذاك سيكلفكم الكثير.

وحين حبسوا شفيك في احدى الزنزانات الكثيرة في الطابق الاول، وجد ستة اشخاص متجمعين هناك.. كان خمسة منهم جالسين حول الطاولة، وفي احدى الزوايا كان رجل متوسط العمر يجلس على سرير وكانما يحاول تجنب صحبة الآخرين.

بدأ شفيك يسألهم كلا بدوره عن سبب القاء القبض عليهم.
وقد تلقى من الخمسة الجالسين حول الطاولة الاجابة نفسها تقريباً:
«بسبب سارايفو». «بسبب فرديناند». «بسبب اغتيال صاحب السمو
الامبراطوري». «لأجل فرديناند». «لأنهم قتلوا صاحب السمو
الامبراطوري في سارايفو».

أما السادس الذي كان يتجنب صحبة الخمسة الاخرين فقال انه لم يكن
يرغب في ان تكون له اية علاقة بهم، في حال وقوع اي شك فيه، فهو
محتجز هنا بسبب محاولته السرقة مع الشروع في القتل ضد المزارع
«غيليس» من «هوليتسه».

جلس شفيك الى الطاولة مع المتآمرين الذين كانوا يروون ربما للمرة
العاشرة على الاقل كيف وصلوا الى هنا.

كانوا جميعاً، عدا واحد منهم، قد قبض عليهم في بار أو قبو للخمور
او مقهى. اما الاستثناء بينهم فكان سيذا بدينا الى حد غير عادي ويضع
النظارات وله عينان مغرورتان بالدمع، وقد قبض عليه في شقته، لانه قبل
الاغتيال في سارايفو بيومين قدم كأسين من الشراب لطالبيين صربيين
يدرسان الهندسة وذلك في «بار أوبريشكي»، وقد شوهد من قبل رجل
الشرطة السرية «بريكسي» ثملا وهو في صحبتهما في «مونمارتر» في
«شارع ريتينزروفا» حيث قدم لهم الشراب مرة اخرى، كما تم تثبيت
ذلك بتوقيعه على تقرير الشرطة.

وردأ على كل الاسئلة خلال التحقيق الأولي في مقر رئاسة الشرطة فقد
كرر الأئين نفسه:

- أنا صاحب دكان قرطاسية.

وكان يتلقى الجواب المقولب نفسه على سواء:

- هذا ليس عذرا.

أما السيد قصير القامة الذي اعتقل في قبو الخمور، فكان استاذاً للتاريخ وكان يفسر لصاحب القبو تاريخ الاغتيالات المختلفة. وقد قبض عليه في اللحظة التي اكمل فيها تحليلاً نفسانياً كاملاً لكل حادثة اغتيال وكان يقول:

- ان فكرة الاغتيال بسيطة بساطة بيضة كولومبس.

- نعم، بسيط بساطة كونك مناسباً لباكراتس.

هذا ما قاله مفتش الشرطة خلال الاستجواب وهو يكمل ملاحظته.

أما المتآمر الثالث فكان رئيس المؤسسة الخيرية «دوبروميل» في «هودكو فيتشكي». ففي اليوم الذي وقعت فيه حادثة الاغتيال نظمت دوبروميل حفلة في الحديقة مع فرقة موسيقية. وقد جاء رقيب من الدرك ليطلب من الحضور ان يغادروا مكان الحفل، حيث ان النمسا في حالة حداد، وعندها قال له رئيس مؤسسة دوبروميل بمرح:

- انتظر لحظة حتى تنتهي من عزف نشيد «هاي سلوفانه»⁽¹⁾.

اما الآن فما هو جالس هناك مطأطي الرأس وهو يتأمل قائلاً:

- في آب لدينا انتخابات جديدة للرئاسة. وإذا لم اعد الي بيتي قبل ذلك فقد لا أتنخب. بها رئيساً. لن أبقى حياً بعد هذا العار.

كان المأسوف عليه المرحوم فرديناند قد مارس حيلة عجيبة على المعتقل الرابع، وهو رجل ذو شخصية اصيلة وسمعة لا تشوبها شائبة. فقد تجنب مدة يومين اي حديث عن فرديناند حتى ذلك المساء في المقهى، فبينما كان يلعب الماريش⁽²⁾، وحين كان يرمي بالورقة الرابعة، ورقة «الخيار» البستوني مع السبعة السباتي قال:

- سبعة اشخاص رائعين مثل هذه في سارايفو.

أما الخامس الذي قال انه محتجز هنا: «لانهم قتلوا صاحب السمو

(1) نشيد وطني شهير من اقليم بوهيميا يدعو الى الاستعمال الأوسع للغة التشيكية. (س.ب).

(2) لعبة ورق تشيكية شعبية. (س.ب).

الامبراطوري في سارايفو»، فقد كان خائفا جدا والى حد ان شعر رأسه ولحيته كان لا يزال منتصبا، كما كان رأسه يذكرنا بكلب من نوع «البنشر» الخاص بالاصطبلات.

لم يكن هذا الرجل قد تلفظ بكلمة واحدة في المطعم حيث تم اعتقاله. ولم يكن قد قرأ الصحف التي تحدثت عن اغتيال فرديناند حتى، وكان يجلس وحيدا الى احدى الطاولات حين جاء شخص وجلس قبالته وقال له بسرعة.

- هل قرأت عنها؟

- لا.

- هل عرفت بها؟

- لا.

- وهل تعرف مضمونها؟

- لا، لست مهتما.

- ولكن يجب أن تكون مهتما.

- لا اعرف ما عليّ أن أكون مهتما به. أنا أدخن سيجاري وأشرب بضعة

كؤووس واناول عشائي ولا أقرأ الصحف. الصحف تكذب. لماذا أثير نفسي؟

- اذن فأنت لست مهتما بذلك الاغتيال في سارايفو؟

- لست مهتما بأي اغتيال اطلاقا، أكان ذلك في براغ، فيينا، سارايفو او

لندن. فلمثل هذه الامور سلطات ومحاكم وشرطة. وإذا ما حدث في اي

زمان او مكان ان شخصا ما قد اغتيل فإنه يستحق ذلك. لماذا هو مهمل الى

حد انه يترك المجال لغيره كي يقتله؟

كانت تلك آخر كلمات قالها في ذلك الحوار. ومنذ تلك اللحظة راح

يكمر بصوت عال مرة كل خمسة دقائق:

- أنا بريء. أنا بريء.

وقد صرخ بهذه الكلمات عند بوابة مقر رئاسة الشرطة، كما انه سيكررها لدى نقله الى محكمة الجنايات في براغ، كما سيدخل بهذه الكلمات نفسها الى زنزانة السجن.

حين استمع شفيك الى كل هذه الحكايات التأميرية الرهيبة فكر في ان عليه ان يشرح للآخرين اليأس الكامل لمواقفهم.

بدأ شفيك كلمات المؤاساة كما يلي: «نحن جميعا في ورطة خطيرة. لستم على صواب حين تقولون انه لن يحدث لكم او لأي واحد منّا مكروه. أليس السبب في ان لدينا شرطة هو ان تعاقبنا إذا نطقنا بما هو غير مناسب في المكان غير المناسب؟ إذا كانت الاحوال السائدة خطيرة الى حد ان الأرشدوقات يقتلون بالرصاص، فلا يجب ان يدهش المرء إذا ما حمل بالقوة الى مقر رئاسة الشرطة. انهم يفعلون هذا كله للفت الانظار الى الموضوع بشدة، حتى تكون لفرديناند بعض الدعاية قبل جنازته. وكلما زاد عددنا هنا، فهو أفضل لنا، لأن الأمر سيكون اكثر مدعاة للمرح. حين كنت في الجيش كانوا يجسسون نصف سريتنا في آن معاً. وكم ادين اناس ابرياء! ليس في الجيش فحسب بل في المحاكم المدنية ايضا. اذكر امرأة حكم عليها لخنقها توأميها حديثي الولادة. ورغم انها اقسمت بعد حلف اليمين انها ما كان يمكنها خنق توأمين نظراً لانها ولدت بنتا واحدة فحسب ونجحت في خنقها دون ألم، إلا انها عوقبت على ارتكاب جريمة مزدوجة رغم كل شيء. او خذوا مثلاً ذلك العجري في «زابهلتيسه» الذي اقتحم مكان خضري ليلة عيد الميلاد وقد أقسم أنه دخل الدكان ليتدفأ، ولكن ذلك لم ينقذه من العقاب. ما ان يصل الامر الى أيدي المحكمة حتى يسوء. ولكن ذلك السوء امر لا بد منه. ربما لا يكون الناس كلهم اوغادا كما تظنونهم. ولكن كيف يمكنك ان تميز الرجل الطيب من الفاسد، وخاصة في هذه الأيام الخطيرة بعد ان قتلوا فرديناند؟ حين خدمت في الجيش في

بودييوفيتسه اطلقت النار على كلب النقيب في غابة تقع خلف ساحة الاستعراض. وحين علم بذلك استدعانا جميعاً، ثم جعلنا نصطف وأمر كل عاشر رجل ان يخطو نحو الامام. وطبعاً كنت دون شك واحداً من العواشر. وهكذا اوقفنا بانتباه دون رمشة عين. استعرضنا النقيب ثم قال: «أنتم يا ابناء الزنا، انتم يا خنازير انتم يا وحوش، انتم يا ضباعاً مرقطة، بسبب ذلك الكلب أود لو أرسل كل حقير منكم الى الحبس الانفرادي، واصنع منكم معكرونة، ثم اطلق النار عليكم واصنع منكم شطائر. وحتى اظهر لكم اني لن اكون متساهلاً معكم سأعطي كلا منكم اربعة عشر يوماً».

وهكذا ترون ما حدث. في ذلك الحين حدث كل ما حدث بسبب كلب هجين أجرب، أما الآن فبسبب شخص لا يقل عن صاحب السموا الامبراطوري نفسه. لا بد من ان ينالكم بعض الرعب، حتى يصبح الحداد ذا شأن».

كرر الرجل المنتصب الشعر:

- أنا بريء، أنا بريء.

قال شفيك:

- كان يسوع المسيح بريئاً أيضاً، ورغم ذلك فقد صلبوه. لم يسبق ان اكثر اي شخص في اي مكان بأمر شخص بريء. «ابتسم وتحمل الأمر واستمر بعملك⁽¹⁾»، كما اعتادوا ان يقولوا لنا في الجيش. هذا هو افضل وأحسن الامور.

تمدد شفيك على السرير ونام في سعادة.

في هذه الاثناء ادخل معتقلان آخران الى الزنزانة. كان احدهما من البوسنة. وقد راح يذرع أرض الزنزانة جيئة وذهاباً وهو يصر بأسنانه، وكان كلما فتح فمه يقول بالصربية: «ضاجع روحك». كانت تعذبه فكرة ان تضيع سلته، وهو البائع المتجول، في مقر رئاسة الشرطة.

(1) جملة شهيرة من جمل شفيك. (س.ب).

أما الضيف الآخر الجديد فكان صاحب الحانة باليفتس. وحين رأى هذا صديقه شفيك ايقظه وصاح بأكثر اللهجات حزنا: «أنا هنا الآن ايضا». صافحه شفيك بود وقال:

- يسعدني ذلك حقاً. لقد عرفت ان ذلك السيد الكريم سيفي بوعده حين قال انهم سيأتون لاصطحابك. مثل هذه الدقة في الشكليات أمر جيد. ولكن باليفتس علّق قائلاً ان الدقة من هذا النوع لا تساوي برازا، ثم خفض صوته وسأل شفيك ان كان الرجال الآخرون المعتقلون لخصوصاً، لان ذلك قد يسيء الى تجارته.

شرح له شفيك انهم ينتمون جميعاً الى الحزب نفسه حيث قبض عليهم بسبب الارشودوق، باستثناء الرجل الذي قبض عليه بسبب محاولته السرقة مع القتل ضد مزارع اسمه «غيليس» من «هوليتسه».

امتعض باليفتس من ذلك وقال انه ليس معتقلاً بسبب شخص تافه من منزلة الارشودوق، بل بسبب صاحب الجلالة الامبراطورية نفسه. ولان الآخرين بدأوا باظهار الاهتمام حكي لهم كيف ان ذباباته قد نجست صاحب الجلالة الامبراطورية.

قال وهو ينهي وصف مغامرته:

- لقد لوثته تلك الهوام المؤذية، ثم تسببت أخيراً في حبسي.

ثم أضاف متوعداً:

- لن أغفر لتلك الذبابات ما فعلته بي.

عاد شفيك الى السرير، ولكنه لم ينم فترة طويلة لانهم جاؤوا لياخذوه الى الاستجواب.

وهكذا وبينما هو يصعد درج الدائرة الثالثة للاستجواب، حمل شفيك صليبه الى جبل الجلجلة وهو - بكل مهابة وسمو - غير واع باستشهاده.

حين لاحظ اللافتة التي تنبه الى ان التفّ في الدهاليز ممنوع، سأل الشرطي ان يسمح له بأن يتف في المبصقة، ثم دخل المكتب ووجهه يشع بانسائة الطبيعية الودود وقال:

- مساؤكم جميعا طيب أيها السادة.

وبدلا عن الاجابة، لكزه احدهم تحت ضلوعه ووقفه امام طاولة كان يجلس خلفها سيد له وجه رسمي بارد وملامح تدل على مدى من القسوة الوحشية تجعلك تظن انه قد هبط للتو من كتاب «النماذج الاجرامية» لمؤلفه «لومبروز».

نظر الى شفيك نظرة المتعطش للدماء وقال:

- انزع هذه النظرة البلهاء عن وجهك.

أجاب شفيك بوقار:

- لا أستطيع أن أفعل شيئا حيالها. لقد صرفت من الخدمة العسكرية بسبب العته وقد شهدت بذلك لجنة خاصة. أنا معتوه رسمي.

صرّ السيد ذو النمط الإجرامي بأسنانه وقال:

- إن ما أنت متهم به وما ارتكبه يثبت أنك عاقل تماما.

ثم راح يحصي لشفيك سلسلة كاملة من الجرائم المختلفة، مبتدئا بالخيانة العظمى ومنتها باهانة صاحب الجلالة واعضاء الأسرة الامبراطورية . اما التحفة الاساسية في هذه المجموعة فكانت مصادقة شفيك على اغتيال الارشودوق فرديناند، والتي تفرع عنها ايضا سلسلة من الجرائم الجديدة كان ألمعها جريمة التحريض حيث حدث ذلك كله في مكان عام.

قال الرجل ذو الملامح التي توحى بالقسوة الوحشية وهو يسأل شفيك بلهجة الانتصار:

- ما ردك على ذلك؟

أجاب شفيك ببراءة:

- الكثير مما قلته صحيح. يمكنك ان تستفيد كثيراً من الشيء الجيد.
- حسنا اذن، أنت تعترف بأنه صحيح؟
- اعترف بكل شيء. عليك ان تكون مستقيماً. فبدون الاستقامة لن يصل احد الى اي مكان. حين كنت في الجيش...
- أغلق فمك! ولا تتكلم إلا عندما تسأل! هل فهمت؟
- هذا ما صاح به المفوض، فأجابه شفيك:
- طبعاً أفهم. أود ان أبلغكم بتواضع اني أفهم وقادر على توجيه نفسي في كل ما يسركم يا سيدي.
- مع من تتصل؟
- مع خادمتي يا صاحب الفضيلة.
- أليس لك اصدقاء في الدوائر السياسية هنا؟
- طبعاً يا صاحب الفضيلة. أنا مشترك في الطبعة المسائية من صحيفة «نارودني بوليتيكا» المسماة «الكلبة»⁽¹⁾.
- زمجر السيد ذو الملامح التي تدل على القسوة الوحشية قائلاً لشفيك:
- اخرج!
- وبينما كانوا يسوقونه الى خارج المكتب قال شفيك:
- ليلتكم سعيدة يا صاحب الفضيلة.
- حين عاد شفيك الى زنرانتة حكى لجميع الموقوفين ان هذا النوع من الاستجواب عبارة عن مجرد هزل. قال:
- انهم يصرخون بك قليلاً ثم يرفسونك خارجاً.

(1) صحيفة يومية شهيرة محافظة كانت تصدر في براغ وتوقفت عن الصدور عام (1945) (س.ب).

ثم تابع شفيك قائلاً:

- في العهود الغابرة كان الأمر أسوأ من ذلك. فقد قرأت في الكتب كيف كان على المتهمين ان يمشوا على الحديد المحمي حتى درجة الاحمرار، ويشربوا الرصاص المصهور حتى يثبتوا أنهم أبرياء او العكس، وكيف كانت أرجلهم توضع في «الأحذية الاسبانية» او كيف كانوا يعلقون على السلالم إذا لم يعترفوا، وحياناً كان يجري حرق أردافهم بمشعل وقاد كما فعلوا بالقديس «جون النيبوموكي»⁽¹⁾. ويقال أنهم حين فعلوا به ما فعلوه صرخ كالمقتول ولم يتوقف عن الصراخ حتى ألقوه من فوق «جسر اليشكا» في كيس لا ينفذ إليه الماء. كانت هناك حالات كثيرة كهذه في ذلك الحين وحتى بعد ذلك، فقد كانوا يقطعون الرجل الى أربع قطع متساوية أو يرفعونه على خازوق في مكان قريب من المتحف. وإذا ما رمي رجل كهذا في السجن فحسب، فقد كان يشعر انه ولد من جديد.

ثم تابع شفيك حديثه باستمئاع فقال:

- واليوم يعتبر الاعتقال أمراً من قبيل الهزل. فلم يعد هناك تقطيع الى اربعة اجزاء ولا «أحذية اسبانية». لدينا هنا أسرة وطاولة ومقعد. كما اننا لسنا مهروسين معاً كالسردين بل نحصل على الحساء والخبز، ويجلبون لنا أبريق ماء. كما أن مراحيضنا موجودة أمام أعيننا مباشرة. يمكنكم أن تلاحظوا التقدم في كل الامور. صحيح أن المسافة بعيدة من هنا وحتى غرفة الاستجواب، فالمرء يضطر الى ان يسير على امتداد ثلاثة دهاليز وان يصعد مجموعة واحدة من الأدراج، ولكن هناك نظافة وحيوية في الدهاليز. يحضرون شخصاً الى هنا، وآخر الى هناك، شبابا وشيوخا، ذكورا وإناثا.

(1) مطران تشيكي عذب ثم ألقى في نهر الفلتافا بأمر من الملك فنتيلاس السادس عام (1398) ثم طوب قديساً وأصبح رمزاً للإصلاح المضاد. (س.ب.).

يمكنك ان تشعر بالسعادة كونك لست وحيدا هنا علي الاقل. يسير كل شخص بأسلوبه العذب الخاص به ولا حاجة الى الخوف من أن يقولوا له في المكتب: «حسنا، لقد درسنا قضيتك وغدا ستقطع الى أربع او تحرق حيا. اختر احدى الميتين». لم يكن مثل هذا الخيار سهلا، وأظن ايها السادة ان الكثيرين منا سيكونون في مثل هذه الحالة في وضع من الدهول الكامل. اجل، قد تحسنت الامور كثيرا الآن وسارت نحو الأفضل.

كان قد انهى دفاعه عن الطريقة الحديثة في سجن المواطنين للتو، حين فتح السجن الباب وصاح:

- يا شفيك ارتد ملابسك وتعال الى الاستجواب.

اجاب شفيك:

- سأفعل ذلك حقا. ليس لديّ اي اعتراض، واخشى من وجود خطأ ما هنا. لقد سبق لي وطردت من الاستجواب مرة. واخشى ان يغضب هؤلاء السادة الموجودون هنا معي إذا ذهبت مرتين للاستجواب ولم يذهبوا هم حتى لمرة واحدة طوال هذا المساء. قد تصيبهم الغيرة مني.

- اخرج وتوقف عن هذا الهراء.

كان ذلك هو الرد الذي سمعه شفيك على كلامه اللطيف.

وها هو شفيك يجد نفسه مرة أخرى وجهاً لوجه مع السيد ذي النموذج الإجرامي الذي سأله من غير خاطر أو دستور بلهجة قاسية حاسمة:

- هل تعترف بكل شيء؟

ثبّت شفيك عينيه الزرقاوين الطيبتين على الرجل القاسي وقال بلطف:

- إذا أردتم مني يا صاحب الفضيلة ان اعترف، فسأعترف. الاعتراف لن يسبب لي أي أذى. ولكنك ان قلت: «يا شفيك لا تعترف بشيء» فسوف اتملص وأراوغ حتى آخر رمق فيّ.

كتب السيد المتجهم الوجه شيئا على الوثائق وسلم شفيك قلما ودعاه الى التوقيع.

وقد وقع شفيك على تقرير بريتشنايدر مع الاضافة التالية:

«كل الاتهامات الموجهة ضدي والمذكورة اعلاه مبنية على الحقيقة.

يوسيف شفيك»

بعد التوقيع استدار شفيك نحو السيد المتجهم الوجه وقال:

- هل هناك شيء آخر أوقعه؟ أم هل أعود في الصباح؟

وكان الجواب:

- في الصباح سترسل الى محكمة الجنايات.

- في اية ساعة يا صاحب الفضيلة؟ اخشى أن أتأخر في النوم فيفوتني

ذلك، استحلفك بالمسيح.

- اخرج!

وللمرة الثالثة في ذلك اليوم صدرت زمجرة من الطرف الآخر للمنضدة

التي كان شفيك يقف امامها.

وخلال عودته الى بيته الجديد خلف القضبان قال شفيك للشرطي الذي

كان يرافقه:

- كل شيء يسير هنا كأننا في منزل يحترق.

وما أن اوصل الباب من خلفه، حتى أغرقه زملاؤه المساجين بسيل من

الاسئلة من مختلف الأنواع، وقد أجاب عليها بوضوح:

- لقد اعترفت للتو بأنني قد اكون الشخص الذي اغتال الأرشدوق

فرديناند.

جثم ستة رجال في رعب تحت البطانيات الممتلئة بالقمل، ولكن

«البوسني» قال:

- دوبرودوشلي⁽¹⁾.

وحين تمدد فوق السرير قال شفيك:

- من الغباء ألا يكون لدينا ساعة منبه هنا.

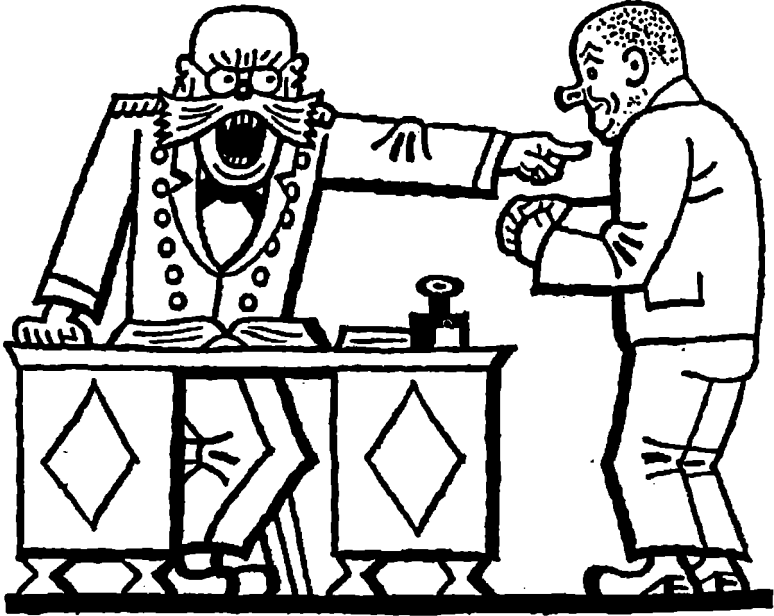
ولكنه اوقف في الصباح دون ساعة منبه، وفي تمام السادسة كان قد حمل

الى محكمة الجنائيات في عربة السجناء.

قال شفيك لرفاقه في السفر حين خرجت عربة السجناء من بوابة مقر

رئاسة الشرطة:

- البركة في البكور.



(1) أي «أهلاً وسهلاً». (س.ب).

شفيك

أمام الخبراء الطبيين

تركت المهاجع النظيفة الدافئة التابعة للمحكمة الجنائية الإقليمية أحسن انطباع لدى شفيك: الجدران المطلية بالكلس الأبيض، القضبان المطلية بالدهان الأسود، والسيد ديماريني البدين، وهو السجن الرئيسي للسجناء الاحتياطيين، بقيت بذته الرسمية بألوانها الأرجوانية وجديلته الأرجوانية على قبعته الحكومية. اللون الأرجواني هو اللون المفروض ليس هنا فحسب، بل في المراسم الدينية في أول أيام الصوم الكبير ويوم الجمعة الحزينة.

كانت أيام الحكم الروماني في القدس تعود الآن: فهامم السجناء يقتادون أمام «بوتتيوس بيلاطس» عام (1914) ويرمى بهم على الأرض. وهامم قضاة الاستجواب، «بلاطس» العصور الحديثة، بدلاً عن ان يغسلوا يديهم باحترام، يرسلون الى محال «تيسينغ» لجلب «الغولاش» وجعة «بيلسن»، ويحولون المزيد ثم المزيد من الاتهامات الى «مدير الادعاء».

هنا كان المنطق يختفي كله على الاغلب وتنتصر علامة § كانت علامة § تخنق، تجن، تستشيط غضباً، تضحك، تهدد وتقتل دون هوادة او

رحمة. وكان القضاة يتلاعبون بالقانون، كانوا كهنة كبارا في تفسيره حرفيا، يفترسون المتهمين. كانوا نمورا للغاب النمساوي يقيسون انقضاضهم على المتهمين بعدد مواد القانون.

أما الاستثناء فكان عدداً قليلاً من السادة (كما في مقر رئاسة الشرطة) لا يأخذون القانون بكل تلك الجدية، فالقمح يمكن أن يتواجد دائما بين نباتات البيقة.

كان الذي سيستجوب شفيك واحداً من هؤلاء السادة. وهو رجل كهل دمث المظهر لم يفته ان يقول للمجرم الشهير «فاليش» حين كان يستجوبه: «تفضل بالجلوس يا سيد فاليش. يوجد كرسي فارغ هنا».

حين ساقوا شفيك إليه طلب منه بكياسته الطبيعية أن يجلس ثم قال:

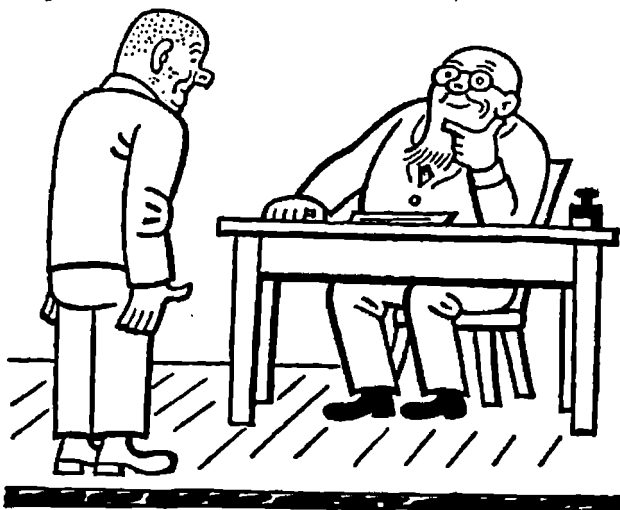
- اذن انت هو السيد شفيك؟

- اظن اني هو لأن أبي كان يسمى السيد شفيك، كما كانت ماما تسمى بالسيدة شفيك. ولا استطيع أنا أن ألحق بهما العار بانكاري لإسمي.

رفرفت ابتسامة ودود على وجه قاضي الاستجواب:

- حسنا، لقد اقدرت اشياء كثيرة. لا بد وأن ضميرك مثقل جداً.

قال شفيك وهو يتسم على نحو أشد لطفاً من ابتسامة القاضي:



- ان ضميري مثقل دوما وباستمرار. وربما كان ضميري أثقل مما هو ضميركم يا صاحب السيادة.

قال القاضي بلهجة لا تقل لطفاً.

- حسناً، هذا واضح من البيان الذي وقعته. لم يمارسوا اي ضغط عليك في مخفر الشرطة، أليس كذلك؟

- طبعاً لا يا صاحب السيادة. لقد سألتهم بنفسي إن كان عليّ أن اوقعه، وحين امروني بذلك أطعت. وعلى اية حال لم أكن راغباً في الشجار معهم بسبب مجرد توقيع، أليس ذلك صحيحاً؟ لن يكون ذلك في صالحني. لا بد من سيادة القانون والنظام.

- هل تشعر انك على ما يرام يا سيد شفيك؟

- ليس تماماً يا سيدي، لا أستطيع قول ذلك، يا صاحب السيادة. فأنا أعاني من الروماتيزم كما أنني ادهن نفسي بمرهم «الإيمان».

ابتسم السيد الكهل ابتسامة ودية وقال:

- ماذا تقول لو أن خبراءنا الطبيين أجروا لك فحصاً؟

- لا اظن أنني أستطيع أن أكون رديئاً الى حد ان اجعل هؤلاء السادة يضيعون وقتهم عليّ دون ضرورة. لقد سبق لي ان فحصت من قبل طبيب في مقر رئاسة الشرطة ليكشف ان كنت مصاباً بمرض تناسلي.

- ما رأيك يا سيد شفيك لو أننا جربنا على اية حال أن يتم فحصك من قبل هؤلاء الخبراء الطبيين؟ سنؤلف لجنة لطيفة ونبقيك في الحبس الاحتياطي قيد التحقيق. في هذه الاثناء ستنال راحة جميلة. والآن سؤال واحد آخر فحسب: هل صحيح - كما هو وارد في التقرير - أنك صرحت ونشرت على نحو واسع فكرة أن الحرب ستندلع قريباً؟

- طبعاً يا صاحب السيادة، وستندلع عاجلاً جداً.

- ألا تشعر أحيانا أنك مرهق او متعكر المزاج؟

- لا ياسيدي، وإن كادت سيارة أن تدهسني مرة في ساحة تشارلز، ولكن مضى على ذلك سنوات كثيرة.

وهكذا انتهى الاستجواب. صافح شفيك القاضي، وبعد أن عاد الى زنزانتة قال لجيرانه:

- والآن، بسبب اغتيال صاحب السمو الامبراطوري، الأرشدوق فرديناند، فإنهم سيفحصونني بواسطة خبراء طبيين.

قال شاب:

- لقد فحصني اولئك الخبراء الطبيون مرة، وكان ذلك حين اجبروني على المشول امام هيئة محلفين من أجل بعض السجاد. وقد افاد الخبراء اني ضعيف العقل. والآن اخلست آلة درس بخارية ولا يستطيعون شيئاً حياي. لقد قال لي محاميّ البارحة انه إذا ثبت مرة بأني ضعيف العقل، فسوف استفيد من ذلك طيلة حياتي.

قال الرجل ذو المظهر الذكي:

- لا اثق بالخبراء الطبيين إطلاقاً. حين زورت مرة بعض الحوالات حضرت نفسي لكل الاحتمالات وذهبت الى محاضرات كان يلقيها احد علماء النفس وهو الدكتور «هيفيروتش»، وحين ألقوا القبض عليّ تظاهرت إنني مصاب بالشلل كما وصفه هيفيروتش تماماً. وقد عضضت واحداً من الخبراء الطبيين من ساقه، وشربت الحبر من المحبرة، وبلت، هذا إذا سمحتم لي بهذا التعبير أيها السادة، في الزاوية امام أنظار اللجنة كلها، ولكن بما إنني عضضت احدهم في بطة ساقه بقوة فقد افادوا إنني صحيح العقل تماماً وهكذا قضي عليّ.

قال شفيك:

- لست خائفا على الاطلاق من فحوص هؤلاء السادة. وحين كنت في الجيش فحصني طبيب يطري ولم تكن النتيجة سيئة اطلاقا.
قاطع الرجل القصير ذو الحذبة قائلاً:

- الخبراء الطبيون خنازير. منذ فترة ليست بالبعيدة وبالصدفة المحضة نبشوا هيكلأ عظميةً في مرجي وقال الخبراء الطبيون انه ينتمي لشخص قتل قبل اربعين عاما بواسطة أداة غير حادة ضرب بها على الرأس. أنا في الثامنة والثلاثين وقد سجننت بسبب ذلك رغم أن شهادة ميلادي معي وكذلك خلاصة عن سجل الابرشية وتذكرة الهوية الشخصية.

قال شفيك:

- اعتقد ان علينا ان نكون عادلين بالنسبة لكل شيء. فعلى اية حال، يمكن لأي شخص ان يخطئ بل يجب عليه ان يخطئ، وذلك كلما فكر في موضوع ما. الخبراء الطبيون بشر وللبشر اخطاؤهم. حدث مرة في «نوسله» عند الجسر الذي فوق نهر «بوتيتش» تماما، ان اقترب شخص مني في الليل وأنا عائد من «بانزيتو» وضربني على رأسي بسوط. وحين وقعت على الأرض اضاء مصباحا يدويا ووجهه إليّ وقال: «هذه غلطة. ليس هذا من أريده». ثم غضب الى حد كبير بسبب ارتكابه تلك الغلطة الى حد انه ضربني على ظهري مرة اخرى. من صلب الطبيعة الإنسانية ان يستمر الشخص في ارتكاب الاخطاء حتى يموت. وهذا يذكرني بذلك السيد الذي وجد في احدى الليالي كلبا مسعورا نصف متجمد في الطريق، فأخذه معه الى البيت ووضع في فراش زوجته. وما أن أحس الكلب بالدفء حتى عضّ أفراد العائلة ومزق الطفل الصغير في المهد الى إشلاء ثم التهمه. وإليكم مثالا عن خطأ ارتكبه مرة خراط يعيش في منزلنا. لقد فتح باب كنيسة في «بودوني» بمفتاحه ظنا منه أنه باب مطبخه، وتمدد على المذبح ظنا منه إنه في فراشه في البيت. ثم غطى نفسه ببعض القماش ذي الكتابات

المقدسة ووضع «العهد الجديد» وكتباً أخرى «مقدسة تحت رأسه كوسادة. وفي الصباح وجده القندلفت على هذه الحال. وحين صحا قال له بكل طيبة قلب ان ذلك كان خطأ صغيراً فحسب. فقال القندلفت: «خطأ صغير لطيف ولكننا سنضطر بسببك الى اعادة تقديس الكنيسة». وبعد ذلك احيل الخراط على الخبراء الطبيين وقد اثبتوا له انه كان صاحياً تماماً وليس ثملاً، لانه لو كان كذلك لما استطاع ادخال المفتاح في قفل باب الكنيسة. وقد مات ذلك الخراط لاحقاً في بانكراتس. كما يمكنني ذكر مثال آخر لكم عن كلب بوليسي في «كلادنو» ارتكب خطأ ايضاً. كان ذلك كلباً ألبانياً يمتلكه نقيب شهير من الفرسان اسمه «روترو» وكان النقيب روتر يربي مثل هذه الكلاب ويجربها على المتشردين حتى راح كل المتشردين يتجنبون منطقة كلادنو. ثم اعطى تعليمات بوجود ان يحضر له الدرك شخصاً مشبوهاً حتماً. حسناً، لقد جلبوا له على الفور شخصاً يرتدي ملابس محترمة تماماً كانوا قد وجدوه في غابة، «لاتي» يجلس على جذع شجرة. وسرعان ما قصّ النقيب قطعة من ذيل معطفه واعطاها للكلاب البوليسية لتشمها. ثم اقتادوا الرجل بعيداً الى معمل للآجر خلف البلدة واطلقت الكلاب المدربة في أثره. وقد وجدته الكلاب واعادته. ثم كان على الرجل أن يتسلق سلماً يؤدي الى عليّة، وان يقفز عبر جدار ثم الى بحيرة والكلاب تطارده. وفي النهاية تبين انه عضو في البرلمان عن الحزب الشيوعي الراديكالي كان قد خرج للتنزه في غابات «لاتي» بعد ان ملّ من جلسات البرلمان. ولذلك اقول ان البشر مخلوقات خاطئة بطبيعتها، انهم يرتكبون الأخطاء، بغض النظر عما إذا كانوا متعلمين او مجرد حمقى مغفلين جاهلين. حتى الوزراء يرتكبون الأخطاء.

كانت لجنة الخبراء الطبيين التي كان عليها ان تقرر ان كان الأفق العقلي لشفيك يتوافق او لا يتوافق مع كل الجرائم المتهم بها، تتألف من ثلاثة اشخاص مهيين الى حد غير عادي، وكانت آراؤهم متباينة بحيث ان

الواحد منهم كان يخالف الاثنین الآخرين في رأيهما الى آخر حد. لذلك كانت هناك ثلاث مدارس علمية مختلفة وثلاثة آراء سيكولوجية ممثلة في تلك اللجنة.

ولو أنه تم التوصل الى اتفاق كامل في حالة شفيك بين هذه المعسكرات العلمية المتعارضة، فيمكننا ان نعيد ذلك، بكل تجريد وبساطة، الى الانطباع المذهل الذي تركه عليهم حين دخل الغرفة التي سيجري فيها فحص حالته العقلية، حيث انه ما أن رأى صورة للملك النمساوي معلقة على الجدار حتى صاح:

«يعيش امبراطورنا فرانتس يوسف الأول، أيها السادة».

كانت الحالة واضحة ووضوح الشمس. فتصريح شفيك العفوي حسم سلسلة كاملة من الاسئلة ولم يتبق سوى اسئلة قليلة ذات شأن كانوا في حاجة الى طرحها حتى يمكن تثبيت الرأي الأولي به من خلال اجوبته عليها، وذلك وفقا لنظام الطبيب النفساني الدكتور كارسون والدكتور هيفيروتش والانكليزي ويكينغ.

- هل الراديو من الرصاص؟

- من فضلك يا سيدي، لم يسبق لي أن وزنتهما.

كانت تلك اجابة شفيك مع ابتسامته العذبة.

- هل تؤمن بنهاية العالم؟

- اجاب شفيك بلا اكتراث:

- عليّ أن أرى تلك النهاية اولا، ولكنني لن أراها غداً بكل تأكيد.

- هل تعرف كيف تحسب قطر الكرة؟

- اعتقد اني لا اعرف، ولكنني أود أن أسألکم عن حل احجية وضعتها أنا

بنفسي أيها السادة. مثلا: خذوا بيتا من ثلاثة طوابق، وله ثمانى نوافذ في كل طابق. وعلى السقف توجد نافذتان من النوع الناتى ومدختان. وفي كل

طابق يسكن شخصان. والآن هيا قولوا لي أيها السادة: في أي عام ماتت جدة بواب البيت؟

تبادل الخبراء الطبيون نظرات العارفين، ولكن احدهم سأله رغم ذلك سؤالاً آخر:

- ألا تعرف العمق الأقصى للمحيط العادي؟

- لا يا سيدي من فضلك، لا أعرف، ولكنني اعتقد انه لا يد أعرق من نهر

الفلتافا تحت صخرة فيشيهراد.

سأل رئيس اللجنة بايجاز:

- هل يكفي هذا؟

ولكن عضواً آخر سأل شفيك رغم ذلك، السؤال التالي:

- ما هو ناتج ضرب الرقم 12897 في 13863؟

أجاب شفيك دون أن يرمش له جفن:

- انه 729.

قال رئيس اللجنة:



- هذا يكفي . يمكنكم إعادة المتهم الى مكانه .

قال شفيك باحترام:

- شكراً ايها السادة . هذا يكفي بالنسبة لي أنا ايضا .

بعد أن غادر شفيك اتفق الثلاثة على انه معتوه وأبله برخصة وفقاً لكل

القوانين الطبيعية التي اكتشفها نجوم علم النفس .

كان التقرير الذي قدمه قاضي التحقيق يتضمن من بين ما تضمنه ما يلي :

«يشهد الخبراء الموقعون ادناه على الضعف العقلي الكامل والبلاهة

الخلقية لدى يوسف شفيك الذي حضر امام اللجنة المذكورة وعبر عن

نفسه بتعايير مثل: «يعيش امبراطورنا فرانتس يوسف الأول» والتي يكفي

نطقها ليعبر عن الحالة العقلية ليوسف شفيك على أنه معتوه برخصة .

هذا وتنصح اللجنة بما يلي:

1- الغاء استجواب يوسف شفيك .

2- أن يرسل يوسف شفيك الى عيادة نفسية ليكون تحت المراقبة حتى

يتم التحقق من مقدار خطر حالته العقلية على محيطه» .

* * *

وبينما كان هذا التقرير قيد الاعداد كان شفيك يقول لزملائه من

المساجين:

- لم يهتموا اطلاقاً بفردينا، بل حدثوني عما هو اكثر منه تفاهة بكثير .

وأخيراً اتفقوا على اننا قد تحدثنا بما فيه الكفاية وافترقنا .

قال الرجل القصير ذو الحدبة والذي وجد في مرجه هيكل عظمي:

- لا اثق بأي واحد منهم . كلهم عبارة عن عصابة من اللصوص .

قال شفيك وهو يتمدد على حشية القش:

- لا بد من وجود اللصوص في هذا العالم ايضا . لو كان كل شخص أميناً

مع الآخر لسرعان ما كان كل واحد قد شرع يلکم الآخر على أنفه .

شفيك

يرمى به خارج مستشفى المجانيين

حين وصف شفيك حياته لاحقاً في مستشفى المجانيين، فقد فعل ذلك بلغة مديح استثنائية. قال: «لا أعرف لماذا يغضب أولئك المجانيين الى ذلك الحد بسبب حجزهم هناك. يمكنك أن تزحف عارياً على الأرض، أن تعوي كابن آوى، أن تثور وتعض. لو فعل أي شخص مثل هذا في أي مكان في منتزه عام فسوف يدهش الناس، ولكن هذه الأمور تعتبر في المستشفى أمراً شائعاً وعادياً. إن فيه حرية لم يحلم بها حتى الاشتراكيون. يمكن للرجل هناك أن ينتحل شخصية الرب الكلي القدرة، مريم العذراء، البابا، ملك انكلترا، صاحب الجلالة الامبراطورية أو القديس فنتسيسلاس، رغم أن الشخص الذي قال انه هو القديس فنتسيسلاس كان موثقاً وعارياً طوال النهار وموضوعاً في العزل الانفرادي. كما كان هناك رجل يصرخ بأنه كبير الأساقفة وان كان لا يفعل شيئاً سوى الأكل ويمارس، واعذروني على هذا التعبير، العادة السرية، ولكن لا أحد هناك يخجل من ممارسة ذلك. بل ان أحد الأشخاص ادعى هناك أنه القديس سيريل والقديس ميثوديوس معا حتى

يحصل على حصة مزدوجة. كما كان هناك سيد يدعي أنه حامل، وقد دعا الجميع الى حفلة تعميد الطفل الذي سيلده. كان هناك الكثير من المحجوزين: لاعبو شطرنج وسياسيون، صيادون وكشافون، كما كان بينهم جامعو طوابع ومصورون هواة. كان أحدهم قد احتجز هناك بسبب بعض الأواني القديمة التي كان يسميها جرار دفن. كما كان أحدهم في قميص المجانين كل الوقت حتى لا يسمح له بأن يحسب متى سينتهي العالم. كما قابلت عدداً من الأساتذة الكبار هناك، وقد اعتاد أحدهم أن يلاحقني طوال الوقت ليسهب في الحديث عن أن الموطن الأصلي للفجر كجنس كان في «كركونوش»، كما شرح لي واحد آخر منهم أن ضمن الكرة الأرضية كرة أخرى أكبر من الكرة الخارجية.

«بإمكان كل شخص هناك أن يقول ما يرغب به وما هو على رأس لسانه، كما في البرلمان تماماً. وكانوا أحياناً يحكون لبعضهم البعض حكايات خرافية ويشرعون بالتشاجر إذا ما حدث مكروه لأميرة ما. وكان أكثرهم جنونا شخص يدعي أنه الجزء السادس عشر من «موسوعة أوتو»، ويطلب الجميع بأن يفتحوه ليجنوا عن مادة «آلة صنع صناديق الكرتون»، وإلا فإنه سيقضى عليه، ولم تكن نائرتة تهدأ حتى يلبسوه قميص المجانين. عندها يصبح سعيداً لأنه يظن انه قد وضع ضمن ضاغطة لدى مجلد للكتب، ويروح يرجو أن يقصوه على الطريقة العصرية. كان العيش هناك اشبه بالعيش في الفردوس. يمكنك أن تشاجر، تصارع، تصرخ، تنغو، تصبح، تقفز، تصلي، تتشقلب، تزحف على اربع، تحجل، تدور في المكان، ترقص، تثب مرحاً، تقعي طوال النهار او تتسلق الجدران. لن يأتي أحد إليك ليقول لك: «عليك ألا تفعل ذلك يا سيدي. ليس هذا لانقا بك يا سيدي، عليك أن تخجل من نفسك. ألم تتلق تربية لاثقة؟» وهناك مجانين في ذلك المكان هادئون حقاً. كان هناك مخترع حسن التربية مثلاً يحكش في أنفه

باستمرار ولا يقول سوى مرة واحدة في اليوم: «لقد اكتشفت الكهرباء». وكما أقول لكم فقد كانت اقامتي هناك لطيفة جداً، واعتبر تلك الأيام القليلة التي أمضيتها في مستشفى المجانين من أجمل أيام عمري.

وبالفعل، فإن الاستقبال الذي لقيه شفيك في ذلك المكان حين اصطحبوه من محكمة الجنايات وجلبوه الى مستشفى المجانين ليوضع تحت المراقبة، قد فاق كل توقعاته. فقد جردوه في البداية من كل ثيابه، ثم ألبسوه اللباس الخاص بالمستشفى وأدخلوه الى الحمام وهم يحملونه من ذراعيه بحميمية، بينما راح أحد الممرضين يسليه ببعض النكات عن اليهود. في الحمام غمسوه في حوض الماء الدافئ ثم سحبوه ووضعوه تحت دوش بارد. وقد كرروا تلك العملية ثلاث مرات ثم سألوه ان كان قد أحب ذلك، فقال شفيك ان ذلك أفضل من الحمامات الواقعة عند جسر «تشارلز»، وانه قد أحب الحمام كثيراً، ثم اضاف قائلاً بسعادة: «لو أنكم تقصون لي أظافري وشعري ايضاً فساكون في منتهي السعادة».

وقد لبي طلبه هذا ايضاً، وبعد أن فركوه على نحو شامل بالاسفنجة، وبكل قوة، لفوه بشرشف وحملوه الى الجناح الأول ووضعوه في الفراش وغطوه بلحفاف وطلبوا منه أن ينام.

ان شفيك يتحدث حتى يومنا هذا عن تلك التجربة بكل حب فيقول:

«تصوروا فحسب كيف أنهم حملوني، حملوني فعلاً. لقد كنت في حالة من السعادة الكاملة في تلك اللحظة».

وقد نام بسعادة بالفعل في السرير. ثم أيقظوه ليعرضوا عليه كوزا من الحليب ورغيفا من الخبز. وقد كان الرغيف مقسوما الى قطع صغيرة. وبينما كان أحد عمال المستشفى يمسك بذراعي شفيك كليهما، كان الآخر يغمس قطع الخبز في الحليب ويطعمها لشفيك كما تطعم الزلابية للأوزة. وبعد أن انتهوا من اطعامه أخذوه من تحت ذراعيه الى دورة المياه،



حيث طلبوا منه أن يقضي حاجتيه الصغيرة والكبيرة.

كما يتحدث شفيك بود عن هذه اللحظة الجميلة أيضا ولا حاجة الى أن يروي مرة أخرى ما قاله وهو يصف ما فعلوه به بعد ذلك. وسأذكر فقط انه قال: «كان أحدهم يمسك بي بين ذراعيه بينما كنت أفعلها».

وحين أعادوه، وضعوه في السرير ثانية وطلبوا منه مرة أخرى أن ينام. ولكنه ما إن غفا حتى أيقظوه مرة أخرى وأخذوه الى غرفة الفحص، حيث تذكر وهو واقف كما ولدته أمه امام طبييين ذلك الزمان المجيد حين دعي للخدمة العسكرية. وعندها بدرت على نحو عفوي من شفتيه الكلمة الألمانية (tauglich) التي تعني «صالح للخدمة».

سأله أحد الطبييين:

- ماذا تقول؟ هيا اخط خمس خطوات نحو الأمام ومثلها نحو الخلف.

خطا شفيك عشر خطوات.

قال له الطبيب:

- ولكنني طلبت منك أن تخطو خمس خطوات فقط.

قال شفيك:

- بضع خطوات زائدة او ناقصة سيان لديّ.

بعد ذلك طلب منه الطبييان الجلوس على كرسي ونقره أحدهما على ركبته. ثم قال للطبيب الآخر ان انعكاساته صحيحة تماما، ولكن هزّ الآخر رأسه وبدأ ينقر شفيك على ركبته بنفسه، بينما راح الطبيب الأول يفتح جفني شفيك وفحص إنساني عينيه. وبعد ذلك سارا نحو منضدة وتبادلا بعض التعابير باللاتينية.

سأل أحدهما شفيك:

- اسمع، هل تستطيع الغناء؟ هل ذلك أن تفضل فتغني لنا أغنية؟

أجاب شفيك:

- بكل سرور أيها السيدان. لا أتمتع بصوت جميل ولا بأذن موسيقية ولكني سأجرب. سأفعل لأرضيكما إذا كنتما تريدان التسلية.

ثم شرع شفيك يعني:

«الراهب الصغير جلس على كرسي

فمزق شعره كالمحموم...»

قال شفيك:

- أعتقد أنني لا أحفظ أكثر من ذلك، ولكن إذا رغبتما استطيع ان اغني لكما

ايضا:

«أوه، ذلك ثقيل على قلبي،

قلبي يلهث من ذلك الأكم الرصاصي،

وبينما أجلس هنا وأحدق الى البعيد

إلى حيث قيّدت بقيود الحب العذبة...»

تنهد شفيك ثم قال:

- استطيع ان اتذكر المزيد من هذه ايضا، ولكني اعرف اول مقطع من

قصيدة «أين هو موطني⁽¹⁾؟» «الجنرال فينديغرتس صاح كالديك». كما

اعرف بعض الأغنيات الشعبية مثل «حفظ الله امبراطورنا وأرضنا» و«حين

سرنا إلى يا رومرج» و«سلاما أيتها العذراء المقدسة ألف سلام». .

تبادل الطبيبان العالمان النظرات ثم سأله أحدهما السؤال التالي:

- هل سبق أن فحصت حالتك العقلية؟

أجاب شفيك بفخر ورزانة:

- أجل، وفي الجيش. وقد شهد لي الأطباء العسكريون أنني معتوه برخصة.

صاح به الطبيب الآخر:

- أعتقد أنك متمارض.

(1) أصبحت بعد ذلك النشيد الوطني التشيكي. (س.ب).

قال شفيك مدافعا عن نفسه:

- ماذا؟ أنا يا سادة؟ لا، أوكد لكم أنني لست بالمتمارض. أنا معتوه أصيل وحققي. ما عليكم سوى أن تسألوا عني في «تشكك بوديوفيتسه» أو لدى قيادة الاحتياط في «كارلين».

حرّك أكبر الطبيين سنا يده بايماءة تدل على اليأس ثم اشار الى شفيك وقال للمرضين:

- أعيدوا الى هذا الرجل ملابسه وأرسلوه الى الدرجة الثالثة في الممر الأول. ثم فليعد أحدكم ويأخذ كل أوراقه الى المكتب، ثم قولوا لهم أن ينتهوا من الموضوع بسرعة حتى لا يبقى معلقا بأعناقنا فترة طويلة.

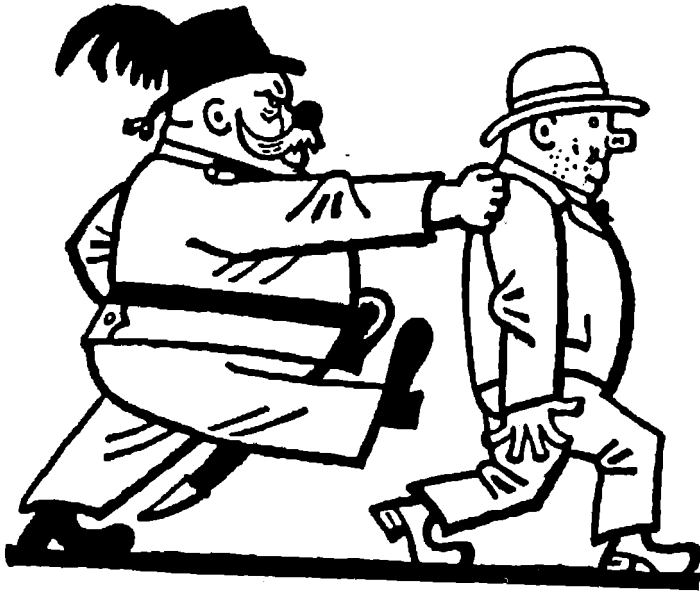
نظر الطبيان نظرة مدمرة أخرى الى شفيك الذي تراجع نحو الباب باحترام وهو ينحني بلطف. وحين سأله أحد الممرضين عن الهراء الذي كان يفعله أجاب:

- طالما أنني دون ملابس وعار من الثياب فلا أحب أن أظهر لهذين السيدين أي شيء، حتى لا يظنوا أنني جلف أو سوقي.

ومنذ اللحظة التي تلقى فيها الممرضون الأمر بإعادة ملابس شفيك إليه، ما عادوا يظهرن له أي اهتمام. طلبوا منه أن يلبس ثيابه، ثم أخذه أحدهم الى الدرجة الثالثة حيث أتيح له خلال الأيام القليلة التي استغرقها المكتب لاكمال شكليات اطلاق سراحه، أن يستأنف مراقباته اللطيفة. لقد منحه الطبيان خائبا الرجاء شهادة تفيد بأنه «متمارض مصاب في عقله»، ولكنهم حين طردوه قبل أن يمنح وجبة غداء حدث مشهد صغير.

صرح شفيك بأنهم إذا طردوا أي شخص من مستشفى المجانين فلا يحق لهم أن يفعلوا ذلك دون منحه وجبة غداء.

هذه المخالفة للأمن العام اعترضها شرطي استدعاه بواب المستشفى حيث اصطحب شفيك إلى مخفر الشرطة في شارع سالموفا.



شفيك

في مخفر الشرطة في شارع ساسلوفنا

بعد أيام شفيك الجميلة المشمسة في مستشفى المجانين مرت به ساعات مليئة بالاضطهاد. فقد جهّز مفتش الشرطة «براون» للقاءه مع شفيك كل وحشية موظفي المحاكم الرومانية في عهد الامبراطور الفاتن «نيرون». وبالقسوة نفسها التي كانوا يقولون فيها: «ارم بهذا المسيحي النذل الى الأسود»، قال المفتش براون: «ضعوه خلف القضبان».

لم يقل براون أية كلمة أخرى، ولكن عينيه التمتعنا بشهوة شاذة على نحو غريب.

انحنى شفيك وقال بفخر:

- أنا جاهز أيها السادة. وأعتقد أن خلف القضبان تعني «الزنازة»، وهذا ليس أمراً شديداً سوء.

أجابه مفتش الشرطة:

- لا تتصرف وكأنك في بيتك هنا.

فأجابه شفيك:

- أنا إنسان متواضع وشاكر لأي شيء تفعلونه لأجلي.

في الزنازة كان رجل جالس على سرير خشبي غارقاً في التفكير. كان يجلس فاتر الهممة، وكان واضحاً من تعبيره أنه حين صر المفتاح في قفل باب الزنازة لم يصدق أن الباب سيفتح ثانية لإطلاق سراحه.

قال شفيك وهو يجلس الى القرب منه على السرير الخشبي:

- تحياتي يا صاحب الفضيلة. ما هو الوقت الآن يا ترى؟

أجاب الرجل المتأمل قائلاً:

- الوقت ليس سيدي لي.

قال شفيك:

- ليس الأمر سيئاً الى هذا الحد هنا. فقد سحجوا الألواح الخشبية لهذا السرير على الأقل.

لم يجب الرجل الرزين، بل وقف وبدأ يسير بسرعة في ذلك الفراغ الصغير بين الباب والسرير وكأنه يهرع لانتقاذ شيء ما.

في هذه الاثناء لاحظ شفيك باهتمام الكتابات المحفورة على الجدران. وكانت هناك كتابة تعهد فيها سجين مجهول الاسم أمام السماء بأن يحارب الشرطة حتى الموت. وكتب سجين آخر: «لن تصل الى نصف ذلك». أما الثالث فقال: «اللجنة أيتها الشرطة». وكانت هناك كتابة اخرى سجلت الحقيقة العارية التالية: «سجنت هنا في الخامس من حزيران (يونيو) من عام

1913 ولم اعامل بسوء كثير. يوسف ماريتشيك، تاجر من فرسوفيتسه». كما كانت هناك كتابة اخرى تهز الأرض بعمقها: «ارحمني أيها الرب الكلي القدرة...» وقد كتب تحتها احدهم ما يلي: «قَبْلَ م... تي». وكان الحرف «م» قد شطب على أية حال وكتب بدلا عنه بالحرف الكبير «ذيل معطفي». والى جانب ذلك كتبت روح شاعرية: «أجلس في حزن قرب الجدول. الشمس مختبئة خلف الهضاب. أراقب اعالي الجبال اللامعة، حيث تسكن افضل محبوباتي».

توقف الرجل الذي كان يهرع بين الباب والسرير الخشبي وكأنه يحاول أن يفوز في سباق الماراتون وعاد للجلوس مبهور الأنفاس، ثم وضع رأسه بين يديه وصاح فجأة: أخرجوني.

ثم قال لنفسه: «لا، لن يخرجوك. لن يفعلوا ذلك. أنا هنا منذ السادسة صباحا».

ثم انتابته نوبة صراحة فوقف منتصبا وسأل شفيك:

- أليس معك نطاق حتى انهي هذا الأمر كله؟

اجابه شفيك وهو يفك حزامه:

- هذا أمر أستطيع ان اساعدك به بكل سرور. لم يسبق لي ان رأيت

شخصا يشنق نفسه في زنزانه.

ثم استأنف قائلا وهو ينظر حوله:

- ولكن من المزعج عدم وجود خطاف هنا، فمزلاج النافذة لن يتحمل

وزنك ما لم تشنق نفسك وأنت ترقع على السرير الخشبي كما فعل ذلك

الراهب في «دير اماوس»، حين شنق نفسه على صليب بسبب يهودية شابة.

أنا مغرم جدا بالانتحارات، ولذا ما عليك سوى ان تتابع. التحضير الجيد

عربون النجاح.

نظر الرجل العابس الذي دفع شفيك بحزامه بين يديه، الى ذلك الحزام ثم

رماد في الزاوية وانفجر بالكاء ماسحا دموعه بيديه المسودتين صارخا: «لدي اطفال صغار! لقد حبسوني بسبب السكر والممارسات اللااخلاقية. يا الهي، مسكينة هي زوجتي، ماذا سيقولون لي في المكتب؟ لدي اطفال صغار! أنا هنا بسبب السكر والممارسات اللااخلاقية... الخ، الخ وحتى ما لا نهاية.

وأخيراً، هدأ قليلا على اية حال، ثم ذهب الى الباب وبدأ يرفسه ويضربه بقبضتيه. ومن خلف الباب سمعت خطوات ثم قال صوت: «ماذا تريد؟». قال الرجل بصوت بدا معه وكأنه فقد كل أمل: «اخرجوني»، فجاءه الجواب من الجانب الآخر: «الى أين؟».

أجاب الأب السيء الحظ، الموظف السكير الفاسق: «الى مكثي». جلجلت ضحكة محطمة هدوء الممر، ضحكة هائلة، ثم سمع صوت الخطوات وهي تمضي بعيداً.

قال شفيك حين جلس الرجل اليانس الى القرب منه مرة أخرى:
- يبدو لي ان ذلك السيد يكرهك، لا شك أنه كان يضحك عليك بتلك الطريقة. ان شرطيا كهذا قد يؤدي كثيراً حين يغضب، وحين يزداد غضبه فقد يفعل اي شيء. هيأ واجلس بهدوء إذا كنت لا تريد شق نفسك وانتظر لترى ما ستؤول إليه الامور. إذا كنت موظفا ومتزوجا ولديك اطفال صغار، فهذا أمر مخيف وعليّ ان اقر بذلك. وإذا لم اكن مخطئاً فأنت مقتنع على الأرجح بأنك ستطرد من وظيفتك.
قال متنهدا:

- لا أعرف لأنني لا اتذكر أنا نفسي ما فعلته. كل ما اعرفه انه رمي بي خارج مكان ما وإني أردت العودة الى ذلك المكان لاشعل سيجارا. ولكن الحفلة بدأت على نحو رائع على اية حال. لقد كان رئيس قسمنا يحتفل بعيد شفيعه ودعانا الى مطعم يقدم النييز. ثم ذهبنا الى ثان وثالث ورابع وخامس وسادس وسابع وبثمان وتاسع...

سأله شفيك:

- ألا تحب أن أساعدك في العد؟ أنا خبير في ذلك بعض الشيء. لقد دخلت في احدى الليالي إلى ثمان وعشرين حانة. ولكن، احلف بالله على ذلك، لم اتناول في اي منها اكثر من ثلاثة كؤوس من الجعة. استأنف المروؤس البائس لرئيس القسم ذاك الذي احتفل بيوم شفيعه بذلك الأسلوب الفخم المهيّب قائلاً:

- وبأختصار، بعد ان كنا قد مررنا بحوالي زدينة من أوكار الليل المختلفة اكتشفنا أننا فقدنا رئيسنا، رغم اننا كنا قد اوثقناه بخيط وقدناه معنا ككلب صغير. وهكذا ذهبنا نفتش عنه في كل مكان. وأخيراً تهنا عن بعضنا البعض حتى وجدت نفسي في احد تلك المقاهي الليلية في «فينوهرادي»، وهو مكان محترم جداً، حيث شربت «الليكور» من الزجاجة. وما فعلته بعد ذلك لا اتذكره، كل ما اعرفه انه حين جاؤوا بي الى مخفر الشرطة هنا، أفاد شرطيان أنني كنت ثملاً واني تصرفت على نحو غير اخلاقي وضربت سيدة، وأخذت قبة غيري من المشجب، وقطعتها الى مزق صغيرة بسكيني، ثم رحت لاحق سيدات الفرقة الموسيقية، واتهمت كبير النادلين امام الجميع بأنه سرق عشرين من الكراونات، كما حطمت لوح الرخام الذي كان على الطاولة التي كنت اجلس إليها وبصقت متعمداً في فنجان من القهوة السوداء. كان يشربه رجل غريب جالس الى الطاولة المجاورة. لم افعل اي شيء آخر. على الاقل لا اتذكر اني فعلت غير ذلك. وصدقني، أنا رجل محترم ذكي لا يفكر سوى بعائلته. ما رأيك؟ لست قاطع طريق دون ريب!؟

لم يجب شفيك على ذلك بل سأل باهتمام:

- هل اتعبك كسر رخام الطاولة ام انك فعلتها بضربة واحدة؟

اجاب الرجل الذكي:

- بل بضربة واحدة.

قال شفيك بتأمل:

- اذن فانت قد علقت. سيبرهون لك انك قد تدربت على ذلك تدريبا طويلا
ومكثفا. وقهوة ذلك الغريب التي بصقت فيها، هل كانت مع شراب «الروم» ام
بدونه؟

ودون ان ينتظر جوابا شرح رأيه قائلا:

- لو كانت مع الروم فسيكون الأمر أسوأ لانه أعلى ثمنا. وفي المحكمة
سيحسبون كل بند ثم يجمعونها كلها معا حتى تصل القضية الى جناية على
الأقل.

همس رب الأسرة حي الضمير باكتئاب: «في المحكمة...» ثم نكس رأسه
وانغمس في تلك الحالة البائسة التي يلتم فيها تأنيب الضمير الإنسان⁽¹⁾.

سأله شفيك:

- وهل يعرفون في البيت انك في السجن، ام هل ينتظرون حتى يقرأوا
ذلك في الصحف؟

- وهل تعتقد ان هذا سينشر في الصحف؟

كان هذا هو السؤال الساذج لضحية حفلة عيد شفيك رئيس قسمه.

وكان الجواب الصريح لشفيك الذي ما كان ليخفي شيئا عن الآخرين:

- طبعاً، هذا اكيد تماما، سيتاح لجميع قراء الصحف للتعرف الى ما
ارتكبته. وأنا أحب أيضا قراءة تلك الزاوية الخاصة بالسكارى
ومغامراتهم. منذ زمن ليس بالبعيد وفي بار «كأس القربان» لم يرتكب
احد الزبائن شيئا سوى انه شج رأسه بكأس. لقد رمى الكأس عاليا في
الهواء ووقف تحته. ولكنهم حملوه بعيداً. وفي صباح اليوم التالي مباشرة
قرأنا عما حدث معه في الصحف. وفي «بندلوفكا» صفت مرة شخصا

(1) يستعمل بعض الكتاب: «ينهش» بدلا عن «يلتهم» هنا. ولا اعتبر هذه العبارة ملائمة هنا
تماماً. وعلى اية حال فإن النمر يلتهم الإنسان ولا ينهشه. (المؤلف).

أبكم يعمل في مكتب لدفن الموتى وكان ان رد لي الصفعة. وحتى تصالحنا اضطرت الشرطة الى اعتقالنا معاً، وقد نشر ذلك فوراً في صحف المساء. أو حين قام ذلك المستشار بكسر فنجانين في قهوة «الجثمان»، هل تتصور أنهم أهملوا ذكره؟ لقد نشر ذلك في الصحف في اليوم التالي مباشرة. كل ما يمكنك أن تفعله هو ان ترسل تصحيحاً للصحيفة من السجن تقول فيه أن المعلومات المنشورة عنك لا علاقة لك بها، وأنت لست قريباً لفلان ولا علاقة لك به من قريب أو بعيد ثم عليك أن تكتب رسالة الى البيت وتقول لهم فيها أن عليهم أن يقصوا التصحيح من الصحيفة ويحتفظوا به حتى تقرأه بعد أن تكون قد قضيت محكوميتك.

ثم سأله شفيك الذي امتلأ قلبه بالشفقة لدى مشاهدته للرجل الذكي وهو يرتجف فقال:

- ألسنت تشعر بالبرد؟ لقد جاء صيف هذا العام بارداً جداً.

انتحب رفيق شفيك قائلاً:

- لقد انتهيت؟ لقد خسرت ترفيعي.

قال شفيك حالاً:

- طبعاً بكل تأكيد. وإذا لم يقبلوا باعادتك الى وظيفتك بعد ان تقضي محكوميتك فلا اعرف ان كنت ستجد وظيفة اخرى بسرعة، لان اي شخص تطلب ان تعمل لديه، حتى لو كان دباغاً، سيطلبك بتقديم شهادة حسن سلوك. لا، إن لحظة فسوق كتلك التي انغمست فيها ستكلفك الكثير... وهل لدى زوجتك وأطفالك ما يتعيشون منه وأنت في السجن؟ أم عليها ان تذهب وتستجدي وتعلم أولادك كل أنواع الرذائل؟
أمكن سماع نحيب.

- يا أطفال الصغار المساكين! يا زوجتي المسكينة!

نهض التائب معدوم الضمير وبدأ يتحدث عن أطفاله: لديه خمسة أطفال، أكبرهم في الثانية عشرة وهو في الكشافة. انه لا يشرب سوى الماء وكان يجب أن يكون مثالا لأبيه الذي أساء التصرف بهذه الطريقة للمرة الاولى في حياته.

صاح شفيك:

- كشاف؟ أحب سماع شيء عن هؤلاء الكشافة، حدث مرة في «ميدلوفاري» بالقرب من «زليف» من اقليم «هلوبوكا»، منطقة شرطة «تشكه بوديوفيتسه»، في ذلك الحين بالضبط حين كنا نحن افراد الفوج (91) نقوم بالمناورات، ان قام فلاحون من المنطقة بالبحث عن كشافة كانوا يملؤون غابة الأبرشية. وقد أمسكوا بثلاثة منهم. وحين أوثقوا أصغرهم ناح وصاح وبكى الى حد أننا نحن الجنود القساء لم نستطع تحمل ذلك وفضلنا الابتعاد. وبينما كان أولئك يجري توثيق الكشافة قاموا بعض ثمانية فلاحين. وبعد ذلك وتحت التعذيب بالضرب بالقضيب اعترفوا أمام المختار بأنهم لم يتركوا مرجا واحدا في كل المنطقة لم يقوموا بتكسير نباتاته وهم يتمددون فوقه ليستحموا بالشمس. كما قالوا ان الحريق الذي التهم الذرة النامية قرب «راجيشه» لم يكن قد حدث بالمصادفة. لقد حدث ذلك قبل الحصاد وكانوا يشوون أيلاً على السفود، وهو أيل طاردوه ثم قتلوه بالخناجر في غابة الأبرشية. وفي مخبئهم في الغابة وجد لاحقا اكثر من خمسة وعشرين كيلو غراما من عظام الطرائد والدواجن وكمية هائلة من بذور ثمار الكرز وأكوام من ثمار التفاح غير الناضجة والفواكه الطيبة الأخرى.

على كل حال لم يكن في ذلك اي سلوان لقلب والد الكشاف المسكين، فانتحب قائلا:

- ما الذي فعلته؟ لقد خربت سمعتي.

قال شفيك بصراحته المعهودة:

- طبعاً وبالتأكيد. وعلى اية حال فقد تخربت سمعتك حتى نهاية حياتك. وحين يقرأ اصدقاؤك عن الموضوع في الصحف سيبهرونه. إنهم يفعلون ذلك على الدوام ولكن لا تقلق على ذلك. هناك في العالم من الاشخاص ملطخي السمعة اكثر بعشرة أضعاف مما هناك من الاشخاص ذوي السمعة النظيفة! وهذه مسألة تافهة تماما.

سمع من الممر صوت خطوات حيوية ثم صر المفتاح في القفل وفتح الباب وصاح رجل شرطة باسم شفيك.

قال شفيك بفروسية:

- اعدرنى. فأنا هنا منذ الساعة الثانية عشرة ظهرا فحسب، ولكن هذا السيد ما زال هنا منذ السادسة من صباح اليوم. لست على عجل بأية حال من الاحوال.

وبدلاً من الحصول على جواب جرّت الذراع القوية لرجل الشرطة شفيك الى الممر واقتيد بصمت صاعدا الدرج الى الطابق الأول. وفي الغرفة الثانية كان يجلس مفتش شرطة الى منضدة. كان رجلا بدينا ذا وجه ودود، وقال لشفيك:

- اذن أنت هو هذا الشفيك؟ كيف وصلت الى هنا؟

أجاب شفيك:

- بأكثر الطرق شيوعا وعادية في العالم كله. لقد جئت الى هنا برفقة شرطي لانى لم اسكت على طردى من مستشفى المجانيين دون وجبة غداء. لقد بدا لي انهم ظنوني عاهرة مطرودة.

قال المفتش بلطف:

- حسنا يا شفيك. لم علينا ان نزعج أنفسنا بك هنا في شارع سالموفا؟

ليس من الأفضل ارسالك الى مقر رئاسة الشرطة؟

قال شفيك بهدوء:

- أنت سيد الموقف كما يقول المثل. ان السير الى مقر الشرطة في هذا المساء سيكون عبارة عن مشوار صغير ممتع.

قال المفتش بمرح:

- يسعدني اننا نتفق حول ذلك. الامر افضل بكثير مع وجود اتفاق، أليس كذلك يا شفيك؟

أجاب شفيك:

- وأنا اكون سعيداً دائماً في نيل النصح من اي شخص ايضا. لن انسى أبداً لطفك معي ايها المفتش. صدق أنني لن أنسى.

ثم انحنى باحترام وذهب نحو غرفة الحرس مصحوباً بالشرطي، وبعد ربع ساعة من ذلك شوهد عند زاوية «شارع بيتشنا» و«ساحة تشارلز» بحراسة شرطي آخر كان يحمل تحت ذراعه كتاباً ضخماً يحوي سجلات السجناء وعليه بالالمانية كلمة «سجل الموقوفين».

عند زاوية «شارع سبالينا» قابل شفيك وحارسه جمهرة من الناس يحتشدون عند اعلان معلق على الجدار.

قال الشرطي لشفيك:

- هذا بلاغ صاحب الجلالة الامبراطورية باعلان الحرب.

قال شفيك:

- لقد تنبأت به، لكنهم ما زالوا دون علم به في مستشفى المجانين رغم انه كان عليهم ان يأخذونا من فم الحصان.

سأل الشرطي شفيك:

- ما الذي تعنيه؟

شرح له شفيك قائلاً:

«لأن لديهم الكثير من الضباط محجوزون هناك». وحين وصلوا الى
 جمهرة اخرى من الناس تحتشد عند اعلان آخر، صاح شفيك:
 - فليحم الله امبراطورنا فرانتس يوسيف! سنكسب الحرب!
 قام احد الاشخاص من ضمن الجمهرة المتحمسة بضرب شفيك على
 قبعته حتى غطت اذنيه، وهكذا عبر شفيك مرة اخرى بوابة مقر الشرطة
 محاطا بجمهرة من الناس.
 - سنكسب هذه الحرب بالتأكيد، اكرر ذلك مرة اخرى ايها السادة.
 وبهذه الكلمات ودع شفيك الجمهرة التي واكبته.
 ومن مكان ما من عهود التاريخ المعتمة اتضح الحقيقة امام اوروبا
 بأن الغد سيمحو خطط اليوم.

شفيك

يعود الى بيته بعد ان كسر الحلقة المفرغة

كانت روح السلطة الأجنبية تهيمن على مبنى مقر رئاسة الشرطة: وهي سلطة كانت تتحقق الآن من مدى حماسة السكان للحرب. وباستثناء قلة من الناس كانت على استعداد للإقرار بأنها من أمة يتوجب عليها ان تنزف في سبيل مصالح غريبة عنها تماما، فإن رئاسة الشرطة كانت تمثل اجمل مجموعة من الوحوش البيروقراطية المفترسة التي كانت سجونها ومشانقها الوسيلة الوحيدة للدفاع عن وجود مواد القانون الملتوية.

كانوا يعاملون ضحاياهم بدمائة ملفعة بالخبيث، ويزنون كل كلمة مسبقا وبكل حرص.

قال أحد هذه الوحوش الكاسرة المخططة بالأسود والأصفر حين مثل شفيك أمامه:

- يوسفني جداً أنك وقعت ثانية بين أيدينا، لقد حسبنا أنك قد انصلحت، ولكننا نشعر بخيبة الأمل.

أوما شفيك برأسه صامتا ولبس تعبيراً شديداً البراءة على وجهه الى

حد أن الوحش الأسود والأصفر نظر إليه متسانلاً وقال مع التشديد:

- ارفع هذا التعبير الأبله عن وجهك.

ولكنه سرعان ما قال بلهجة ودية:

- طبعاً لا يسرنا اطلاقاً ان نبقيك في الحبس، وأؤكد لك ان ذنبك في رأيي

ليس كبيراً جداً. وبغياب الذكاء عنك لا بد انهم قادوك الى طريق الضلال. قل

لي يا سيد شفيك من هو الذي دفعك الى ارتكاب مثل هذه الحماقات؟

سعل شفيك ثم قال:

- عفوا يا سيدي، لا اعرف شيئاً عن اية حماقات.

قال بلهجة ابوية مصطنعة:

- ولكن ألم يكن من الحمق يا سيد شفيك أنك قد جعلت مجموعة من

الناس - وذلك حسب افادة الشرطة التي قادتك الى هنا - تتجمهر امام اعلان

الحرب الذي كان مرفوعاً عند الزاوية، وانك دفعت الناس الى ان تصرخ:

«عاش امبراطورنا فرانتس يوسيف. هذه الحرب قد كسبناها سلفاً؟».

صرح شفيك وهو يثبت عينيه الصريحين على عيني المستجوب:

- لم أستطع أن اراجع، فقد كنت غاضباً جداً حين رأيتهم وهم يقرأون

كلهم الاعلان دون ان يعبر اي منهم عن فرحته. لم تكن هناك اية هتافات

تقول «عاش امبراطورنا»، ولا اية هتافات استحسان، ولا أي شيء اطلاقاً

أيها المفتش. بدا الأمر وكأنهم لا يكثرثون اطلاقاً. ان جندياً عجوزاً عن

الفوج (91) مثلي لا يستطيع ان ينظر إلى مثل ذلك دون أن يفعل شيئاً، ولذا

صرخت بتلك الكلمات. واعتقد انك لو كنت مكاني لفعلت ما فعلته

بالضبط. ان كانت هناك حرب فلا بد من كسبها وعلى الناس ان تهتف:

«عاش امبراطورنا». لن يجبرني احد على التخلي من ذلك.

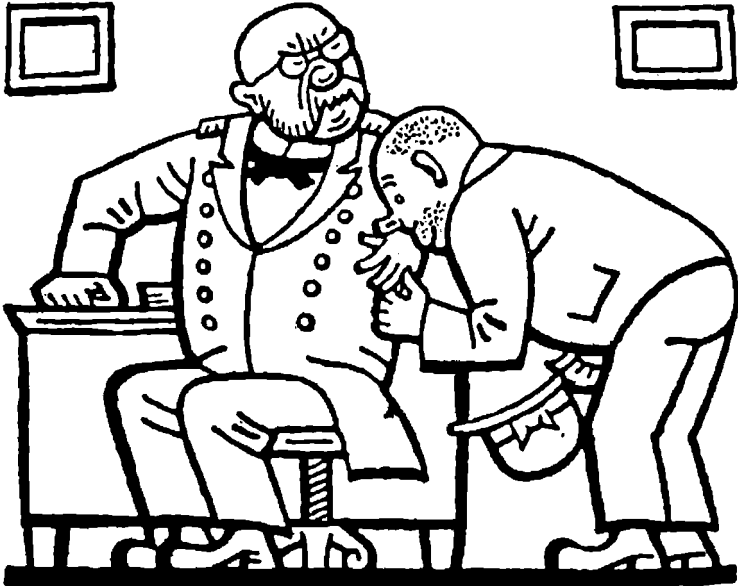
لم يستطع الذئب الأسود والأصفر، المسحوق والمغلوب على أمره، أن

يتحمل نظرات الحمل البريء الطاهر شفيك، فغض من بصره ناظرا الى الوثائق الرسمية أمامه وقال:

- أعطيك العلامة التامة على حماسك لو أنك كنت قد صرحت عنها ضمن ظروف مختلفة فحسب. وعلى أية حال أنت تعرف جيداً أنك كنت تحت حراسة الشرطة وان تصريحها وطنياً كذلك يمكن بل يجب ان يكون قد اعتبر من قبل الناس على انه تهكمي وليس بالاحرى جدياً.
أجاب شفيك:

- حين يقاد رجل تحت حراسة الشرطة تعتبر تلك لحظة صعبة جداً من لحظات حياته. ولكن لو ان رجلاً لا ينسى - حتى في مثل هذه اللحظة الصعبة - واجباته في زمن الحرب، فأعتقد انه ليس بالشخص الرديء أبداً.

هزء الذئب الأسود والأصفر ونظر الى عيني شفيك مرة أخرى. تحاشاه شفيك بذلك الدفء البريء الرقيق المتواضع الحنون لعينه.
ولبرهة راحا يحدقان الواحد في الآخر بثبات.



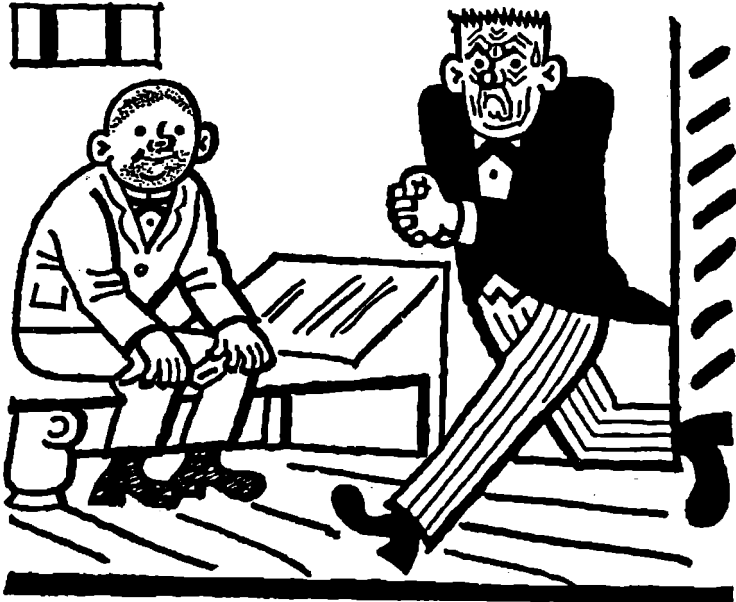
قال الموظف أخيراً:

- اذهب الى الجحيم يا شفيك، وان جئت الى هنا ثانية فلن أسألك أية أسئلة بل أقودك فوراً الى المحكمة العسكرية في هرادتشانى. هل تفهم؟ ولكنه قبل ان يدرك ما حدث كان شفيك قد خطا نحوه وقبل يده وقال: - فليجزك الله خير جزاء على كل شيء، وإذا ما احتجت مرة الى كلب صغير اصيل. فأطلبه مني. أنا تاجر كلاب.

وهكذا وجد شفيك نفسه حراً مرة أخرى وفي طريقه الى البيت. لم يستطيع ان يقرر إن كان سيتوقف اولا عند «كأس القربان». وأخيراً قرر أنه سيفعل ذلك. وفتح الباب الذي خرج منه قبل فترة من الزمن بحراسة رجل البوليس السري بريتشنايدر.

كان صمت مميت يهيمن على البار، وقد جلست فيه قلة من الزبائن، بمن فيهم قندلفت من «سانت ابولونير». وقد بدا عليهم الحزن. وخلف النضد جلست السيدة باليفتس تحدق بفتور في صناير الجعة.

قال شفيك بمرح:



- حسناً، ها أنذا أعود ثانية. هل لي بكأس من الجعة من فضلك؟ ماذا حدث للسيد باليفتس؟ هل عاد الى بيته أيضاً؟

وبدلاً عن الاجابة انفجرت السيدة باليفتس بالبكاء. ثم ركزت كل بؤسها مشددة كل كلمة على نحو خاص، وهي تئن قائلة:
- منذ اسبوع حكم عليه... بعشر.. سنوات.

قال شفيك:

- هوّني عليك، فقد خدم منها سبعة أيام حتى الآن.

انتحبت السيدة باليفتس:

- كان دائماً شديد الحرص. هذا ما كان يقوله عن نفسه دائماً.
حافظ الزبائن على الصمت العنيد وكان روح باليفتس كانت تسكن البار وتحثهم على المزيد من الحذر.

قال شفيك وهو يجلس الى منضدة مع كأس من الجعة:
- الحذر أبو الحكمة.

في رغبة الجعة شاهد شفيك ثقبوا صغيرة صنعتها دموع السيدة باليفتس اذ سقطت فيها وهي تجلبها لشفيك؟.

استأنف شفيك قائلاً: «نحن نعيش في زمن نضطر فيه الى الحذر».

قال قندلفت «سانت أبو لونير» وهو يغيّر الموضوع:
- البارحة كانت لدينا جنازتان.

أجالبه زبون آخر:

- لا شك أن أحداً قد مات إذن.

وقال ثالث:

- هل كانت للجنازتين منصتا نعش؟

قال شفيك:

- أود ان اعرف كيف ستكون عليه حال الجنازات العسكرية طالما ان هناك حرباً دائرة الآن.

نهض الزبائن ثم دفعوا وخرجوا بهدوء. ترك شفيك الآن لوحده مع السيدة باليفتس. قال:

- لم اتصور أبداً أنهم سيحكمون على رجل بريء بعشر سنوات. إن الحكم على رجل بريء بخمس سنوات امر سبق ان سمعت به، ولكن عشر سنوات؟! هذا كثير بعض الشيء.

انتحبت السيدة باليفتس قائلة:

- حسناً. كما ترى، فهو قد اعترف بكل شيء، عجوزي ذاك. ان ما قاله هنا عن تلك الذبابات وتلك الصورة كرهه مرة اخرى في رئاسة الشرطة وامام المحكمة. كنت شاهدة في محاكمته، ولكن ما الافادة التي كنت سأدلي بها حين قالوا لي اني طالما كنت «في حكم العلاقة» مع زوجي يحق لي ان لا اقدم افادتي؟ لقد خشيت ان تؤدي «في حكم العلاقة» تلك الي شيء آخر. فقررت عدم الإدلاء بافادتي. كما انه نظر إلي. مسكينني العزيز، تلك النظرة! يا لها من نظرة! لن أنسى تلك النظرة حتى يوم مماتي. وبعد نطق الحكم كانوا يقودونه الي خارج المحكمة حين صرخ فيهم في الممر وكأنه قد جن: «عاش الفكر الحر».

سألها شفيك:

- ألم يعد السيد بريتشنايدر يتردد على المكان؟

اجابت السيدة باليفتس:

- بلى، فقد جاء عدة مرات وشرب كأسا او كأسين وسألني عنم يأتي الي هنا. واصفى الي الزبائن وهم يتحدثون عن كرة القدم.

انهم ما ان يروه حتى يبدأوا بالحديث عن كرة القدم ولا شيء آخر. كما تصييه عادة الرعشة العصبية وكأنه سيجن في اية لحظة ويقع في نوبة. ولكنه

لم يفلح طوال هذا الوقت سوى في القبض على منجد من شارع برجيتشنا.
قال شفيك:

- هي مسألة تدريب لا غير. هل كان ذلك المنجد شخصاً غيبياً؟
أجابته باكية:

- بل اشبه بزوجي بالاحرى. لقد سأله السيد بريتشنايدر ان كان مستعداً لاطلاق النار على الصربيين، فقال انه لا يستطيع ان يطلق النار، وانه كان مرة في ساحة للتدريب على اطلاق النار وأصاب قطعة نقدية من نصف كراون وثقبها. ثم سمعنا جميعاً السيد بريتشنايدر وهو يخرج دفتر ملاحظاته ويقول: «هاهه، وها هي حالة جميلة اخرى من الخيانة» ثم رحل مع ذلك المنجد من سكان شارع برجيتشنا الذي لم يعد منذ ذلك الحين.
قال شفيك:

- كثيرون منهم لا يعودون أبداً. هل لي بكأس من الروم، من فضلك؟
كان شفيك على وشك ان يتناول كأساً ثانية من الروم حين دخل بريتشنايدر البار. جلس، وهو يلقي نظرة سريعة الى البار والحجرات الفارغة، الى القرب من شفيك. وطلب جعة، وانتظر مفكراً فيما سيقوله.
تناول شفيك صحيفة من حمالة الصحف وقال وهو ينظر الى الصفحة الاخيرة التي عليها اعلانات:

- حسناً، لا أصدق! انظر الى هذان السيد تشيمبرا من ستراشكوف رقم البناء (5) بالقرب من راتشينييفيس، يعلن عن بيع مزرعة، مساحتها تسعة أكرات، مناسبة لبناء مدرسة ومحطة قطارات.

نقر بريتشنايدر بأصابعه بعصبية وقال وهو يستدير نحو شفيك:
- يدهشني انك مهتم بالزراعة يا سيد شفيك.

قال شفيك وهو يضافحه:

- هذا أنت اذن، أليس كذلك؟ لم أعرفك في البداية. ذاكرتي سيئة جدا.
 المرة الاخيرة التي افترقنا فيها، إذا كنت ا تذكر على النحو الصحيح، كانت
 في مكتب الاستقبال في رئاسة الشرطة. ما الذي كنت تفعله منذ ذلك
 الحين؟ هل تأتي كثيرا الى هنا؟
 قال بريتشنايدر:

- لقد جئت اليوم الى هنا خصيصا من اجلك. لقد قيل لي في رئاسة
 الشرطة انك تباع الكلاب. أنا بحاجة الى «بنشر» منمنم او «بوم» او اي
 شيء من هذا القبيل.
 اجاب شفيك:

- استطيع ان احضر لك أياً منها. هل تريد كلبا اصيلا ام هجيناً عادياً؟
 اجابه بريتشنايدر:
 - أفضله أصيلاً.
 سأله شفيك:

- ولماذا لا تشتري كلبا بوليسياً؟ ألن يعجبك واحد يقتفي اثر الرائحة
 فوراً ويقودك إلى مشهد الجريمة؟ هناك جزار في فرشفيتسه لديه كلب
 بوليسي ويستعمله لجرّ العربة. ويمكنك ان تقول ان ذلك الكلب يفتقد
 مهنته.

قال بريتشنايدر بعناد هادئ:

- أفضل واحداً من نوع «بوم»، على ألا يعضّ.

سأله شفيك:

- هل تريد واحداً لا يعضّ اذن؟ اعرف مثل هذا «البوم» الذي لا يعض.
 مالكة صاحب حانة في ديفيتسه.

اجاب بريتشنايدر الذي كانت قدراته في علم الكلاب بدائية جدا

وكانت معلوماته عن الكلاب معدومة تماما لولا انه تلقى تلك الأوامر من رئاسة الشرطة:

- اذن، افضل واحداً من نوع «البشر» المنمنم.

ولكن التعليمات كانت دقيقة واضحة ومشددة: التعرف على شفيك ورفع الكلفة معه على اساس شراء كلب منه. ويحق لبريتشنايدر ان يختار معاونين له بهذا الخصوص وان توضع تحت تصرفه بعض الاموال لشراء الكلاب.

قال شفيك:

- هناك كلاب ذات حجم كبير واخرى اصغر من نوع البشر المنمنم. لديّ كلبان صغيران وثلاثة كبار. ويمكنك ان تحضن الخمسة كلها في حجرك دفعة واحدة. انصحك بها كلها من كل قلبي.

قال بريتشنايدر:

- هذا ما كنت اتمناه. ولكن كم يكلفني شراء واحد منها فقط؟

اجاب شفيك:

- كل حسب حجمه، فالأمر يعتمد على الحجم كما ترى. ان «البشر» المنمنم ليس عاجلا. بالنسبة لهذه المخلوقات الأمر بالعكس تماما: كلما صغرت كلما زاد سعرها.

- افكر في شراء كلاب من حجم ابي يمكن ان تكون كلاب حراسة جيدة.

هكذا اجاب بريتشنايدر الذي كان قد بدأ يخشى من انه قد يثقل على ميزانية المصروفات السرية لأمن الدولة.

قال شفيك:

- حسنا اذن. يمكنني بيعك كلابا اكبر حجما بخمسين كراونا،

وكلابا أكبر من هذه أيضاً بخمسة وأربعين كراونا. ولكننا نسينا شيئاً. هل تريدها جراء أم كلابا نامية؟ وهل تريدها ذكوراً أم إناثاً؟

أجاب بريتشنايدر غير الخبير في هذا المضمار:

- لا فرق عندي. اجلبها لي وسأحضر غدا في السابعة مساءً لآخذها من

عندك. هل يناسبك ذلك؟

أجاب شفيك بلهجة جافة:

- تعال وسيكون كل شيء على ما يرام. ولكنني أود في هذه الحالة ان

أطلب منك مبلغ ثلاثين كراونا كعربون.

قال بريتشنايدر وهو يدفع المبلغ:

- على الرحب والسعة، والآن ما رأيك ان نشرب ربع ليتر من النبيذ على

حسابي؟

بعد ان شربا ربع ليتر النبيذ دعا شفيك بريتشنايدر الي ربع آخر ثم طلب

بريتشنايدر من شفيك ألا يخشاه، فهو اليوم في اجازة ويمكن له ان يحدثه

في السياسة.

صرح له شفيك بأنه لم يتحدث في السياسة في بار أبدأ، وأن السياسة

عموماً أمر من شأن الأطفال فحسب.

كانت آراء بريتشنايدر، على العكس من ذلك، أكثر ثورية. فقد قال ان

كل «دولة» ضعيفة لا بد الي زوال وسأل شفيك عن رأيه في هذا

الموضوع.

قال شفيك انه لا علاقة له بالدولة، ولكنه اضطر مرة الي الاعتناء بجرو

من نوع «سان برنار» كان في حالة ضعيفة. وقد غذاه على بسكويت

الجيش ولكنه مات رغم ذلك.

وحين كان كل منهم قد تناول الربع الخامس من النبيذ صرح بريتشنايدر

بأنه فوضوي المذهب وسأل شفيك عن المنظمة التي ينصحها بالانضمام إليها.

قال شفيك ان فوضويا اشترى منه مرة كلبا من نوع «ليونبيرغر» مقابل مئة كراون ولم يدفع له القسط الأخير.

خلال الربع السادس تحدث بريتشنايدر عن الثورة و ضد تعبئة المواطنين في الجيش، فمال شفيك نحوه وهمس في أذنه:

- لقد دخل زيون الآن. انتبه لثلا يسمعك فتقع في ورطة. أنت ترى زوجة صاحب البار وهي تبكي.

كانت السيدة باليفتس تبكي بالفعل وهي جالسة على كرسيها خلف نضد الخدمة.

سألها بريتشنايدر:

- لم تبكين سيدة باليفتس؟ سنكسب الحرب في شهور ثلاثة، ثم سيصدر عفو عام ويعود زوجك ونحتفل احتفالا رائعا.

ثم سأل شفيك وهو يستدير نحوه:

- أم انك لا تعتقد أننا سنكسب الحرب؟

قال شفيك:

- لماذا نكرر الاسطوانة نفسها؟ علينا ان نكسبها وهذا كل ما في الأمر. والآن عليّ أن اذهب الى البيت.

دفع شفيك حسابه وعاد الى خادمة بيته العجوز، السيدة مولر التي خافت حين ادركت ان الشخص الذي يفتح باب الشقة بمفتاحه كان شفيك نفسه.

قالت بصراحتها المغهودة:

- رباه يا سيدي. ظننت انك لن تعود الى هنا إلا بعد سنوات كثيرة.

وقد قمت في هذه الاثناء، من باب الإحسان، بتأجير الغرفة لبواب يعمل في ناد ليلى، لأن الشرطة جاءت للتفتيش ثلاث مرات، وحين لم تجد شيئا قالت ان سبب ذلك هو مكرك الشديد.

استطاع شفيك أن يقنع نفسه فوراً بأن الساكن المجهول قد اخذ حريته في البيت وكأنه بيته هو والى أبعد حد. لقد وجدته نائماً في فراشه وكان نبيلاً الى حد انه اقتنع بنصفه فقط، بعد أن وضع في النصف الآخر مخلوقاً طويل الشعر، كان ينام بامتنان معانقاً اياه من العنق، بينما كانت اصناف الملابس الرجالية والنسائية مبعثرة في حالة من الفوضى حول السرير. ومن تلك الفوضى كان واضحاً أن بواب النادي الليلى قد عاد مع السيدة التي رافقته وهما في حالة من المرح الشديد.

قال شفيك وهو يهز المتطفل:

- يا سيدي، استيقظ لثلاث تأخر على الغداء. لن يعجبني ان تضطر الى القول اني قد طردتك بعد أن فاتتك فرصة تناول أي غداء.

كان بواب النادي الليلى مستغرقاً في النوم الى حد كبير، وقد تطلب الأمر فترة زمنية طويلة قبل أن يفهم أن مالك السرير قد عاد الى البيت وراح يطالب به.

وقد أعلن هذا البواب ككل بوابي النوادي الليلية بأنه سيحطم اي شخص يوقظه وحاول الاستمرار في النوم.

في هذه الاثناء كان شفيك قد جمع له أجزاء ملابسه وجلبها الى السرير وراح يهزه بعنف وهو يقول:

- اذا لم ترتد ملابسك، سأحاول طردك الى الشارع كما أنت. سيكون من مصلحتك ان تكون مرتدياً ملابسك على نحو لائق حين تطرد خارجاً.

قال البواب بصوت المأخوذ على حين غرة، وهو يرتدي بنطاله:

- كنت اريد النوم حتى الثامنة مساءً، فأنا ادفع للسيدة كراونين يومياً اجرة السرير، وتسمح هي لي باحضار السيدات الشابات من النادي. يا مارينا انهضي، هيا!

وبينما كان يضع قبه ويعقد ربطه عنقه صحا الى حد يكفي لجعله قادراً على طمأننة شفيك الى ان النادي الليلي «ميموسا» كان واحداً من افضل النوادي سمعة وأن السيدات لا يسمح لهن بالدخول إليه إلا إذا كانت لديهن ملفات نظيفة لدى الشرطة، ثم دعا شفيك بحرارة الى زيارته هناك.

ومن ناحية اخرى فإن رفيقة البواب لم تعجب بشفيك اطلاقاً، بل استعملت عبارات مختارة بعناية كبيرة، ومن أكثرها امتيازاً كان:
- أنت يا ابن الأسقف، يا أنت!

بعد رحيل المتطفلين أراد شفيك ان يصفى الحساب مع السيدة مولر، ولكنه لم يجد لها أثراً في المنزل باستثناء قصاصة ورق كتبت عليها بسهولة غير معتادة وبخطها الأشبه بالخربشة أفكارها حول الحادثة غير السارة المتعلقة بتأجير سرير شفيك لبواب من ناد ليلي:

«اعذرني يا سيدي إذا لم أرك بعد اليوم لأنني سأقفز من النافذة».

قال شفيك: «أنها تكذب». وراح ينتظر.

بعد نصف ساعة زحفت السيدة مولر تعيسة الحظ الى المطبخ وكان واضحاً من التعبير الذاهل على وجهها أنها كانت تتوقع كلمات السلوان من شفيك.

قال شفيك:

- إذا أردت القفز من النافذة فأذهبي الى غرفة الجلوس. لقد فتحت لك النافذة هناك. لا انصحك بالقفز من نافذة المطبخ لأنك ستسقطين عندئذ

على حوض الزهور في الحديقة وتكسرين الشجيرات فتضطرين الى دفع ثمنها. أما من نافذة غرفة الجلوس فستسقطين بشكل جميل على الرصيف، وإذا ما كنت محظوظة ستكسرين عنقك. وإذا لم يحدث ذلك ستكسرين أضلاعك وذراعيك وساقيك وستضطرين الى دفع نفقات المستشفى.

انفجرت السيدة مولر باكية، ومضت بهدوء الى غرفة الجلوس وأغلقت النافذة. ثم قالت وهي عائدة:

- هناك تيار هوائي شديد وهذا لا يناسب روماتيزمك يا سيدي.

ثم ذهبت لتسوي السرير وتنظمه باهتمام غير عادي، وبعدها عادت الى شفيك في المطبخ وقالت والدموع في عينيها:

- لقد نفق الجروان اللذان كانا لدينا في ساحة المنزل يا سيدي. أما ذلك الكلب من نوع «سان برنار» فقد هرب حين جاءت الشرطة لفتش المنزل.

صاح شفيك:

- يا إلهي، سيوقع نفسه في المشاكل. وسرعان ما ستطارده الشرطة استأنفت السيدة مولر كلامها قائلة:

- لقد عضّ أحد مفتشي الشرطة حين جروه من تحت السرير خلال التفتيش. وقبل ذلك كان أحد أولئك السادة قد قال ان شخصا ما تحت السرير، وهكذا طلبوا من ذلك السان برنار ان يخرج باسم القانون، وحين لم يفعل سحبوه بالقوة من تحت السرير. وكان ينقض عليهم، ولكنه افلت من الباب ولم يعد أبداً، كما أنهم استجوبوني وسألوني عنمن يأتي الى المنزل لزيارتنا، وان كانت تأتينا اموال من الخارج، ثم بدأوا يلمحون الى اني حمقاء حين قلت لهم اننا لا نحصل على اموال من الخارج الا نادراً جداً، وكانت آخر مرة تلك الدفعة من مدير المدرسة في «برنو»، ومقدارها (60) كراوناً كمقدم ثمن قطعة من نوع «أنغورا» قمت أنت بالاعلان عنها في صحيفة «نارودني بوليتيكا» وقمت بدلا عن ذلك بارسال جرو كلب

صيد الثعالب الأعمى في علبه تمر. وبعد ذلك حدثوني بمنتهى اللطف ونصحوني بتأجير المنزل لذلك البواب من النادي الليلي حتى لا أخاف من البقاء وحيدة في الشقة، وهو ذلك الرجل الذي طردته للتو...
تنهد شفيك قائلاً:

- كان حظي سيئا باستمرار مع تلك السلطات يا سيدة مولر. والآن سترين كم واحداً بواحد منهم سيأتي الى هنا لشراء الكلاب.
لا اعرف ان كان اولئك السادة الذين دققوا في أرشيف الشرطة بعد سقوط الامبراطورية النمساوية- الهنغارية قد استطاعوا حل الغاز بنود النفقات السرية لشرطة أمن الدولة، حيث كان قد كتب فيها: ... اربعون كراونا، ص... خمسون كراونا، ل.. ثمانون كراونا... الخ، ولكن كانوا مخدوعين بكل تأكيد إذا كانوا قد ظنوا أن «ب... ص... ل..» هي الأحرف الأولى من أسماء اشخاص باعوا الأمة التشيكية للنسر الأسود والأصفر مقابل أربعين او خمسين او ثمانين كراونا... الخ.

ان «ب...» تعني «سان برنار» و«ص...» تعني كلب صيد الثعالب، ول... «كلب من نوع «ليونبيرغر». كل هذه الكلاب اشتراها بريتشنايدر لحساب شرطة أمن الدولة. وكانت تلك كلابا هجينة بشعة لا علاقة لها ابداً بأية سلالة أصيلة ادعاها شفيك حين باعها الى بريتشنايدر.

كان كلب السان برنار هجيناً وابتناً لكلبة من نوع «بودل» وكلب عادي من كلاب الشوارع، أما كلب صيد الثعالب فكانت له أذنا كلب «الدشهند» الالمانى وهو بحجم كلب الجزار، وكانت سيقانه مقوسة كأنما يعاني من الكساح. أما رأس كلب الليونبيرغر فكان يذكر بالخطم المشعر لكلب من نوع «بنشر» الاصطبلات. وكان له ذيل مقطوع وارتفاع كارتفاع كلب «الدشهند» الالمانى، كما كانت ساقاه الخلفيتان عاريتين كذلك الكلاب الاميركية العارية الشهيرة.

وقد جاء الشرطي السري «كالوس» لشراء كلب وعاد بوحش ذي نظرات جنونية يذكرنا بضيع مرقط له عرف كلب الراعي الاسكتلندي، وقد جاء سعره في بنود النفقات السرية للشرطة تحت بند جديد كما يلي: «د... تسعون كراونا...».

لقد اعتبر ذلك الكلب على انه من نوع «الدرواس»...

ولكن حتى كالوس نفسه لم يستطع استخلاص أية معلومات من شفيك، وقد أصاب نجاحاً شبيهاً بنجاح بريتشنايدر. كان شفيك بحول أمهر الأحاديث السياسية الى حديث حول مداواة المزاج السيء للجراء، وكانت أمكر الأفخاخ تحضيراً تنتهي باحضار بريتشنايدر وحشا هجيناً الى حد لا يصدق من عند شفيك.

وكانت تلك هي نهاية ذلك الشرطي السري الشهير المسمى بريتشنايدر. وحين أصبحت لديه سبعة وحوش من ذلك النوع في شقته، فقد حبس نفسه معها في الغرفة الخلفية وجوعها الى حد أنها التهمتته أخيراً.

لقد كان شريفاً الى حد انه وفر على الدولة نفقات جنازته.

وفي ملفه الشخصي لدى رئاسة الشرطة سجلت تحت عنوان «التقدم خلال الخدمة» الكلمات اللاذعة التالية «التهمته كلابه».

وحين علم شفيك لاحقاً بذلك الحادث الفاجع قال:

- انه لأمر يوجع الرأس أن يفكر المرء في الطريقة التي سيتم فيها تجميع أجزائه مع بعضها البعض حين يأتي يوم الحساب.

شفيك يزهب إلى الحرب

في الوقت الذي شهدت فيه الغابات على نهر «راب» في غاليسيا الجيوش النمساوية هاربة عبر النهر، وحين فوجئت في صربيا الفرق النمساوية ونالت ما تستحقه منذ زمن طويل من هزيمة منكرة، تذكرت وزارة الحرب النمساوية فجأة شفيك. ولم لا؟ فحتى هو قد يساعد على إنقاذ الملكية من ورطتها.

وحين جلبوا لشفيك الأمر بالالتحاق خلال اسبوع لاجراء الفحوص الطبية في «سترجيليكي أوستروف»، حدث أن كان في الفراش وقد نال منه الروماتيزم مرة أخرى.

كانت السيدة مولر تغلي له القهوة في المطبخ.

صاح شفيك بصوت خفيض من غرفته:

- يا سيدة مولر، يا سيدة مولر، تعالي الى هنا للحظة.

وحين وقفت الخادم الى القرب من سريره، كرر شفيك بالصوت الخفيض نفسه:

- اجلسي يا سيدة مولر.

كان في صوته شيء غامض ومهيب.

وبعد أن جلست، استوى شفيك جالسا في الفراش وأعلن:

- سأذهب الى الحرب!

زعقت السيدة مولر:

- يا للأم المقدسة! وما الذي يمكنك ان تفعله هناك؟

أجاب شفيك بصوت كتيب:

- أحارب. الأمور قد ساءت بالنسبة الى النمسا. من الأعلى شمالا هاهم قد زحفوا علينا عند كراكوف، وهناك في الأسفل جنوبا يزحفون على هنغاريا. انهم يسحقوننا كما تفعل المدحلة البخارية، من كل الجوانب ولهذا استدعوني الى الاحتياط. لقد قرأت لك البارحة من الصحيفة، ألم افعل، حول تلك السحب الداكنة التي تحجب سماء وطننا العزيز؟
- ولكنك لا تستطيع التحرك.

- هذا لا يهم يا سيدة مولر، سأذهب الى الحرب في كرسي المرضى. اتعرفين ذلك الحلواني على زاوية الشارع؟ حسنا، لديه ذلك النوع الصحيح من الكراسي. لقد اعتاد في سنوات خلت أن يدفع جده العجوز الأعرج الشرير في ذلك الكرسي حتى يشم الهواء النظيف. يا سيدة مولر، ستقومين بدفعي الى الحرب في كرسي المرضى.

انفجرت السيدة مولر باكية:

- يا سيدي العزيز، ألا يجب عليّ أن أهرع الى الطبيب؟

- لن تهرعني الى اي مكان يا سيدة مولر. فباستثناء ساقي أصلح تماما كعلف للمدافع. وفي هذا الوقت الذي ساءت فيه احوال النمسا فإن على كل مُقعد أن يكون في موقعه العسكري. هيا استمري في صنع القهوة.

وبينما كانت السيدة مولر تصب القهوة خلال المصفاة ذاهلة وبعينين

دامعتين، بدأ الجندي الطيب شفيك يغني وهو بعد في الفراش:

«صاح الجنرال فينديغرتس كالديك

نشر رايته وهاجم الأعداء
تررام تررام تررام.

* * *

هاجم العدو ولوح بسيفه
مستنجدًا بمريم أم الرب.
تررام تررام تررام».

نسيت السيدة مولر، التي اذهلها الخوف تحت تأثير تلك الاغنية الحربية
الملهمة، القهوة، وراحت وهي ترتجف بأكملها، تستمع الي الجندي
الطيب شفيك يستمر في الغناء وهو بعد في الفراش:

«ومع مريم الأم واربعة جسور،
في سفح الجبل، دعموا مراكزهم للحرب.
تررام تررام تررام.

* * *

في سولفرينو كانت هناك حرب وذبح.
أكوام من الجثث والدم كالماء.
تررام تررام تررام تررام.

* * *

أذرع وسيقان تطير في الهواء،
فالفرج الثامن عبشر الشجاع كان يقاتل هناك.
تررام تررام تررام تررام

* * *

يا شباب الفوج الثامن عشر لا تجبنوا!

هناك اموال في المؤخرة في عربية.

تررام تررام تررام تررام».

جاء صوت السيدة مولر من المطبخ وهي تقول بلهجة تثير الشفقة:

«كرمي لله ياسيدي! أرجوك!» ولكن شفيك كان ينهي الآن أغنيته

الحربية:

«الأموال في العربية والبغايا في الشاحنات!

يا لها من حياة لرجل عسكري!

تررام تررام تررام»

اندفعت السيدة مولر خارجة من الباب وهرعت الى الطبيب. وقد

عادت بعد ساعة وكان شفيك قد نام في هذه الاثناء.

وهكذا يقظه رجل بدين وضع يده على جبينه للحظة ثم قال:

- لا تخف. أنا الدكتور بافيك من فينوهراي. دعني أجس نبضك. ضع

ميزان الحرارة هذا تحت ابطك. حسناً، والآن أرني لسانك، قليلاً ايضاً.

اتركه خارجاً، ما هو المرض الذي مات منه أبوك وأمك؟

وهكذا حدث انه في ذلك الحين الذي كانت فيه فيينا تواقه الى أبعد

الحدود الى ان تقدم شعوب إلى الامبراطورية النمساوية - الهنغارية أروع

الأمثلة على الاخلاص والتفاني، ها هو الدكتور بافيك يصف لشفيك

«البروميد» ضد حماسه الوطنية، وينصح الجندي الشجاع والطيب بالأ

يفكر في الحرب:

- ممدّد على نحو مستقيم وابق هادئاً. سأعود غداً.

وحين عاد في اليوم التالي سأل السيدة مولر في المطبخ عن حالة

المريض.

أجابت بحزن حقيقي:

- إنه أسوأ أيها الطبيب. في الليل كان ينشد، إذا ما عذرتني على هذا التعبير، النشيد الوطني النمساوي، حين هاجمه الروماتيزم فجأة.

أحس الدكتور بافيك بأن عليه أن يتصرف حيال هذا المظهر الجديد من مظاهر الاخلاص الذي يديه مريضه، فوصف له جرعة أكبر من البروميد.

وفي اليوم الثالث قالت السيدة مولر للطبيب ان شفيك قد ساءت حالته أكثر حتى من اليوم السابق:

- بعد الظهر أرسل يطلب خريطة لساحة المعركة ايها الطبيب، وفي الليل انتابته هلوسات مجنونة بأن النمسا ستكسب الحرب.

- وهل يتناول المسحوق وفق الوصفة بالضبط؟

- لا ايها الطبيب. انه لم يرسل في طلبه بعد.

وخرج الدكتور بافيك بعد ان انزل على رأس شفيك عاصفة من التقرير وبعد ان اكد له انه لن يعود ثانية لعلاج اي شخص يرفض مساعدته المهنية وعلاج البروميد.

لم يكن قد تبقى امام شفيك سوى يومين للمثول امام هيئة استدعاء الاحتياط.

وخلال هذه الفترة قام شفيك باجراء التحضيرات اللازمة، فأرسل اولاً السيدة مولر لشراء قبعة عسكرية ثم ارسلها ثانية لتستعير كرسي المرضى من الحلواني الذي عند الزاوية، ذلك الكرسي الذي اعتاد الحلواني ان يدفع فيه جده العجوز الأعرج الشرير ليستنشق الهواء النظيف. ثم تذكر انه يحتاج الى عكازين. ومن حسن الحظ تبين ان الحلواني لا زال يحتفظ بالعكازين كأثر عائلي لذلك الجد.

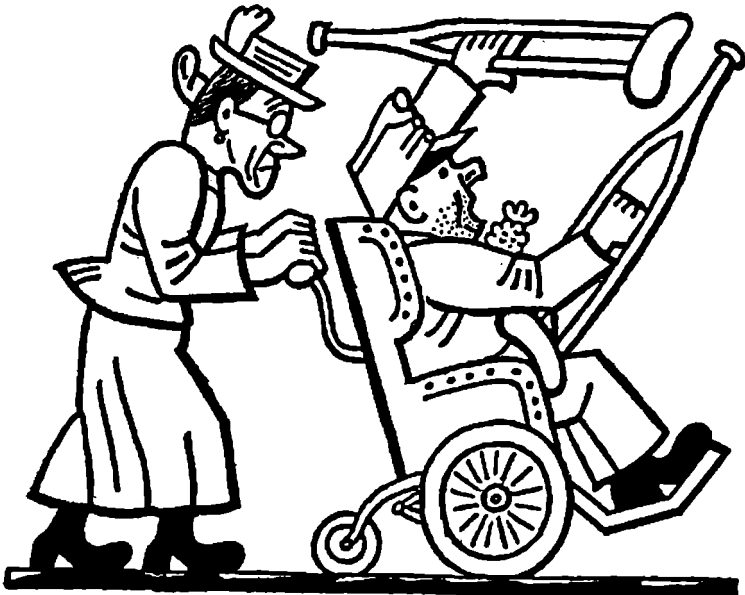
والآن كل ما كان يحتاج إليه هو باقة الأزهار الخاصة بالمجندين والتي

توضع في عروة الزر. وقد جلبت له السيدة مولر هذه ايضا. وخلال هذين
اليومين الاخيرين أصيبت بالهزال وراحت تبكي من الصباح وحتى الليل.
وهكذا حدث في ذلك اليوم المشهود ان ظهر في شوارع براغ مثال حيّ
«متحرك» على الإخلاص. امرأة عجوز تدفع أمامها كرسيها ذا عجلات جلس
فيه رجل يرتدي قبعة عسكرية ذات شعار امبراطوري لماع وهو يلوح بعكازيه.
وفي عروة زرّه كانت تشع زهور المجندين البراقة.

وهذا الرجل الذي راح يلوح بعكازيه المرة تلو الاخرى، صاح في
شوارع براغ:

«إلى بلغراد، إلى بلغراد!»

وقد تبعته جمهرة من الناس راح عددها يزداد انطلاقاً من تلك المجموعة
الصغيرة التي تحلقت امام المنزل الذي غادره نحو الحرب.
وقد استطاع شفيك ان يرى ان رجال الشرطة الواقفين عند تقاطع
الطرق كانوا يضربون له التحية.



في ساحة فنتسيسلاس كانت الجماهرة حول كرسي شفيك ذي العجلات قد كبرت لتصبح عدة مئات من الناس، وعند زاوية شارع كراكوفسكا ضربوا طالبا يرتدي قبعة المانية صاح مخاطبا شفيك بالالمانية:

«هايل يسقط الصربون!».

وفي زاوية شارع فوديتشكوف تدخل فرسان الشرطة وفرقوا الحشد. وحين اظهر شفيك لمفتش الشرطة المسؤول عن المنطقة ان عليه أن يظهر اليوم بالذات امام هيئة استدعاء الاحتياط، شعر الاخير بخيبة الرجاء. وحتى يخفف من الاضطرابات الى أدنى حد ممكن، جعل فارسين من الشرطة يواكبان كرسي شفيك ذا العجلات طوال الطريق حتى سترجيليكي اوستروف.

وقد ظهرت المقالة التالية حول هذه الحادثة في صحيفة «أخبار براغ الرسمية» تحت عنوان:

«وطنية مقعد»

«بعد ظهر البارحة كان المارون في الشوارع الرئيسية لبراغ شهوداً على حادثة هي بيان بليغ يدل على حقيقة انه في هذه الساعات الحاسمة والعظيمة يستطيع ابناء أمتنا أن يقدموا أروع الامثلة على الاخلاص والتفاني لعرش الملك الهرم. ان ذلك يعيدنا الى ايام الاغريق والرومان حين ذهب ميوكيوس سكايفولا الى الحرب رغم ذراعه المحروقة. لقد تم التعبير عن اقدس المشاعر والعواطف البارحة من قبل مقعد على عكازين كانت تدفعه في كرسيه ذي العجلات أمه العجوز. ابن الشعب التشيكي هذا، بعفوية، وبتجاهل لعلته، يذهب الى الحرب ليضحى بحياته وممتلكاته في سبيل امبراطوره. هذا وان كانت صيحته: «إلى بلغراد!» قد لاقت مثل هذا الصدى الحيوي في شوارع براغ، فهذا يبرهن على الامثلة التي يقتدى بها عن حب الوطن والبيت الامبراطوري والتي يمكن ان يقدمها شعب براغ».

هذا وكتبت صحيفة «براغرتاغلالات» بهذا النفس بالذات وانتهت مقالها بالقول ان المتطوع المقعد كان برفقة جمهرة من الألمان الذين حموه بأجسادهم من ان يعدمه دون محاكمة عملاء «الحلف» من التشيكيين.

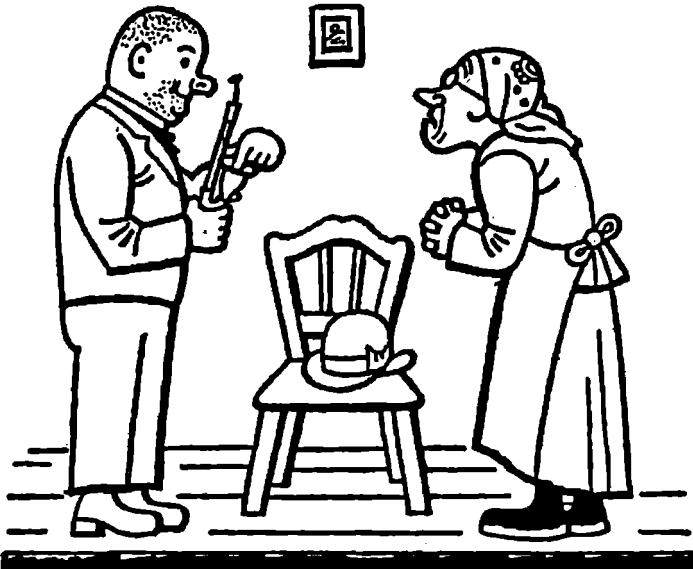
أما صحيفة «بوهيمي» فقد نشرت التقرير نفسه وحثت على مكافأة المقعد الوطني المشاعر على نحو لائق. وقد اعلنت انها مستعدة في مكاتبها لاستلام هدايا من المواطنين الالمان للبطل المجهول.

وان كانت الأراضي التشيكية لا تستطيع ان تنجب مواطنا أنبل من هذا، وذلك في رأي هذه الصحف الثلاث، فهذا لم يكن رأي السادة اعضاء هيئة استدعاء الاحتياط، وبالتأكيد ليس ايضا رأي الطبيب العسكري «باوتسه»، وهو شخص قاسي القلب تماما كان يرى في كل شيء محاولة اجرامية للتهرب من الخدمة العسكرية والجلبة والطلقات والشظايا.

كانت الملاحظة اليومية لهذا الالمانى مشهورة جداً:

«الشعب التشيكي كله مجرد مجموعة من المتمارضين».

وخلال الأسابيع العشرة التي مارس فيها نشاطاته تبين ان من بين (11) ألف مواطن هناك (10999) متمارضاً، وكان على وشك ان يتمم الرقم الى



(11000) لولا ان هذا الشخص التعيس مات بنوبة قلبية وذلك في اللحظة التي صاح فيه الطبيب «إلى الوراء درا!».

قال باوتسه بعد ان تأكد من ان الرجل قد مات: «خذوا هذا المتمرض بعيداً!».

وفي ذلك اليوم المشهود كان شفيك هو من وقف امامه. وقد كان كالاخرين عارياً تماماً فستر عورته بالعكازين اللذين كان يتوكأ عليهما.
قال باوتسه بالألمانية:

- هذه ورقة تين رائعة بالفعل. لم تكن في الجنة أية أوراق تين من هذا النوع.

قال الرقيب الأول وهو ينظر إلى الوثائق الرسمية:

- لديه شهادة بأنه غير ملائم للخدمة اطلاقاً بسبب العته المطلق.

سأله باوتسه:

- وما بك أيضاً غير ذلك؟

قال شفيك بتواضع:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي إني مصاب بالروماتيزم، ولكني سأخدم صاحب الجلالة الامبراطورية حتى آخر قطرة في دمي. ان ركبتني متورمتان.

نظر باوتسه إلى الجندي الطيب شفيك نظرة تجمد الدم في العروق وزمجر بالألمانية: «أنت متمرض!» ثم التفت نحو الرقيب الأول وقال بهدوء ثلجي: «ضع هذا النفل في السجن فوراً».

اصطحب جنديان مسلحان بالحراش شفيك إلى سجن الموقع.

سار شفيك على عكازيه ولاحظ برعب ان الروماتيزم كان قد بدأ بالاختفاء.

كانت السيدة مولر ما زالت تنتظر شفيك ومعها الكرسي ذو العجلات

عند الجسر، ولكنها حين شاهدته مخفوراً انفجرت باكية وابتعدت عن الكرسي دون ان تعود إليه ثانية.

وقد سار الجندي الطيب شفيك بتواضع تحت حراسة حارسه المسلحين التابعين للدولة.

كانت حربتهما تلتمعان تحت نور الشمس وعند «مالسترانا» قبل النصب التذكاري لـ«رادتسكي» التفت شفيك نحو الجمهور الذي كان يتبعه وصاح:

«إلى بلغراد! إلى بلغراد!».

وقد نظر «المارشال رادتسكي» على نحو حالم من نصبه التذكاري نحو الجندي الطيب شفيك الذي اختفى ببطء مبتعداً وزهور المجند في عروته وقد راح يظلع على عكازيه القديمين.

في هذه الاثناء قال سيد جليل الهيئة للحشد الذي تجمهر في المكان إن هذا الذي يسير مخفوراً رجل من «الخارجين عن الكنيسة».



شفاك المتبارض

في تلك الأزمان العظيمة كان أطباء الجيش يبذلون قصارى جهدهم لإخراج شيطان التخريب من المتمارضين واعادتهم الى حضن الجيش. وقد تمت ممارسة عدة درجات من التعذيب على المتمارضين والمشتبه بأنهم متمارضون، كالمصابين بالسل والروماتيزم والفتاق وأمراض الكلية والتيفوس والسكري وذات الرئة والأمراض الأخرى. وكانت أصناف التعذيب التي تمارس على المتمارضين منظمة وممنهجة، وكانت درجاتها كما يلي:

1- الحمية المشددة، فنجان شاي كل صباح ومساء لمدة ثلاثة ايام، وخلال هذه الفترة وبغض النظر عما يشكون منه، يعطى المتمارضون أقراص الاسبرين حتى يتعرقوا.

2- لضمان ألا يفكروا بأن الحرب عبارة عن جعة ولعبة القناني، يعطى المتمارضون وبجرعات سخية مسحوق الكينين، وهو ما يسمى: «الجلد بالكينين».

3- يتم غسل المعدة مرتين باليوم وذلك بالماء الدافئ.

4- يتم حقن المتمارض بحقنة شرجية فيها ماء الصابون والغليسرين.

5- يلف المريض بشرشف مشبع بالماء البارد.

وقد كان هناك أشخاص شجعان تحملوا الدرجات الخمس كلها من التعذيب وسمحوا لأنفسهم بأن يحملوا الى المقبرة العسكرية في تابوت بسيط. ولكن هناك ايضا رجال جناء صرحوا حين وصلوا الى مرحلة الحقنة الشرجية بأنهم قد تعافوا ولا يرغبون بأي شيء آخر سوى الذهاب الى الخنادق مع أول كتبية تسير الى القتال.

وفي سجن الحامية وضع شفيك في كوخ المصح بين المتمارضين الجبناء من هذا النوع بالذات.

قال له جراه في السرير المجاور بعد ان جلب من غرفة الاستشارة وقد غسلت معدته للمرة الثانية عن طريق الضخ:

- لم أعد احتمل اكثر من ذلك.

وكان هذا الشخص يدعي قصر النظر.

قال الجار الآخر القابع الى اليسار والذي كان قد اعطي حقنة شرجية

للتو ويدعي الصمم:

- غدا سألتحق بالفوج.

وفي السرير المجاور للباب كان مسلول قد لف بشرشف مشبع بالماء

البارد يحتضر ببطء.

قال الجار الذي الى اليمين:

- هذا هو الثالث في هذا الاسبوع. وممّ تشكو أنت؟

اجاب شفيك:

- لديّ روماتيزم.

وما إن قال ذلك حتى دوت فهقهة من القلب من كل الموجودين. وحتى

المسلول المحتضر الذي كان يتظاهر بأنه مصاب بالسل الرئوي شارك بالقهقهة.

قال رجل بدين محذراً شفيك برزانة:

- إياك ان تحاول التسلق الى هنا بالروماتيزم. لا يعني الروماتيزم هنا اكثر مما يعنيه التقرح في اليدين. أنا أعاني من فقر الدم ولدي نصف معدة فقط كما فقدت خمسة من اضلاعي، ولكن لا أحد يصدقني. لقد كان لدينا شخص هنا يعاني من الصم والبكم حتى. وقد ظلوا يلفونه لمدة اسبوعين، وكل نصف ساعة، في شرف بارد مبلول، ويعطونه حقنة شرجية ويغسلون له معدته. وقد ظننت معظم الممرضات انه نجح في تمارضه وانه سيعود الى بيته، حين وصف له الطبيب فجأة دواء مقيئا. وبما انه كان يمكن لذلك الدواء ان يمزقه الى نصفين، فقد خاتته شجاعته وقال: «لا استطيع ان اتابع الادعاء بأنني أصم أبكم. لقد عاد إليّ نطقي وسمعي». وقد حثه معظم المرضى على ألا يدمر نفسه ولكنه أصر على انه يستطيع ان يسمع ويتكلم مثل كل الناس.

ثم قال هذا الكلام للطبيب خلال جولته في صباح اليوم التالي.

قال أحد الرجال الذي كان يدعي بأن احدى ساقيه اقصر من الأخرى بأربع بوصات:

- لقد صمد فترة طويلة. ليس شأن ذلك الشاب الذي تظاهر انه مصاب بالسكتة. كل ما كان عليهم ان يفعلوه كان اعطاؤه ثلاث جرعات من الكينين وحقنة شرجية واحدة وصيام يوم واحد، فما كان منه سوى ان اعترف. وحين بدأوا يغسلون معدته لم يتبق أي أثر للسكتة التي كان يتظاهر بالاصابة بها. كان الشخص الذي ضرب الرقم القياسي في الصمود هو ذلك الذي سبق ان عضه كلب مسعور. كان يعض ويعوي - والحق يقال انه كان يفعل ذلك على نحو رائع: ولكنه لم ينجح في ان يجعل فمه يزيد. وقد بذلنا قصارى جهدنا لمساعدته وقمنا مرات عديدة بدغدغته لمدة ساعة كاملة قبل زيارة الطبيب حتى يصاب بالتشنجات ويزرق جسمه كله، ولكن الزيد

ما كان ليخرج من فمه بل هو لم يخرج اطلاقاً. وكان ذلك مرعباً بالفعل. وحين استسلم في صباح أحد الايام خلال جولة الطبيب كنا جميعاً آسفين لاجله. لقد وقف قرب سرير منتصباً كشمعة ثم حيا وقال: «أبلغكم بتواضع يا سيدي أن الكلب الذي عضني قد لا يكون مسعوراً على الاطلاق». وقد نظر إليه الطبيب نظرة مريبة الى حد راحت ترتجف معه أعضاؤه كلها فقال: «أبلغكم بتواضع يا سيدي انه لم يعضني اي كلب اطلاقاً. لقد عضت نفسي من ذراعي». وقد حققوا معه بعد هذا الاعتراف بتهمة تشويه الذات حتى لا يذهب الى الجبهة.

قال المتمارض البدين:

- كل تلك الانواع من الامراض التي تضطر فيها الى ان تجعل فمك يزيد صعوبة، على الادعاء. خذ مثلاً على ذلك الصرع. لقد كان لدينا شخص هنا يدعي انه مصاب بالصرع وقد اعتاد ان يخبرنا ان نوبة واحدة لا تكفي ولذا كان يتظاهر بالاصابة بعشر منها كل يوم. كان يتلوى متشنجاً ويطبق على كفيه ويقلب عينيه بجنون ويرمي بنفسه على الأرض ويخرج لسانه، وباختصار أقول لك انه كان صرعاً ممتازاً من الصنف الأول، وأشبه ما يكون بالشيء الحقيقي. ولكن ظهرت له فجأة بثور على جسمه، اثنتان على العنق واثنتان على مؤخرته، وقد انتهت عندها كل تلوياته وارتماؤه على الأرض، حيث ما عاد يستطيع ان يحرك رأسه وما عاد قادراً على الجلوس ولا على التمدد على الأرض. ثم اصابته الحمى وخلال الهذيان اعترف بكل شيء خلال جولة الطبيب. وقد أزعجنا كثيراً بسبب بثوره، لأنه كان مضطراً للبقاء هنا ثلاثة ايام اخرى معنا ونال نوعاً آخر من الوجبات: القهوة والخبز في الصباح والحساء والزلاية وصلصة مرق اللحم للغداء، والثريد او الحساء في المساء. وكان علينا بمعداتنا الجائعة المغسولة والحمية المشددة ان نراقب هذا الشخص يلتهم الطعام، ويمص شفتيه، ويلهث ويتجشأ من الامتلاء.

وبهذه الطريقة فقد حطم معنويات ثلاثة آخرين اعترفوا بتمارضهم ايضاً.

قال أحد المتمارضين الذين كانوا يعانون من أمراض قلبية: «افضل ما يمكن للمرء ان يدعيه هو الجنون. هناك اثنان من المعلمين متمدان في الجناح التالي، واحدهما يصرخ باستمرار ليل نهار: «لا زالت منصة اعدام جيوردانو برونو⁽¹⁾ تدخن. اعيدوا محاكمة غاليليو⁽²⁾». اما الآخر فيعوي، او لا ثلاث مرات ببطء: عو- واو- واو ثم خمس مرات سريعة متتالية: عو واو واو واو واو، ثم مرة اخرى ببطء، وهكذا دواليك دون توقف. وقد استطاع الصمود منذ ثلاثة اسابيع وحتى الآن. وفي الاصل أردت أن اكون مجنوناً أنا ايضاً وادعي اني مصاب بمس ديني، ثم اعطى حول موضوع معصومية البابا عن الخطأ، ولكنني قررت في النهاية أنا أدعي إصابتي بسرطان المعدة وتعلمت ذلك من حلاق في «مالسترانا» لقاء خمسة عشر كراونا.

قال مريض آخر:

- اعرف منظف مداخن في برجيفنوف وهو مستعد مقابل عشرة كراونات ان يجعلك تصاب بالحمى الى حد تقفز معه من النافذة.

قال آخر:

- هذا لا شيء. في فرشوفيتسه قابلة مستعدة ان تخلع ساقك لقاء عشرين كراونا، بحيث تبقى أعرج طوال حياتك.

جاء صوت من صف الأسرة قرب النافذة يقول:

- لقد خلعت لي ساقني لقاء عشرة كراونات. عشرة كراونات وثلاث

كوؤوس من الجعة.

(1) برونو جيوردانو (1548 - 1600) فيلسوف وعالم فلكي ايطالي اعدم حرقاً بالنار. (المترجم).

(2) غاليليو (1564 - 1642) عالم الفلك الايطالي الشهير الذي أيد نظرية كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس وحوكم من قبل محاكم التفتيش. (المترجم).

ثم أعلن جاره وهو شخص ناعل أعجف:

- لقد كلفتني علتني اكثر من مثني كراون حتى الآن. هل تستطيعون ان تسموالي سما لم اتجرعه بعد؟ لن تجدوا مثل هذا الاسم. أنا مستودع حيّ للسموم من كل الأصناف. لقد تناولت كلوريد الزئبق وتنشقت بخار الزئبق ومضغت الزرنيخ ودخنت الأفيون وشربت صبغة الأفيون ونشرت المورفين علي خبزي وابتلعت الستريكنين، كما تجرعت محلول الفوسفور في كبريتيد الفحم وحامض البكريك. لقد ذمرت كبدي ورثتي وكليتي ومرارتي ودماعي وقلبي وامعائي. لا احد يعرف نوع المرض الذي اعاني منه.

قال شخص آخر قرب الباب:

- أفضل شيء يمكنك ان تفعله هو ان تحقن الكاز تحت جلد ذراعك. لقد كان ابن عمي محظوظا الى درجة انهم قطعوا له ذراعه من تحت المرفق ولم يعد يعاني من اية مشكلة الآن حتى نهاية الحرب.

قال شفيك:

- اذن كما ترون فإن على كل شخص ان يمر بكل ذلك من اجل صاحب الجلالة الامبراطورية: حتى غسيل المعدة والحقن الشرجية. حين خدمت منذ سنوات في فوجي كان الأمر اسوأ حتى. في تلك الايام كان من عادتهم ان يوثقوا المريض ثم يلقي به في حفرة حتى يتعافى. لم تكن هناك أسرة كما يوجد هنا ولا حتى مباصق. كان هناك سرير خشبي عار وكان المرضى يتمددون عليه. في احدى المرات كان هناك مريض مصاب بالتيفوس حقا. وكان الآخر المجاور له مصابا بالجدرى. هذا وقد كانا موثقين كليهما، كما قام طبيب الفوج برفسهما في المعدة بحجة انهما ممرضان. وحين مات هذان الجنديان كلاهما اثير الأمر في البرلمان ونشرته الصحف. وقد منعونا فورا من قراءة تلك الصحف وراحوا يفتشون صناديقنا بحثا عنها.

وبما ان حظي كان سيئا باستمرار، فقد كنت الوحيد في الفوج الذي وجدوا تلك الصحف عنده. وهكذا اعتقلت في سجن الفوج وراح عقيدنا الذي كان احمق لعينا - اعانه الله - يمزج صائحاً في طالبا مني أن اقف باستعداد وان اقول له من كتب ذلك الخبر في الصحيفة او انه سيحطم فكيّ ويجسني حتى يسود وجهي. ثم وصل طبيب الفوج وراح يلوح بقبضته في وجهي ويصرخ بالالمانية: «أيها الكلب القدر، ايها الاجرب الحقير، ايها الروث البائس، ايها اللوطي الاشتراكي!» وقد نظرت إليهم جميعا بثبات في عيونهم دون ان يرف لي جفن، وحافظت على هدوئي، بينما يدي اليمنى على قبعتي ويسراي على درزة بنطالي. وقد ركضوا من حولي كالكلاب ونبحوا عليّ، ولكني لم أفعل شيئا. بقيت صامتا محيا ويسراي على درزة بنطالي. وبعد أن استمروا في هذه الثورة مدة نصف ساعة تقريبا، اندفع نحوي العقيد وزمجر: «أنت احمق ام لا؟». ابلغكم بتواضع يا سيدي انني أحمق».

«حسنا واحد وعشرون يوما في الحبس المشدد بسبب الغباء، يومان في الأسبوع صيام، وشهر من الحبس في الثكنة، ثمانية وأربعون ساعة في الأغلال، توقيف فوري، لا تدعوه يأكل، اوثقوه، وأوضحوا له ان الملكية لا تحتاج الى حمقى. سنقوم بجلدك حتى تخرج تك الصحف من رأسك، يا ابن الزنا». كان هذا هو ما قرره العقيد بعد أن تقافز في أرجاء المكان لفترة طويلة. ولكن بينما كنت اقصي فترة الحبس حدثت معجزات خارقة في الثكنة. لقد حرم عقيدنا على الجنود مطالعة اي شيء اطلاقا، حتى صحيفة «أخبار براغ الرسمية». وفي الكافتريات لم يكن مسموحا استعمال الصحف للفق المقاتل من نوع فرانكفورتر وقطع الجبنة. ومنذ ذلك الحين شرع الجنود جميعاً في القراءة وأصبح فوجنا اكثر الوحدات ثقافة. كنا نقرأ الصحف كافة، وقد راح الجنود في كل سرية يولفون الأشعار المقفاة والأغاني في هجاء عقيدنا. وكلما حدث اي شيء في الفوج كنت تجد على

الدوام متبرعا جماهيريا على استعداد لارساله الى الصحف تحت عنوان: «سوء معاملة الجنود». ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يكتبون الى النواب البرلمانين في فيينا طالبين منهم تبني قضيتهم، وبدأ النواب في استجواب وزير الحربية قائلين إن عقيدنا وحش او ماشابه. وقد ارسل هذا الوزير لجنة إلينا للتحقيق في هذه القضية، وقد نال «فرانتا هنتشل» من «هلوبوكا» سستي حبس كعقوبة له حيث تبين انه هو الشخص الذي اوصل القضية الى النواب في فيينا، وذلك بسبب اللكمة التي تلقاها على حنكه من قبل العقيد وذلك في ساحة التدريب. وفيما بعد، وبعد ان رحلت اللجنة، امر العقيد ان يصطف أفراد الفوج كافة وقال لنا ان الجندي جندي وان عليه ان يغلق فمه ويؤدي واجبه، وإذا لم ينل شيء ما اعجابه ففي ذلك مخالفة للنظام. ثم قال العقيد: «وهكذا ظنتم يا اولاد الزنا اللعين ان اللجنة ستساعدكم، أليس كذلك؟ لقد ساعدوكم بالبرازا والآن ستمر كل سرية من امامي وتكرر بصوت مرتفع ما قلته للتو». وهكذا سرنا في مشية عسكرية نحو مكان وقوف العقيد، السرية تلو الاخرى، عيوننا في اتجاه اليمين وأيدينا على حمالات بنادقنا، وهتفنا باتجاهه: «وهكذا ظننا نحن، نحن اولاد الزنا اللعين، أن اللجنة ستساعدنا أليس كذلك. لقد ساعدونا بالبرازا!» وقد راح العقيد يتلوى من الضحك حتى مرت السرية الحادية عشرة. وقد سار أفراد هذه السرية وضربوا الأرض بأقدامهم، ولكنهم حين وصلوا الى مكان العقيد لم يصدر عنهم اي صوت، اي صوت اطلاقا احمر وجه العقيد كأنه ديك رومي وجعل السرية الحادية عشرة تعود الى حيث كانت ثم تكرر العملية مرة اخرى. وقد سار أفرادها مرة اخرى في صمت وكان كل رتل منها يحدق في عيني العقيد بوقاحة. «استرح»، هكذا صاح العقيد ثم راح يذرع الساحة جيئة وذهاباً وهو يضرب جزمته بسوط ركوبه ويصق في ارجاء المكان. ثم توقف فجأة وزمجر: «انصراف». وبعدها ركب على فرسه العجوز وانطلق خارجا من البوابة. وانتظرنا ما الذي سيحدث للسرية

الحادية عشرة، ولكن لم يحدث شيء. انتظرنا يوماً، ثم يوماً آخر ثم اسبوعاً بكامله، ولم يحدث أي شيء. ولم يعد العقيد إلى الظهور في الشكنة اطلاقاً، وهذا مما جعل الجنود وضباط الصف والضباط في حالة من الفرح. وبعد ذلك وصلنا عقيد جديد وقد سرت شائعة مفادها ان العقيد السابق قد ادخل الى مصح للأمراض العقلية لأنه كتب رسالة الى صاحب الجلالة الامبراطورية يعلمه فيها بأن السرية الحادية عشرة قد تمردت على الأوامر. كان قد حان موعد جولة الطبيب التي يقوم بها بعد الظهر، وقد سار الدكتور غرونشتاين من سرير الى آخر يتبعه ضابط الخدمة الليلية حاملاً دفتره.

- «ماكونا»؟

- حاضر

- حقنة شرجية وأسبرين! «بوركورني»؟

- حاضر!

- غسيل معدة وكينين! «كوفارجيك»؟

- حاضر!

- حقنة شرجية وأسبرين! «كوتا أتكو»؟

- حاضر!

- غسيل معدة وكينين!

وهكذا سارت الأمور، المريض إثر الآخر، دون رحمة، آلياً، وبسرعة.

- «شفيك»؟

- حاضر!

نظر الدكتور غرونشتاين الى الكسب الجديد.

- ما حكايتك؟

- أبلغكم بتواضع أني مصاب بالروماتيزم.

خلال ممارسته لمهنة الطب اعتاد الدكتور غرونشتاين ان يكون تهكميا على نحو لطيف، وكان هذا اكثر تأثيراً من الصراخ.
قال لشفيك:

- آه، الروماتيزم. لا شك أن مرضك خطير جدا. يالها من صدفة حقيقية ان تصاب بالروماتيزم في الوقت ذاته الذي تجري فيه حرب عالمية، وعليك ان تذهب الى الجبهة. لا شك انك آسف جدا لذلك.
- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني آسف جداً.

- حسناً، إليكم هذا الرجل! إنه آسف جداً. لطيف منك جدا انك رغم الروماتيزم لم تنسنا في هذه اللحظة بالذات. في وقت السلم يتقافز رجل مسكين مثله كالجدّي، ولكن ما ان تنشب الحرب حتى يصيبه الروماتيزم فوراً ولا تعود ركبتاه قادرتين على الحركة فجأة. افترض ان ركبتيك تؤلمانك، أليس كذلك؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنهما تؤلمانني.

- وأنت لا يغمض لك جفن طوال الليل، أليس كذلك؟ الروماتيزم مرض خطير ومؤلّم ومميت الى أبعد الحدود. ان لدينا تجربة واسعة بالروماتيزم هنا. لقد اثبتت الحمية المشددة ومعالجة أخرى خاصة بنا، فعاليتهما الكبيرة. هنا مستشفى أسرع مما يحدث في «بيشيت آني (١)» وسوف تسير الى الجبهة بسرعة البرق المشحم.

ثم التفت نحو ضابط الخدمة الطبية وقال:

- دوّن عندك ما يلي: شفيك: حمية مشددة، غسيل معدة مرتين يوميا، حقنة شرجية مرة واحدة في اليوم، وسنرى كيف ستسير الامور لاحقا. أما

(1) منتج شهير في سلوفاكيا لمعالجة الروماتيزم (س.ب).

الآن فخذة الى غرفة المعايينة واغسل له معدته، وحين يصحو، اعطه حقنة شرجية، واقصد حقنة حقيقية وممتازة، حتى يصيح صياح المجانين فيخاف روماتيزمه ويهرب بعيداً.

ثم قال الطبيب وهو يلتفت نحو الأسرة بالقاء خطاب فخم وموجه الى الجميع مترع بالحكم العقلانية الأخلاقية:

- لا تصوروا اني مجرد احمق لعين يصدق كل حيلكم. ان حيلكم لا تنطلي عليّ أبداً. اعرف انكم جميعا متمارضون وانكم تريدون التهرب من الحرب. وسأعاملكم على هذا الاساس. لقد مرّ عليّ مئات من امثالكم من الجنود. لقد تمددت على هذه الأسرة جماهير غفيرة لم تكن تعاني من اي شيء اللهم الا الجبن. وبينما كان رفاقهم يقاتلون على أرض المعركة فقد ظنوا انهم سيتكاسلون في الأسرة ويحصلون على وجبات المستشفى ويتنظرون حتى تنتهي الحرب. ولكنهم اكتشفوا انهم ارتكبوا خطأ فادحاً، وجميعكم ستكتشفون ذلك ايضاً. وبعد عشرين عاما من الآن ستظلون تصرخون في نومكم حين تحلمون بمحاولتكم ان تمرروا حيلكم عليّ.

انطلق صوت لطيف من السرير المجاور للشباك قائلاً:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني قد تعافيت. لقد لاحظت خلال الليل ان الربو قد اختفى من صدري.

- ما اسمك؟

- كوفارجيك. ابلغكم بتواضع يا سيدي انه يتوجب عليّ ان آخذ حقنة شرجية.

- حسناً، ستحصل على الحقنة الشرجية من اجل الرحلة، وذلك حتى لا تشكو من اننا لم نمنحك العلاج هنا. والآن، فإن عليّ كل اصحاب الاسماء التي قرئت ان يصطفوا ويلبثوا بضابط الخدمة، حتى ينال كل شخص ما يستحقه. وهكذا حصل كل واحد منهم على جرعة جيدة مما وصف له. ولو ان

احدهم قد حاول ان يؤثر في منفذي الأوامر عن طريق الرجاء او التهديد بأنهم قد ينضمون أيضا بدورهم الى الفيلق الطبي، فإن شفيك تحمل كل شيء على الاقل بثبات ورباطة جأش.

قال شفيك للمرؤوس الذي كان ينفذ الأوامر بطاعة عمياء وهو يعطيه الحقنة الشرجية:

- لا ترحمني. تذكر قسمك. وحتى لو كان أبوك او اخوك هو الشخص المتمدد أمامك، اعطه الحقنة دون ان يرمش لك جفن. حاول ان تفكر بجدية بأن بقاء النمسا يعتمد على هذه الحقن الشرجية وأن النصر حليفنا.

خلال الجولة التي قام بها الدكتور غرونشتاين في اليوم سأل شفيك عن مدى استمتاعه بالاقامة في المستشفى العسكري.

اجاب شفيك بأنها مؤسسة عادلة سامية المبادئ. وقد تلقى كمكافأة على ذلك نفس ما ناله في اليوم السابق وزيادة عليه الاسبرين وثلاث جرعات من مسحوق الكينين التي اذيت في الماء حتى يستطيع ابتلاعها فوراً.

حتى سقراط لم يشرب طاس «الشوكران» السام بكل ذلك الهدوء الذي شرب به شفيك الكينين، وذلك حين كان الدكتور غرونشتاين يجرب عليه كل درجات التعذيب المختلفة.

وحين لفوا شفيك بالشرشف المبلول في حضور الطبيب كان جوابه على سؤال الطبيب ان كان ذلك يعجبه، كما يلي: «اببلغكم بتواضع يا سيدي ان هذا اشبه بالغطس في بركة سباحة قرب شاطئ البحر».

- ألا زلت تعاني من الروماتيزم؟

- اببلغكم بتواضع يا سيدي انه لا يريد ان يتحسن.

وهكذا تم تعريض شفيك لأنواع جديدة من التعذيب.

في تلك الأثناء كانت أرملة جنرال المشاة «البارونة فون بوتسنهايم»

تبذل قصارى جهدها لتجد ذلك الجندي الذي نشرت عنه صحيفة «بوهيمى» تقريراً مفاده أنه رغم كونه مقعداً، كان يدفع في كرسي ذي عجلات وهو يصيح: «إلى بلغراد!». وكان من شأن هذا التصريح المفعم بروح الوطنية ان دفع هيئة موظفي الصحيفة إلى ان تدعو قراءها الى تنظيم جمع التبرعات لمساعدة ذلك المقعد المخلص والبطولي.

وأخيراً، وبعد استفسارات لدى رئاسة الشرطة تم التأكد من ان الشخص المطلوب هو شفيك، وبعد ذلك كان من السهل البحث عنه. مضت البارونة فون بوتسنهايم الى «هراد تشاني» مصطحبة معها وصيفتها وخادمها وهو يحمل سبتا كبيراً.

لم يكن لدى البارونة المسكينة أية فكرة عما يعنيه وجود شخص ما في مستشفى سجن الحامية العسكرية. وقد فتحت بطاقة الزيارة الخاصة بها باب السجن أمامها، وكانوا في الديوان لطيفين جداً معها، وعرفت خلال خمس دقائق أن «الجندي الطيب شفيك»، الذي كانت تبحث عنه، ينام في الكوخ الثالث، في السرير رقم (17). وقد رافقها الدكتور غرونشتاين نفسه الذي كان مصعوقاً بهذه الزيارة.

كان شفيك جالساً للتو في فراشه بعد العملية اليومية المعتادة الموصوفة من قبل الدكتور غرونشتاين، تحيط به مجموعة من المتمارضين المهزولين المجموعين، الذين لم يستسلموا بعد ولا زالوا يناضلون بعناد ضد الدكتور غرونشتاين على ساحة وغى الحمية المشددة.

كان أي شخص يستمع إليهم يتلقى انطباعاً بأنه في صحبة مجموعة من الذواقين، في مدرسة مطبخ «الكوردون بلو» أو في دورة للذواقين.

في تلك اللحظة كان أحد المرضى من المصابين بـ «افراز معدي متواصل» يقول للآخرين:

- يمكنك حتى أن تأكل قشرة لحم الخنزير المحمّر الدهنية ان كانت لا

تزال دافئة. فحين تغلي القشرة تضغط عليها حتى تجف ثم تضيف إليها الملح والفلفل، واقول لكم انه حتى قشرة لحم الأوز المحمّر ليست من المستوى نفسه.

قال رجل مصاب بسرطان المعدة:

- دع قشرة لحم الأوز المحمّر وشأنها، فلا شيء يعادلها. لا يمكنك مقارنة لحم الخنزير المحمّر بها اطلاقاً. طبعاً عليك أولاً أن تقلبها حتى تصبح بنية اللون ذهبية، كما هو شأن اليهود: انهم يأخذون أوزة سمينة، ويكشطون دهنها مع جلدها ويقلونّه.

تدخل جار شفيك قائلاً:

- هل تعلمون انكم مخطئون تماماً فيما يخص قشرة لحم الخنزير المحمّر؟ طبعاً أنا اتحدث عن القشرة من دهن مصنوع في البيت، اي ما يسمى «القشرة البيتية». انها ليست بنية اللون وليست صفراء ايضاً. يجب أن تكون شيئاً بين هذين اللونين. لا يجب أن تكون القشرة طرية جداً ولا قاسية جداً. ولا يجب ان تقرش تحت الأسنان وإلا فإنها تكون مطبوخة زيادة عن اللزوم. بل يجب أن تذوب على اللسان، ولا يجب ان تشعر بأن الدهن يسيل على ذقنك.

صاح صوت جديد:

- من منكم اكل قشرة لحم الحصان المحمّر؟

ولكن لم يجبه أحد لأن ضابط الخدمة الطبية هرع في تلك اللحظة داخلاً من الباب وهو يقول: «الكل في الفراش. هناك ارشودقة قادمة إلى هنا. لا يجروء أحد منكم على اظهار ساقيه الوسختين خارج سريره».

وما كان يمكن حتى لارشودقة ان تدخل الجناح بكل ذلك الوقار الذي دخلت به البارونة فون بوتسنايم. وقد لحقت بها الحاشية كلها بل حتى الرقيب الأول أمين الامداد والتموين في المستشفى الذي رأى ان وراء كل

ذلك اليد السرية لـ «قسم ضبط الحسابات»، والتي كانت تتبعه على علفه المليء في القاعدة، وتسلمه الى رحمة الشظايا الرقيقة في مكان ما تحت المواقع المحاطة بالأسلاك الشائكة.

كان شاحب اللون، ولكن الدكتور غرونشتاين كان أكثر شحوبا. وأمام عينيه كانت تتراقص بطاقة الزيارة الخاصة بالبارونة بلقبها: «ارملة جنرال»، ويتراقص كل ما له علاقة بـ «الواسطة» والحماية والشكاوى والنقل الى الجبهة والأشياء المخيفة الأخرى.

قال وهو يحاول أن يحافظ على هدوء مصطنع ويقود البارونة فون بوتسهايم الى سرير شفيك:

- ها هو شفيك. انه يتصرف على نحو يتسم بجلد عظيم.

جلست البارونة فون بوتسهايم على الكرسي الذي احضر لها خصيصا الى القرب من سرير شفيك. وقالت بالتشيكية انما بلهجة ألمانية واضحة ومضحكة:

- أيها الجندي التشيكي، إليها الجندي الطيب، ايها الجندي المقعد، أيها الجندي الشجاع. أحب كثيرا النمساويين التشيكيين.

ثم ربتت وهي تقول ذلك على خدي شفيك غير الحليقين واستأنفت قائلة:

- لقد قرأت كل شيء في الصحف. جلبت لك طعاما لذيذا، شيئا للقضم وآخر للتدخين وثالث للمص يا أيها الجندي التشيكي، الجندي الطيب. يا يوهان! تعال الى هنا!

كان خادمها، ذو الشاربين الخديين اللذين يذكرانا بالقاتل الشهير «ياينسكي»، يجرب سبتا كبيرا نحو السرير، بينما جلست وصيفة البارونة العجوز، وهي سيدة طويلة القامة ذات وجه داعم، على سرير شفيك وسوّت له وسادة القش حتى يسند ظهره إليها مع الفكرة الثابتة في

رأسها بأن هذا ما يتوجب ان يفعله المرء لأجل الأبطال المرضى».

في هذه الاثناء كانت البارونة تخرج الهدايا من السبت: اثنتا عشرة دجاجة مشوية ملفوفة بورق حريري وردي اللون ومربوطة بشريط حريري ذي لونين أصفر وأسود، وزجاجتان من شراب الليكور الحربي وعليها لاصقة تقول بالالمانية: «ليعاقب الله أنكلترا». وعلى ظهر اللاصقة كانت صورة لفرانتس يوسف وفيلهم وهما متشابكا الأيدي وكأنهما على وشك ممارسة لعبة حجرة نوم الاطفال: «جلس الأرنب وحيدا في حجره. ايها الأرنب الصغير المسكين، ما الذي حدث لك فمنعك من القفز⁽¹⁾؟».

ثم أخرجت من السبت ثلاث زجاجات من النبيذ الذي يشربه عادة الناقهون من المرض وعلبتين من لفافات التبغ. وضعت السيدة كل ذلك بأناقة على السرير الفارغ الى القرب من سرير شفيك، كما وضعت ايضا كتابا مجلدا على نحو أنيق عنوانه: «قصص من حكايات مليكنا»، وهو من تأليف الرئيس الفاضل لهيئة تحرير صحيفة «جمهورية، تشيكوسلوفاكيا» الرسمية حالياً، والذي كان وقتها شغوفا بفرانتس العجوز، وكذلك ألواح الشوكولاته المكتوب عليها: «ليعاقب الله انكلترا»، وعليها ايضا صورة الامبراطورين النمساوي والالمانى. هنا على الشوكولاته لم يكن الامبراطوران متشابكي الأيدي، بل كان كل واحد منهما يعطي ظهره للآخر مهتما بشأنه الخاص. وكانت هناك ايضا فرشاة أسنان جميلة ذات صفيين من الشعر منقوش عليها باللاتينية عبارة: «بقوات متحدة⁽²⁾»، وبذلك فإن اي شخص ينظف أسنانه بها سيتذكر النمسا. كما كانت هناك هدية صغيرة أنيقة وشديدة الفائدة في الجبهة والخنادق، وهي عبارة عن مجموعة «مانيكور» لتدريب الأظافر وصبغها. وعلى هذه اللعبة كانت هناك صورة تظهر قذيفة تنفجر ورجلا في خوذة فولاذية يندفع نحو الأمام ممسكا بحريته بقوة. وقد

(1) لعبة يمارسها الاطفال التشيكيون. (س.ب).

(2) وهو شعار الامبراطور فرانس يوسف. (س.ب).

كتب عليها بالالمانية: «في سبيل الله والامبراطور والوطن». وكانت هناك
ايضا علبة بسكويت ليس عليها صورة بل قصيدة بالالمانية مع ترجمة لها
بالتشيكية على الظهر:

«أيتها النمسا، أيتها العائلة النبيلة،

فلتنتشر راياتك عريضة،

ولتحقق أعلامك بفخر عاليا.

النمسا لن تموت أبدا!»

أما الهدية الاخيرة فكانت عبارة عن زهر «المكحلة» في ابيض زهور.
وحين تم وضع هذا كله على السرير بعد أن فكت عنه اغلفته، لم تستطع
البارونة فون بوتسنهايم مغالبة دموعها من التأثر. كما شعر العديد من
المتمارضين المجوعين بأفواههم وهي تتعذب. قامت وصيفة البارونة
باسناد شفيك الجالس في سريره وبكت ايضا. ثم ساد صمت اشبه بصمت
القبور حطمه شفيك فجأة إذ قال ويدها متشابكتان للصلاة:



- أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك... اعذرني يا سيدتي الفاضلة، ليس هذا صحيحا. لقد عنيت ان اقول: إلهي يا أبتي السماوي، بارك لنا هذه النعمة لتتمتع بها ونشكرك على سخاء عطائك. آمين. وبعد أن قال هذا الكلام تناول دجاجة من على السرير وبدأ بالتهاهما والدكتور غرونشتاين يحدق به فرعاً.

همست البارونة العجوز بحماسة في أذن الدكتور غرونشتاين قائلة:

- آخ، انظر كيف يستمتع بها ذلك الجندي المسكين! لا شك انه عوفي من جديد ويمكنه الذهاب الى ساحة الوغى الآن. أنا سعيدة حقاً لأن هداياي قد نفعته الى هذا الحد.

ثم سارت من سرير الى آخر وهي توزع لفافات التبغ والكريمات بالشوكولاته. وحين عادت من جديد الى شفيك بعد جولتها، ربتت على شعره وقالت بالالمانية:

- لنكن جميعا في حماية الرب.

ثم خرجت من الباب مع حاشيتها بأكملها.

وقبل أن يتمكن الدكتور غرونشتاين من العودة من الطابق السفلي، حيث رافق البارونة حتى خرجت من المستشفى، كان شفيك قد وزع الدجاجات. وقد تم التهاهما من قبل المرضى بسرعة فائقة والى حد انه لم يجد سوى كومة من العظام المنهوشة حتى النظافة التامة، وكان الدجاجات سقطت حية في عش للنسور وكانت الشمس تضرب هذه العظام المنهوشة منذ أشهر عدة.

كما كانت زجاجتا الليكور الحربي وثلاث زجاجات من النبيذ قد اختفت كلها أيضا. كما ضاعت أيضا في معدات المرضى ألواح الشوكولاته وعلبة البسكويت. كان أحدهم قد شرب حتى زجاجة طلاء

الأظافر التي كانت ضمن مجموعة الهدايا وأكل معجون الأسنان الذي كان ضمن غلاف واحد مع فرشاة الأسنان.

حين عاد الدكتور غرونشتاين استأنف وضعية القتال وألقى عليهم خطابا مطولا. لقد عاد الى وضعه السابق الآن طالما أن الزوار قد رحلوا، كما اكدت له كومة العظام اعتقاده بأنهم كانوا جميعا غير قابلين للاصلاح.

انفجر قائلا:

- أيها الرجال، لو كان لديكم القليل من العقل لتركتم كل شيء دون أن تلمسوه ولقلتم لأنفسكم: «لو أكلنا كل شيء فلن يصدق الطيب أننا مرضى جداً». لقد قدمتم لي بأنفسكم البرهان على انكم لا تقدرون طيبي معكم. إني أغسل لكم معداتكم واعطيكم حقنا شرجية، واحاول أن أبقىكم على الحمية المشددة، وها أنتم تحشون معداتكم من جديد. هل تريدون أن تصابوا بالإسهال؟ أنتم مخطئون. فقبل أن تحاول معداتكم هضم كل ذلك سأغسلها لكم الى حد تذكرن معه هذا الغسل حتى يوم مياتكم وتحكون لأطفالكم كيف التهمتم مرة الدجاجات وأنختمتم أنفسكم بمآكل شهية اخرى مختلفة، وكيف انها لم تبق في معداتكم خمسة عشر دقيقة لأنها غسلت وهي بعد ساخنة. والآن، هيا اصطفوا جميعا الواحد خلف الآخر حتى لا تنسوا أنني لست أحقق مأفونا مثلكم، بل اذكى قليلاً منكم مجتمعين. وزيادة عليه فإني أعلمكم بأنني سأرسل غدا لجنة طبية لفحصكم حيث انكم قد اطلتم كثيرا بقاءكم هنا في حالة من الكسل والتبطل وأنتم لا تشكون من شيء في الحقيقة طالما استطعتم في خمس دقائق التهام كل ذلك الطعام كالخنازير وحشو معداتكم به الى حد الاختناق كما فعلتم للتو. واحد، اثنان، ثلاثة، امام سرا!

حين جاء دور شفيك نظر إليه الدكتور غرونشتاين ودفعته ذكرى الزيارة

الغامضة الى أن يسأله قائلاً:

- هل تعرف سعادتها؟

أجاب شفيك بهدوء:

- انها زوجة أبي. لقد تخلت عني صغيرا وها هي قد وجدتني أخيراً...
قال الدكتور غرونشتاين بتهديب:

- أعطوا شفيك حقنة شرجية اضافية لاحقا.

وفي المساء خيم الحزن على الأسرة. فقبل ساعات كانت معداتهم مملأى بمختلف الأطايب وها هم يتناولون الآن شايا خفيفا وكسرة من الخبز.

من النافذة كان يمكن سماع صوت «الرقم 21»:

- اتعرفون أيها الرجال اني افضل الدجاج المقلي على المشوي؟

فدمدم احدهم قائلا:

- عالجه بعلاج البطانية.

ولكنهم كانوا لا يقوون على فعل اي شيء بسبب الضعف الذي كانوا يشعرون به بعد تلك الوليمة غير الناجحة، فلم يتحرك اي واحد منهم.

وقد نفذ الدكتور غرونشتاين وعيده. ففي الصباح جاء عدد من الاطباء العسكريين من اللجنة الشهيرة.

هذا وقد سار هؤلاء برزانة بين صفوف الأسرة ولم يقولوا سوى: «مدوا ألسنتكم!» وقد مد شفيك لسانه خارجا الى حد أن وجهه اصبح ذا تكشيرة معتوهة واغمض عينيه نصف اغماضة:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه ليس لدي لسان اطول من هذا.

ثم جرت مناقشة ممتعة بين شفيك واللجنة. وقد أكد شفيك أنه تفوه بتلك الملاحظة حتى لا يظنوا انه كان يحاول أن يخفي لسانه عنهم.

وقد انقسم اعضاء اللجنة بحدة في استنتاجاتهم فيما يخص شفيك على اية حال.

فقد أصر نصفهم على ان شفيك عبارة عن «معتوه» بينما أصر النصف الآخر على أنه وغد يحاول ان يهزأ من الحرب.

هدر رئيس اللجنة في وجه شفيك قائلاً:

- ستكون معجزة لعينة اذا لم تتغلب عليك.

نظر شفيك الى أعضاء اللجنة كافة بذلك الهدوء الرباني الذي يتحلى به الاطفال.

اقرب منه كبير الاطباء وقال:

- اود ان اعرف أيها الخنزير فيم تفكر الآن؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لا افكر إطلاقاً.

زعم أحد أعضاء اللجنة وهو يقعقع بسيفه:

- يا رعد السماء! اذن فهو لا يفكر إطلاقاً. لماذا باسم الرب لا تفكر أيها الفيل

السيامي؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني لا افكر لأن ذلك محرّم على الجنود في

الخدمة. وحين كنت في الفوج الواحد والتسعين منذ سنوات خلت، اعتاد نقيينا

ان يقول لنا دائماً: «لا يجب على الجندي أن يفكر بنفسه، فإن رؤساءه يفعلون

ذلك بدلا عنه. ما أن يبدأ الجندي في التفكير لا يعود جندياً في الخدمة بل مدنيا

قدرا ووسخا. التفكير لا يقودكم الى اي مكان...»

قال رئيس اللجنة مقاطعاً شفيك وهو في حالة هياج:

- أغلق فمك. نعرف كل شيء عنك سلفاً. هذا الخنزير يظن اننا سنصدق انه

معتوه حقيقي. لست معتوها إطلاقاً يا شفيك. أنت مخادع، أنت ثعلب، أنت

وغد، أنت سفاح، أنت نغل وسخ، هل تفهم...؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني افهم.

- لقد سبق وقلت لك أن تغلق فمك، هل سمعت؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني قد سمعت أن عليّ أن اغلق فمي.

- يا رب السماء، اذن اغلقه! حين اعطيك أمراً فأنت تعرف جيداً جداً أن عليك أن تتوقف عن الكلام الهراء!
- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني اعرف أن عليّ ان اتوقف عن الكلام الهراء.

تبادل السادة العسكريون النظرات ثم استدعوا الرقيب الأول:

قال كبير الأطباء وهو يشير الى شفيك:

- خذ هذا الرجل الى الديوان وانتظر بلاغنا وتقريرنا. وفي مقر الحامية سيقومون باخراج كل هذا الهراء من رأسه. هذا الشخص في تمام صحته. انه يتظاهر فحسب ويحاول ان يتلفظ بكلام هراء حتى يسخر من رؤسائه. كما انه يظن انهم موجودون هنا لتسليته وأن الحرب كلها عبارة عن نكتة، عن مسألة لا تثير سوى الضحك. في مقر الحامية يا شفيك سيرونك ان الحرب ليست نزهة.

انطلق شفيك مع الرقيب الأول الى الديوان وفي طريقه عبر الساحة راح يدمدم لنفسه:

«كنت أظن دائماً

أن الحرب لهو ولعب.

أسبوع أو اثنان.

ثم إلى البيت أعود».

وبينما كان شفيك في الديوان راح ضابط الخدمة يصرخ في شفيك قائلاً ان اولاد الزنا من امثاله يجب ان يعدموا بالرصاص، وان اللجنة في الأجنحة التي في الطوابق العليا كانت تستخلص الاعترافات الموجزة من المتمارضين فلم ينجح من بين سبعين واحداً منهم سوى اثنين؛ احدهما كانت قذيفة قد اطاحت بساقه والآخر يعاني من تآكل عظام حقيقي.

كان هذان الاثنان هما الوحيدان اللذان لم يسمعا الكلمة الألمانية «سالم

مسلح». أما الآخرون بمن فيهم الثلاثة الذين كانوا يحتضرون من السل، فقد اعطوا شهادات بأنهم سالمون مسلحون وكما أن كبير الأطباء لم يفوت الفرصة لالقاء خطاب.

وقد كان خطابه موشحا بأشد أنواع القسم تنوعا، وكان مختصرا في مضمونه. فقد كانوا جميعا مجرد خنازير أو روث ولن يكونوا صالحين للعودة الى المجتمع البشري ولن يغفر لهم بعد الحرب محاولتهم الهروب من الخدمة العسكرية وتمارضهم إلا إذا قاتلوا بشجاعة في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية. ولكنه قال انه هو نفسه لا يعتقد بأن هذا سيحدث، و لا بد أن المشانق في انتظارهم جميعا .

سأل طبيب عسكري شاب، كانت روحه لا تزال نقية غير مفسدة، كبير الأطباء ان كان يسمح له بقول بضع كلمات هو ايضا. وقد تميز خطابه عن خطاب رئيسه بتفاؤله وسذاجته. وقد تحدث بالالمانية.

وقد أطال الشاب الحديث عن حقيقة ان كل مغادر للمستشفى ليلتحق بوحده العسكرية في الجبهة لا بد ان يكون فارسا وفاتحا. لقد كان على قناعة بأنهم سيكونون حاذقين في استعمال اسلحتهم في ساحة الوغى ونبيلين في كل افعالهم سواء كان ذلك في الحرب ام في الحياة الخاصة. سيكونون محاربين لا يهزمون، ويذكروننا بمجد «رادتسكي» و«الأمير يوجين سافوي». كما انهم سيروون بدمهم حقول مجد الامبراطورية الواسعة وينجزون بنجاح المهمة التي أوكلها القدر إليهم. وبالشجاعة الفائقة واحتقار الموت سيهجمون نحو الامام تحت البيارق التي مزقتها الرصاص الخاصة بأفواجهم باتجاه امجاد جديدة وانتصارات جديدة.

وفيما بعد قال كبير الأطباء في الممر لهذا الشاب الساذج: «يا زميلي العزيز استطيع ان اؤكد لك ان ما فعلته كان تبديدا للوقت فحتى رادتسكي او أمير سافوي ما كانا ليستطيعا أن يصنعا جنودا من اولئك الانغال. ولو تحدثت معهم كملاك او شيطان فالأمر سيان. انهم عصابة من اللصوص».

شفيك في سجن الحامية

بالنسبة للأشخاص غير الراغبين في الذهاب الى الجبهة كان سجن الحامية هو الملاذ الأخير. عرفت مرة معلما تحت التجربة كان مختصاً بالرياضيات ولا يحب ان يخدم في سلاح المدفعية ويطلق النار على الناس. وهكذا سرق ساعة يد احد الضباط فحبس في سجن الحامية. لقد فعل ذلك عن عمد. فالحرب لم تؤثر فيه ولا هي فتنته. إن اطلاق النار على العدو وقتل معلمي رياضيات بؤساء تحت التجربة من امثاله قابعين على الطرف الآخر من الجبهة، قد بدا له كنوع من الحماسة المطلقة.

قال لنفسه: «لا اريد ان يكرهني الناس لقسوتي». ثم سرق الساعة... في البداية فحسوا حالته العقلية، وحين قال انه يريد ان يثرى بسرعة، أرسلوه الى سجن الحامية، حيث كان محتجزا هناك الكثيرون من امثاله بسبب السرقة او الاحتيال، المثاليون منهم وغير المثاليين. كان هناك أناس رأوا في الحرب وسيلة لزيادة دخلهم، وهؤلاء هم أمناء الامدادات والتموين من الرقباء العاملين في القواعد أو في الجبهة، والذين كانوا مستعدين لكافة انواع العبث بمقادير الطعام والرواتب، كما كان هناك لصوص صغار اكثر شرفا بألف مرة من الأوغاد الذين ارسلوهم الى السجن. وكان هناك ايضا جنود محجوزون بسبب ارتكابهم مختلف

انواع المخالفات ذات الطابع العسكري، مثل التمرد على الأوامر ومحاولة العصيان أو الفرار. ثم هناك السجناء السياسيون وكانوا من صنف خاص: فقد كان ثمانون بالمئة منهم أبرياء تماما وأن كان يحكم على 99٪ منهم بعقوبات مختلفة.

كانت مؤسسة «مكتب ممثل النيابة العامة» بكاملها مؤسسة عظيمة. فلكل دولة على شفا الانهيار الساسي والاقتصادي والاخلاقي الكامل مثل هذه المؤسسة. ان جو السلطة والمجد الغابرين لا زال عالقا في قاعات محاكمها ورجال شرطتها ودركها ومجموعة مخبريها من المرتزقة.

في كل وحدة عسكرية كان للنمسا عيونها الذين يتجسسون على رفاقهم ممن يشاركونهم في أسرتههم خلال المسير نحو المعركة.

وزيادة عليه كان سجن الحامية يزود بالمواد من جهاز أمن الدولة، أو «السادة كليما وسلافيتشيك وشركاهما». وكانت الرقابة العسكرية تودع هنا محرري الرسائل المتبادلة بين الرجال في الجبهة وأولئك اليانسين الذين خلفهم هؤلاء وراءهم في البيوت. كما كان الدرك يحضرون الى هنا فلاحين بؤساء مسنين ومتقاعدین كانوا قد كتبوا رسائل الى الجبهة، وحكمت عليهم المحكمة العسكرية بالسجن مدة اثني عشر عاما كعقوبة على كلمات المواساة ووصفهم لحالة البؤس في البيوت.

ومن سجن هرادتشانى كان الطريق يمر ببريفنوف الى ساحة التدريب في موتول. وعلى طول هذا الطريق كان يمر موكب على رأسه رجل مخفور بقوة السلاح ويداه موثقتان تبعه عربة عليها تابوت. وفي سلطة التدريب كان يسمع الأمر الجاف المقتضب: «نار»، ثم يقرأ في كل الأفواج والكتائب علنا الأمر اليومي للفوج بأن شخصا آخر قد اعدم بسبب التمرد خلال استدعاء الاحتياط، كما وان زوجته التي لم تقو على فراقه قد ضربت بسيف النقيب.

وفي سجن الحامية كان الثالث المؤلف من: كبير السجنين سلافيك، النقيب لينهارت والرقيب الأول «رجيبا» المعروف بـ«الجلاد»، يقوم بعمله على أفضل وجه! كم شخصا دفع هذا الى الحبس الانفرادي؟ ربما لا يزال النقيب لينهارت في جمهوريتنا الحالية نقيبا ايضا، وآمل من أجله شخصا ان تكون سنوات خدمته في سجن الحامية محسوبة ضمن راتبه التقاعدي. فهذه هي الحال بالنسبة لسلافيتشيك وكليما اللذين كانا يعملان لدى أمن الدولة. لقد عاد رجيبا الى الحياة المدنية واستأنف ممارسة مهنته كمعلم بناء وربما يكون الآن عضوا في احدى الجمعيات الوطنية في الجمهورية.

مع قيام الجمهورية أصبح كبير السجنين سلافيك لصاً وهو اليوم في السجن. لم استطع هذا الرجل المسكين أن يباشر عمله تحت علم الجمهورية براحة تامة كما فعل السادة العسكريون الآخرون.

* * *

من الطبيعي تماما ان يكون كبير السجنين سلافيك قد حذج شفيك بنظرة لوم صامته حين استلمه وكأنما أراد ان يقول له:

- اذن فأنت ذو سمعة ملطخة أيضا طالما أنك قد اوصلت نفسك الى هنا؟ حسنا يا حبي، سنجعل اقامتك هنا حلوة كما نفعل بكل من يقع بين أيدينا، وأنت تعرف ان أيدينا ليست من النوع النسائي.

وحتى يزيد من وزن نظراته فقد دفع بقبضته القوية السمينة تحت أنف شفيك وقال:

- لا احب ان تصيبي هذه في أنفي. ان لها رائحة المقبرة.

هذه الملاحظة الهادئة المدروسة اعجبت كبير السجنين.

قال وهو ينخس بقبضته معدة شفيك:

- هاي! قف في حالة الاستعداد! ما الذي معك في جيوبك؟ ان كانت



لغافات يمكنك تركها هنا. كما ان عليك ان تسلم نقودك حتى لا يسرقوها. أليس معك شيء آخر؟ هل تقسم بالله؟ لا تكذب عليّ الآن. ستعاقب ان كذبت.

سأل الرقيب الأول رجيباً:

- أين سنضعه؟

وقال كبير السجنانيين:

- في الرقم «16» بين اصحاب السراويل. ألا ترى ان النقيب لينهارت قد كتب على أوراقه: «للحراسة والمراقبة المشددة»؟
قال لشفيك برزانة:

- حسنا. الحشرات الطفيلية تعامل كحشرات طفيلية. وإذا ما تصرف احدهم عى نحو شنيع سنجره الى الحبس الانفرادي. وهناك سنحطم كل اضلاعه ونتركه حتى يصبح بحكم الميت. هذا من حقنا، اي كما فعلنا بذلك الجزار. ما قولك يا رجيباً؟

أجاب الرقيب الأول رجيباً بلهجة حاملة:

- نعم، لقد اتعبنا ذلك كثيراً! لقد دست عليه اكثر من خمس دقائق حتى بدأت اضلاعه تطلق وخرج الدم من فمه. وقد عاش بعدها عشرة ايام كاملة. لقد كان زبونا صلبا بالفعل.

قال كبير السجنانيين سلافيك وهو ينهي خطابه التعليمي:

- وهكذا ترى أيها النغل ما الذي يحدث هنا لأي شخص يبدأ بإثارة الاضطراب او يحاول الفرار. انه انتحار مطلق. وبالمناسبة، فإن الانتحار يعاقب عليه ايضا. فليساعدك الرب ايها البراز البائس إذا ما فكرت في ان تشتكي حين يأتي التفتيش. حين يكون هناك تفتيش ويسألونك: «هل هناك اية شكوى؟» فعليك ان تقف في حالة الاستعداد أيتها الحشرة التنتة وتقول

«أبلغكم بتواضع يا سيدي اني في منتهى الرضا». والآن قل لي أيها الاخرق القذر ما الذي ستقوله؟ كرّر ما قلته لك.

كرر شفيك:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني في منتهى الرضا.

وخلال ذلك كان هناك تعبير عذب على وجهه، عذب الى حد ان كبير السجنانين خدع به وظنه حماسة واخلاصا حقيقيين.

قال له بدمائه دون ان يضيف اي «براز» او «حشرة نتنة» او «اخرق قدر» كما يفعل عادة:

- والآن اخلع ملابسك ولا تبق عليك سوى السروال واذهب الى الرقم «16».

وفي الزنزانة رقم «16» واجه شفيك عشرين رجلا لا يرتدون سوى سراويلهم الداخلية فقط. وقد كانوا جميعا اشخاصا كتب على أوراقهم «للحراسة والمراقبة المشددة» وها هم الآن تحت المراقبة المشددة لكي لا يفروا.

ولو كانت تلك السراويل نظيفة ولم تكن هناك قضبان على النوافذ، لظننت من النظرة الاولى انك في حجرة الملابس في حمام عام.

سلم الرقيب الاول رجيبا شفيك الى «آمر الزنزانة»، وهو شخص شعراني فظ في قميص غير مزرر. وقد كتب هذا اسم شفيك على قطعة من الورق كانت معلقة على الجدار وقال له:

- غدا سيكون لدينا استعراض. سيأخذوننا الى الكنيسة لسماع موعظة. وسنقف جميعنا في سراويلنا تحت منبر الواعظ مباشرة. سيكون هناك الكثير من المرح.

كما في كل السجون والاصلاحيات فإن الكنيسة الصغيرة الملحقة

بسجن الحامية كانت ذات شعبية كبيرة ايضا. ولم يكن لذلك الحضور الاجباري علاقة بتقريب الرعية من الرب او ان السجناء كانوا يتعلمون المزيد فيما يخص الاخلاق. لم يكن هناك اي هراء من ذلك النوع.

كانت الصلوات والمواعظ نوعا من الاثارة الرائعة ضمن ملل سجن الحامية. لم تكن تلك مسألة تتعلق بالتقرب من الرب، بل الأمل في ان يجد السجناء في طريقهم عبر الممر او الساحة عقب سيجارة او سيجار. كان عقب سيجارة صغير مرمرى دون أمل في مبصقة او في مكان ما على الأرض، يسرق اهتمام الجميع فلا يعود الرب موجوداً في اي مكان. لقد كان هذا الشيء الصغير التتن يتفوق على الرب وعلى انقاذ الروح.

ثم تأتي فوق ذلك الموعظة، وهي نزهة من النوع النادر، فالقسيس واسمه «اوتو كاتس» كان رجلا محببا الى النفس بالفعل. وكانت مواعظه مثيرة ومسلية على نحو استثنائي وتخفف من ملل سجن الحامية. كان يمكنه ان يهذي على نحو جد جميل، عن النعمة الإلهية اللامتناهية، ويرقى بالسجناء المخدولين والرجال المخزيين. كان يمكنه ان يطلق تجديدات مدوية من المنبر والمذبح، ويستطيع ان يهدر به: «انتهى القداس» او «اذهبوا بسلام» على نحو رائع جدا في المذبح ويقود الصلاة كلها بطريقة مبتكرة الى حد كبير بحيث يقلب نظام القداس عاليه سافله. وحين يكون ثملا الى اقصى حد يخترع صلوات جديدة تماما وقداسا جديدا تماما، بل حتى طقوسا من ابتكاره من النوع الذي لم يسمع به أحد من قبل.

ثم يا لها من صرخة كان يطلقها احيانا اذ تزل به قدمه ويسقط وهو يحمل كأس القربان أو القربان المقدس او الكتاب المقدس، فهو يتهم بصوت عال مساعد الكاهن، وهو من وحدة السجن، بأنه قد اوقعه عن عمد فيأمر بحبسه في السجن الانفرادي او تكييله بالحديد قبل «العشاء الرباني» مباشرة.

ويكون المتلقي سعيدا لان ذلك جزء لا يتجزأ من كامل التمثيلية اليمائية

في كنيسة السجن. لقد كان يلعب دوراً أساسياً في التمثيلية ويؤدي بلاء حسناً فيها.

كان القسيس أوتو كاتس، وهو أكثر قساوسة الجيش كمالاً، يهودياً. وبالمناسبة فلا شيء غريب في هذا الموضوع، فالأسقف كوهين كان يهودياً وصديقاً لماخار⁽¹⁾ أيضاً.

كان للقسيس أوتو كاتس ماضٍ أكثر غنى وحيوية من الأسقف الشهير كوهين.

درس هذا القسيس في الأكاديمية التجارية وخدم في الجيش كمتطوع لعام واحد. وقد برع إلى حد كبير في الكمبيالات والحوالات والقوانين المتعلقة بها، حتى أنه وصل بشركة «كاتس وشركاه المحدودة» إلى أفلاس مجيد وناجح وإلى حد أن أباه ارتحل إلى أميركا الشمالية مؤسساً مستوطنة مجهولة بالنسبة إلى دائيته وشريكه الذي ذهب إلى الأرجنتين.

وهكذا فقد حدث بعد أن انعم أوتو الشاب على كلا الأميركيين، الشمالية والجنوبية، بشركة «كاتس وشركاه المحدودة» وبكل تلك اللامبالاة، وجد نفسه فجأة في وضع الشخص الذي لا أمل له في وراثة أي شيء، ولا مكان لديه يبيت فيه، وبالتالي فليس أمامه سوى الالتحاق بالجيش.

قبل ذلك كان أوتو كاتس قد توصل إلى فكرة جيدة جداً. لقد عمد نفسه والتفت إلى المسيح لمساعدته على إيجاد مهنة يتعيش منها. لقد تقدم بطلبه إليه وهو على ثقة تامة بأن ذلك كان عبارة عن صفقة تجارية بينه وبين ابن الرب.

(1) في بداية القرن العشرين دافع الشاعر التشيكي ماخار (1864-1942) عن الدكتور تيودور كوهين أسقف أولوموك ضد الهجمات التي شنت عليه بسبب أصوله اليهودية. (س.ب).

هذا وقد تم تعميده على نحو مهيب في «دير إماوس» في براغ، وقام الأب «ألبان⁽¹⁾» نفسه بتغطيسه في جرن المعمودية. وكان ذلك مشهدا عظيما حضره رائد متدين من الفوج الذي كان أوتو كاتس يخدم فيه، وخادمة عجوز من «مؤسسة السيدات النبيلات» على نهر، هراتشاني وممثل عريض المنكين من المجلس الكنسي لعب دور العراب.

كان الفحص الذي اجراه له الضباط ناجحا وبقي المسيحي المحدث اوتوكاتس في الجيش. وقد ظن في البداية ان اموره ستسير سيرا حسنا بل انه فكر حتى في الدخول في دورات المحترفين.

ولكنه سكر في احد الأيام فدخل الى احد الأديرة ليتخلى عن سيفه ويرتدي الغفارة. وقد استقبله الاسقف على نهر هراتشاني ونجح في الدخول الى معهد اللاهوت. وقبل وسامته ككاهن سكر حتى الثمالة في دار ذات سمعة محترمة جدا تخدم فيها السيدات في جادة تقع خلف «أوفيفودو»، وانطلق من دوامة الملذات والمتع الشهوانية ليوسم ككاهن. وبعد وسامته ككاهن ذهب الى فوجه ليحاول ان يطلب المساعدة لايجاد وظيفة. وبعد ان عين قسيسا اشترى جواداً وعبر به شوارع براغ وشارك بمرح في كل مباريات الشراب التي اقامها ضباط الفوج.

وفي ممر المنزل الذي كان يعيش فيه كانت لعنات الدائنين الغاضبين تسمع غالباً. كما انه كان يجلب الى المنزل عاهرات من الشوارع او يرسل وصيفه ليحلب له واحدة منهن. كان يحب لعبة «الفربل⁽²⁾»، كما كانت هناك عدة تكهنات وافتراضات بأنه كان يغش في اللعب ولكن لم يقبض عليه أحد وورقة الآس مخبأة في كم غفارته العريض. وفي دوائر الضباط كانوا يسمونه «الأب المقدس».

(1) وهو ألبان شاشلا يتز: راهب بنديكتي يقال انه هاجر لاحقا الى المانيا واصبح نازيا. (س.ب).

(2) لعبة ورق ممنوعة في النمسا. (س.ب).

لم يكن يحضّر مواعظه مسبقاً أبداً، وهو يختلف في ذلك عن سابقه الذي اعتاد أيضاً زيارة سجن الحامية. كانت تستحوذ على هذا الأخير فكرة واحدة تلخص في ان الرجال في سجن الحامية يمكن ان يتم اصلاحهم من منبر الوعظ. كان ذلك القسيس المبجل يقلب عينيه وهو يشرح للسجناء كيف انه يتوجب اصلاح العاهرات وتطوير الاهتمام بالأمهات غير المتزوجات، كما كان يبدي آراء بشأن تربية الاطفال غير الشرعيين. كانت مواعظه من النوع التجريدي الذي لا علاقة له اطلاقاً بالحياة الحاضرة ومملّة جداً.

أما القسيس اوتوكاتس فكان على العكس من ذلك، إذ كانت مواعظه من النوع الذي يترقبه الجميع.

كانت تلك لحظة مترعة بالمرح، لحظة ان قادوا أفراد «الزنازة» رقم «16» الى الكنيسة في سراويلهم، لان السماح لهم بارتداء ملابسهم كان يتضمن المخاطرة بمحاولتهم الهرب. وقد وضعوا هؤلاء الملائكة العشرين في السراويل البيضاء تحت المنبر مباشرة. كان بعضهم، ممن ابتسم له الحظ، يمضع عقب سيجارة وجده على الطريق، وهذا أمر طبيعي، فلم يكن لديهم جيوب يضعون فيه الأعقاب.

وحولهم وقفت بعثة نزلاء سجن الحامية وقد راح هؤلاء يحدقون باستمتاع الى الرجال العشرين في سراويلهم واقفين تحت منبر الوعظ. صعد القسيس الى أعلى المنبر وهو يصلصل بمهمازه.

صاح: - انتبه! فلنصل جميعاً، كرروا من بعدي ما سأقوله! وأنت في الخلف هناك، أنت ايها النغل، لا تشخر وتختبي وراء يديك! أنت في معبد الرب وسأحبسك لأجل ذلك. اتساءل ان لم تكونوا نسيتم صلاة الرب. أيها السذج البلهاء؟ حسناً، لنحاول: حسناً، كنت اعرف ان ذلك لن ينفع. ما الذي تعنيه لكم صلاة الرب بحق الجحيم؟ كل ما تكثرثون به هو حصتان

من اللحم وسلطة الفاصولياء، حشو بطونكم، الاضطجاع على مؤخراتكم فوق أسرتكم ونقر انوفكم دون اي تفكير في الرب. أليس هذا صحيحاً؟
 حدّق من أعلى المنبر بالملائكة العشرين في السراويل الذين كانوا يمتعون أنفسهم تماماً مثل الآخرين. في المؤخرة كان البعض يلعب لعبة «اللحم⁽¹⁾».
 همس شفيك في أذن جاره الذي كان متهما بأنه أمسك بقأس وقطع بها أصابع زميله كلها حتى يعفيه من الخدمة العسكرية، وذلك لقاء ثلاثة كزاونات فقط:

- هذا من الطراز الأول!

وكان الجواب:

- انتظر فحسب. ربما كان قد «زيتها» اليوم أيضاً. سيحدثنا مرة أخرى عن طريق الخطيئة الشائكة.

كان القسيس في مزاج رائع اليوم حقاً. فلم يكن هو نفسه يعرف سبب تصرفاته ولكنه كان يتدلى باستمرار من المنبر ويكاد يقع.

صاح بهم:

- غنوا شيئاً أيها الشباب، أم هل تريدون مني ان اغني لكم اغنية جديدة؟
 هيا غنوا معي:

«من بين سكان العالم جميعاً

أحب حبييتي أكثر من الجميع.

لست زائرها الوحيد

بل اقف في الصف مع البقية.

عشاقها لا يحصون.

(1) لعبة يمارسها الجنود حيث يعري أحدهم مؤخرته ويقوم الآخرون بضربه من الخلف. وإذا استطاع أن يحزر أيهم ضربه، يحل هذا محل المضروب. (س.ب).

والآن ألا تقولون لي اسمها رجاء؟

إنها مريم العذراء».

استأنف القسيس قائلاً:

- لن تتعلموها أبداً أيها الانغال. أود لو اعدمكم جميعاً رمياً بالرصاص، هل تفهمون؟ اقول ذلك من هذا المكان المقدس بيت الرب. أيها الأوغاد، لأن الرب شيء لا يخاف منكم وسوف يدخلكم الى جهنم. وذلك كله بسبب ترددكم في اللجوء الى المسيح وتفضيلكم السير في طريق الخطيئة الشائكة.

همس جار شفيك في أذنه باستمئاع:

- ها هو الآن مقبل على ذلك. ربما هو قد «زيتها» فعلاً.

- طريق الخطيئة الشائكة ايها الأغبياء اللعينون، هو طريق المعركة ضد الشر. أنتم الابناء المدللون الذين يفضلون التكاسل في السجن بدلا عن العودة الى صدر «أبيكم». ولكن ارفعوا أعينكم الى السماء عالياً وسوف تنتصرون وسيحل السلام في أرواحكم يا أولاد الأزقة. سيسرني ان يتوقف الشخص الذي في الخلف هناك عن الشخير. انه ليس حصاناً وهو ليس في اصطبل. انه في معبد الرب. اسمحوالي أن اقول لكم يا ذكور البط ما قلته. والآن، أين كنت يا ترى؟ أجل...

وهنا تابع بالألمانية فقال:

- بالنسبة للسلام الذي سيحل في أرواحكم... حسناً... تذكروا أيها القطيع أنكم بشر وأن عليكم أن تنظروا غير الغيوم السوداء الى الأجواء الواسعة وتعرفوا أن كل شيء هنا لا يدوم سوى لحظة واحدة بينما الرب باق الى الأبد. حسناً، أليس الأمر كذلك ايها السادة؟ يجب ان أصلي لأجلكم نهاراً وليلاً حتى يقوم الرب الرحيم - ايها الحمقى اللعينون - بنفخ روحه في قلوبكم الباردة ويغسل خطاياكم برحمته المقدسة حتى تكونوا له الى الأبد،

وحتى يحبيكم الى الأبد ايها الأوغاد. ولكنكم مخطئون هنا تماما. لن أقودكم الى الجنة.

وهنا «حوزق» القسيس وكرر بعناد:

- لا، لن أقودكم الى الجنة. لن افعل اي شيء من اجلكم. لن احلم بذلك حتى، لأنكم حثالة فاسدة. إن الطريق التي تسيرون عليها لن تهديكم الى رحمة الله ولن ينالكم فيها حبه، لأن الرب لن يحلم بأن تكون له اية علاقة بأشخاص مخادعين من امثالكم. هل تسمعون ما اقول؟ انتم في السراويل هناك؟

وأجاب عشرون زوجاً من السراويل بصوت واحد:

- نبلغكم بتواضع يا سيدي أننا نسمع.

تابع القسيس قائلاً:

- لا يكفي الاستماع. غيمة الحياة معتمة وابتسامه الرب لن تزيل أساكم ايتها القروذ اللعينة، فلطية الرب حدودها ايضا. وأنت لا تخنق نفسك ايها القليل التهذيب في الخلف هناك او انني سأحبسك حتى يسود وجهك! وأنت هناك في الأسفل لا تظن انك في حانة. الرب رحيم جداً، ولكن مع الناس الشرفاء فقط وليس مع حثالة المجتمع الإنساني التي لا تهتدي بقوانينه وأنظمة صلواته. هذا ما أردت أن أقوله لكم. أنتم لا تعرفون كيف تصلون، وتظنون ان الذهاب الى الكنيسة هو نوع من التسلية كالذهاب الى المسرح او السينما. ولكنني سأخرج هذا من رؤوسكم حتى لا تظنوا أنني هنا لأسليكم وأمتعكم. سأرسل كل واحد منكم الى الحبس الانفرادي، هذا ما سأفعله أيها اللوطيون. اني اضيع وقتي معكم دون طائل. وحتى لو كان الأسقف نفسه هنا او حتى الفيلد مارشال نفسه فلن ترتدعوا، ولن تنحنوا للرب. ولكنكم ستذكرون في يوم من الأيام على اية حال كيف حاولت أن انفعكم.

كان يمكن سماع نشيج بين السراويل العشرين. كان ذلك هو شفيك الذي انفجر باكيا.

نظر القسيس الى الأسفل، وكان شفيك واقفا هناك يفرك عينيه بقبضته، ومن حوله امارات التقدير المرححة.

قال القسيس مستأنفا كلامه وهو يشير الى شفيك:

- فليتخذ كل واحد منكم مثالا من هذا الرجل. ما الذي يفعله الآن؟ إنه يبكي. أقول لك لا تبك! هل تريد ان تنصلح؟ ليس سهلا عليك يا فتاي. أنت تبكي الآن ولكنك حين تعود الى زنزانتك ستكون نغلا كبيرا كالسابق. عليك ان تفكر كثيراً بالنعمة والرحمة اللامتناهيتين للرب. عليك أن تعمل بجد حتى تجد روحك الخاطئة الطريق الصحيح المتوجب اتباعه في هذا العالم. الآن رأينا رجلا يريد ان ينصلح ينفجر باكيا. ما الذي تفعله البقية الباقية منكم؟ لا شيء اطلاقا. هناك شخص يمضغ شيئا ما وكأن والديه كانا من الحيوانات المجتررة، وهناك أيضا أشخاص يبحثون عن القمل في قمصانهم في معبد الرب. ألا يمكنكم الحك في البيت؟ هل عليكم الاحتفاظ بذلك حتى تحين الصلاة المقدسة؟ وأنت يا كبير السجانين، أنت لا تلاحظ اي شيء اطلاقا. وعلى أية حال فأنتم جميعا جنود ولستم مجموعة من المدنيين الحمقى. عليكم أن تتصرفوا كما يليق بالجنود حتى في الكنيسة. من أجل المسيح استمروا في البحث عن الرب، واتركوا البحث عن القمل للبيت. هذا كل ما اقله يا اولاد الأزقة، وأطلب منكم أن تتصرفوا على نحو لائق في القديس. وحتى لا يحدث ما حدث في المرة الماضية حين كان الناس في الصفوف الخلفية يقاوضون كتان الحكومة بالخبز، ثم يلتهمونه خلال رفع خبز القربان.

نزل القسيس من على منبره ومضى نحو حجرة الاجتماعات في الكنيسة يتبعه كبير السجانين. بعد فترة خرج كبير السجانين ومضى نحو شفيك

مباشرة وسحبه من بين مجموعة السراويل العشرين وقاده نحو حجرة الاجتماعات.

كان القسيس جالساً بكل راحة فوق منضدة ويلف لفاة تبغ.

حين دخل شفيك صاح القسيس:

- هذا هو أنت إذن! كنت أفكر بالموضوع واعتقد اني استطعت ان افهمك جيداً. هل تفهم ايها النغل؟ هذه أول حالة أرى فيها شخصاً يبكي في هذه الكنيسة.

قفز من على المنضدة ووقف تحت لوحة ضخمة كئيبة تمثل «القديس فرانسيس الساليسي» وهزّ شفيك من كتفه وصاح:

- اعترف بأنك بكيت كنوع من الهزل ايها اللوطي.

وحدق «القديس فرانسيس الساليسي» على نحو مترع بالتساؤل من لوحته باتجاه شفيك ومن لوحة اخرى على الطرف الآخر، حدّق فيه احد الشهداء فاغرا فاه بينما راح المرتزقة الرومان ينشرون كفليه بالمنشار. خلال هذه العملية ما كان ممكناً مشاهدة اي نوع من الألم على وجه الشهيد، ولا حتى فرحة او مجد الشهادة ايضاً. كان يحدق فحسب، فاغر الفم، وكأنه يريد ان يقول: «كيف يحدث هذا لي يا ترى؟ ما الذي تفعلونه بي أيها السادة؟».

قال شفيك بترو مراهنا بكل شيء على ورقة واحدة:

- اعترف أمام الرب العظيم وأمامك أيها الأب المبجل، يا من أنت مندوب الرب، اني ما كنت أبكي إلا هزلاً فحسب. لقد رأيت أنك كنت في حاجة خلال وعظك لخاطي عاد الى طريق الصواب، وأنت كنت تبحث عنه عبثاً في موعظتك. وهكذا أردت فعلاً أن أمنحك بعض السرور حتى لا تظن أنه لم يتبق أي رجال حقيقيين، وأردت في الوقت نفسه أن أمزح قليلاً حتى أروّح عن نفسي بعض الشيء.

نظر القسيس بتمعن في وجه شفيك الساذج البريء. كان شعاع من الشمس يعث بالوجه الحزين للقديس فرانسيس الساليسي ويدفئ العينين المحدقتين للشهيد الذي على الجدار المقابل.

قال القسيس وهو يجلس على المنضدة من جديد:

- بدأت أعجب بك. من اي فوج أنت؟

وهنا بدأ «يحوزق».

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أني أنتمي ولا أنتمي الى الفوج الواحد والتسعين وليست لدي أدنى فكرة عن حالتي ووضعي.

سأله القسيس وهو يتابع «الحوزقة»:

- ولماذا سجننت؟

اندفعت من الكنيسة في هذا الاتجاه أصوات «القدمية⁽¹⁾» التي كانت بديلاً عن الأرغن. وكان العازف، وهو معلّم سجن بسبب الفرار، يجعل تلك الآلة تنوح بأشد ألحان التراتيل حزناً وحداداً. ومع «حوزقة» القسيس امتزجت تلك الأصوات لتشكّل نوعاً جديداً من السلم الموسيقي «الدوري⁽²⁾».

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لا اعرف بالضبط لماذا سجنوني، ولكنني لا اتذمر. وهذا هو حظي السيء فحسب. ان مقاصدي دوماً بريئة ولكنني أعاقب دائماً بأسوأ العقوبات كذلك الشهيد في اللوحة التي هناك.

نظر القسيس الى اللوحة وابتسم ثم قال:

- أجل، لقد أعجبتني حقاً. يجب أن أسأل ممثل النيابة العسكرية عنك

(1) ضرب من الأرغن (المترجم).

(2) نسبة الى الدورين الذين غزوا اليونان حوالي القرن (12) ب.م. واستقروا في بعض اجزائها. (المترجم).

ولكني لن اتحدث الآن أكثر من ذلك إليك. يجب أن أرفع كاهل القديس عن صدري. وراء دراهم انصرف!

حين عاد شفيك الى مجموعته العائلية المؤلفة من السراويل والواقفة تحت المنبر، أجاب بجفاف واقتضاب شديد على أسئلتهم حول ما أراده منة القسيس في حجرة الاجتماعات قائلاً:
- إنه ثمل تماماً.

هذا وقد لقي العرض الجديد للقسيس، وفي القديس، اهتماماً واستماتاً واضحاً من قبل الموجودين جميعاً، حتى أن أحد الرجال الواقفين تحت المنبر راهن على أن وعاء القربان المقدس سيسقط من يدي القسيس. وقد راهن على كامل حصته من الخبز لقاء لكمتين على الفك وربح الرهان.

كان ما ألهم أرواح الجميع في الكنيسة لدى مشاهدة القسيس وهو يؤدي الطقوس ليس إيمان المؤمنين أو تدين الكاثوليكين الصادقين، بل الشعور الذي ينتابنا في المسرح حين لا نعرف موضوع المسرحية، وحين تتطور العقدة ومنتظر بكل لهفة لنرى كيف ستنتهي. كان الجميع منهمكين في المشهد الذي كان القسيس يقدمه لهم أمام المذبح بكل تفان وإخلاص.

وقد استسلموا تماماً للمتعة الجمالية التي منحتهم إياها الملابس التي كان القسيس قد ارتداها مقلوبة وراقبوا كل ما يحدث على المذبح بتعاطف وحماسة متقدتين.

كان مساعد الكاهن الأحمر الشعر، وهو أحد الفارين من صفوف القندلفتية واختصاصي في السرقات الصغيرة من الفوج الثامن والعشرين، يبذل قصارى جهده ليتذكر كامل طقوس وتقنيات ونص القديس. كان مساعداً وملقناً للقسيس الذي كان يقلب الجمل عاليها سافلها بكل طيش وبدلاً عن الشروع بالقديس العادي كان يجد نفسه عند ذلك الموضع من

كتاب الصلاة حيث قداس الأحد السابق على عيد الميلاد. ثم بدأ يغني تلك الصلاة مما أدخل الرضا الى قلوب جميع المصلين.

لم يكن يملك الصوت ولا الأذن الموسيقية، وتحت سقف الكنيسة المعقود دوى صراخ ومواء اشبه بمواء القطط في الدورة النزوية، ومن النوع الذي لا نسمعه سوى في زرائب الخنازير.

قال اولئك الجالسون أمام المذبح بمرح وتلذذ كبيرين:

- إنه ثمل فعلا اليوم. انه لم «يزيتها» نصف «تزييتة» حتى . لا بد انه قد عملها مرة اخرى! لا شك انه سكر مع بعض المومسات في مكان ما. والآن وللمرة الثالثة كانت نبرات «انتهى القداس. اذهبوا بسلام» تدوي من المذبح كصرخة حرب هندية حمراء حتى قعقت النوافذ.

ثم نظر القسيس مرة أخرى الى كأس القربان ليرى إن كانت قد تبقت نقطة من النبيذ فيها وأبدى امتعاضه بإيماءة، وخاطب المستمعين قائلاً:

- حسناً، تستطيعون الذهاب الى بيوتكم يا اولاد الزنا. لقد انتهى الأمر. لقد لاحظت انكم لا تظهرون الورع الحقيقي الذي يجب ان تظهروه وانتم في كنيسة، وفي حضور قدس الأقداس أيها الأوغاد. حين تكونون في مواجهة الرب كلي القدرة فإنكم لا تخجلون من الضحك عاليا والسعال والضحك المكبوت والتلملم خلال الوقوف، حتى في حضوري أنا، أنا، الذي يمثل مريم العذراء، والمسيح عيسى والرب الأب ايها الأغبياء اللعينون. وإذا فعلتم ذلك مرة أخرى ستنالون الجحيم الذي تستحقون وستعرفون ليس على الجحيم الذي تكلمت عنه في موعظتي قبل السابقة، بل على جحيم هنا على الأرض ايضا. وإذا ما استطعتم لسبب ما الهروب من الجحيم الأول فسوف اتدبر أمر عدم نجاتكم من الجحيم الثاني. انصرفوا!

مضى القسيس الذي كان قد قدم لهم لتتو عرضا رائعا وعمليا للعادة القديمة اللعينة - زيارة السجن - الى حجرة الاجتماعات، فبدل

ملا بسه ثم صب بعض الخمر المقدسة من برميل خشبي في إبريق وشربه ثم ركب جواده الذي كان مربوطا في ساحة الكنيسة بمعونة من مساعدة أحمر الشعر. ثم تذكر شفيك فجأة فترجل وذهب الى مكتب «بيرنيس» ممثل النيابة العسكرية.

كان «بيرنيس» ممثل النيابة العسكرية هذا شخصا اجتماعيا، وراقصا رشيقا وفاجرا ملّ وجوده في هذا المكان الى اقصى حد، ولذا راح يقضي أوقاته وهو يكتب أشعاراً بالألمانية لألبومات تواقيع البنات حتى يكون لديه احتياطي منها. كان أهم عنصر في جهاز القضاء العسكري كله، ولأنه كانت لديه كومة هائلة من القضايا غير المبتوت فيها الوثائق المشوشة، فقد كان محترما من قبل جميع اعضاء المحكمة العسكرية على نهر هرادتشانى. وكان يفقد باستمرار الوثائق اللازمة للاتهام فيضطر الى اختلاق وثائق جديدة. وكان يخلط الأسماء ببعضها ويفقد الخيوط المؤدية الى الاتهام فيغزل خيوطا اخرى وكما يرد في خاطره. كان يحاكم الفارين على أنهم لصوص والصوص على أنهم فارون. كما كان يرفع إلى المحكمة قضايا سياسية كان قد اخترعها بنفسه. وكان يخترع كل أنواع الهراء لادانة اشخاص بجرائم لم يحلموا هم بها حتى، أو يخترع إهانات على الملك ويلصقها بالمساجين، أو يلفق بيانات كاذبة على لسان أي شخص إذا كان حكم الأدانة او تقارير المخبرين قد ضاعت في تلك الفوضى اللامتناهية من الوثائق والمراسلات الرسمية.

قال القسيس وهو يضافحه:

- مرحبا. كيف حالك؟

أجاب بيرنيس:

- لست على ما يرام. لقد عبثوا بأوراقى فأختلط الحابل بالنابل. البارحة رفعت الأوراق التي جهزتها والمتعلقة بشخص موقوف بسبب العصيان،

فاعادوها إليّ قائلين ان القضية لا تتعلق بالعصيان بل بسرقة علبة من التنك. وكنت قد اعطيتهما رقما مختلفا تماما وأنا مستغرب جداً كيف استطاعوا اكتشافها.

بصق ممثل النيابة العسكرية.

سأله القسيس:

- ألا تزال تلعب بالورق؟

- لقد خسرت كل ما املك في لعب الورق. في آخر مرة لعبت فيها كنت أمارس لعبة «الماكاو» مع ذلك العقيد أصلع، الرأس وكان عليّ ان أرمي بكل ما املك في فمه اللعين. ولكنني اعرف على اية حال عصفورة شابة جميلة. وما الذي تفعله أيها الأب المقدس؟

قال القسيس:

- احتاج الى وصيف. في الجرة الاخيرة كان لديّ كاتب حسابات عجوز دون ثقافة اكاديمية ولكنه كان نغلاً حقيقياً. كان يشرق مخاطه باستمرار ويدعو الله ان ينقذه، وفي النهاية أرسلته الى الجبهة ليلتحق بكتيبة متقدمة. وقد قيل لي انها ابيدت عن بكرة أبيها. ثم أرسلوا إليّ شابا صغيرا لم يكن يفعل شيئا سوى الجلوس في البار والسكر على حسابي. وقد كان شخصا محتملا ولكن قدميه كانتا من النوع الشديد التعرق. لذلك أرسلت به الى الجبهة ايضا. واليوم حين كنت أتلو موعظتي وجدت نغلا يبكي لاجل الهزل فحسب. وهذا هو النوع من الاشخاص الذي احتاج إليه. انه يسمى شفيك ومكانه في الزنزانة رقم (16). أود ان أعرف سبب توقيفه ومدى إمكانية الأفراج عنه ليعمل لديّ.

بدأ ممثل النيابة العسكرية بالتفتيش في أدراجه عن ملف شفيك، ولكنه لم يستطع كالعادة ان يجده.

قال بعد بحث طويل:

«انه موجود لدى النقيب لينهارت. الله وحده يعلم أين تذهب كل هذه الملفات خاصتي. لا بد واني أرسلتها. سأهتف له حالا، آلو! أنا الملازم أول بيرينس يا سيدي. من فضلك هل عندك يا ترى ملفات تتعلق بشخص يدعى شفيك؟... يجب ان تكون عندي؟ إنك تدهشني... لقد قمت باستلامه؟ حسنا، أنا مندهش جداً... انه موجود الآن في الرقم «16»... اعرف يا سيدي. إن لدي ملف الرقم (16)، ولكنني حسبت ان أوراق شفيك قد تكون مرمية في مكان ما من صينية الأوراق... كنت ستكون سعيداً لو لم أكلمك بهذه اللهجة؟ الأوراق لا ترمى في صينية الأوراق لديك... آلو، آلو...».

جلس بيرينس الى المنضدة وراح يلعن بغضب تلك الطريقة الفوضوية التي تدار بها التحقيقات. كانت هناك عداوة قديمة بينه وبين النقيب لينهارت، وكانا كلاهما مواظبين، عليها. فإذا حصل بيرينس على أوراق تخص لينهارت، يرتبها هذا بحيث لا يستطيع أحد ان يفقه منها شيئاً. وكان لينهارت يفعل الشيء نفسه بالضبط بالأوراق الخاصة ببيرينس. وبالطبع كانا يضيّعان محتويات معاملاتهما⁽¹⁾.

(لم يتم العثور على أوراق شفيك الى ما بعد الحرب. لقد كانت في ارشيف قسم القضاء العسكري وقد دوّن عليها: «خطط لازاحة قناع النفاق والخروج علنا ضد حاكمنا ودولتنا». وقد التصقت هذه الأوراق بملفات تتعلق بشخص اسمه «يوسيف كوديللا». وعلى غلاف الملف رسم صليب وكتب تحته «تم اتخاذ ما يلزم» مع التاريخ).

قال بيرينس: «اذن ضيعت شفيك. سأرسل في طلبه وإذا لم يعترف بأي شيء، سأطلق سراحه وألحقه بك وتستطيع تدبير بقية الأمر مع فوجه».

(1) بقي ثلاثون بالمئة من الناس الذين أرسلوا الى سجن الحامية ينتظرون هناك خلال فترة الحرب كلها دون ان يدعى أي منهم ولو مرة واحدة للتحقيق. (المؤلف).

بعد ان غادر القسيس أرسل بيرنيس في طلب شفيك ولكنه تركه واقفا عند البابا فقد كان قد استلم للتو رسالة هاتفية من قيادة الشرطة تفيد بأن المادة المطلوبة لوثيقة الادعاء رقم (7267) المتعلقة بجندي المشاة «ما يكسنر» قد وصلت الى المكتب رقم (1) ووقعها النقيب لينهارت. في هذه الاثناء كان شفيك يتفحص مكتب ممثل النيابة العسكرية.

لا يسع المرء ان يقول إن ذلك المكتب كان يعطي انطبعا مريحا وخاصة تلك الصور التي على الجدران. كانت صور الإعدامات مختلفة قام بها الجيش في غاليسيا والصرب، وهي صور فوتوغرافية فنية تمثل أكواخا وأشجاراً محترقة ذات أغصان ملتوية تحت ثقل الأجساد المعلقة بها. وكانت هناك صورة بعينها جميلة على نحو خاص، وقد التقطت في الصرب وتمثل أسرة بكاملها وهي مشنوقة: ولد صغير وأبوه وأمه. كان هناك جنديان شاهرا الحراب يحرسان الشجرة، وضابط يقف منتصرا في مقدمة الصورة يدخن لفافة تبغ. وفي الجانب الآخر من الخلفية يمكننا ان نرى مطبخا ميدانيا في حالة نشاط كامل.

سأله بيرنيس بعد ان وضع الرسالة الهاتفية في ملف خاص:

- حسناً ما حكايتك يا شفيك؟ ما الذي ارتكبه؟ هل ستعترف ام ستنتظر حتى توجه إليك التهمة؟ لا يمكن ان تستمر الأمور على هذه الحال. لا تخيل انك ستحال الى محكمة قضاتها من المدنيين المجانين. محاكنا هي محاكم عسكرية، ستحال الى المحكمة الامبراطورية والملكية العسكرية. والطريقة الوحيدة التي يمكنك ان تنقذ نفسك بها من عقوبة شديدة وعادلة هي الاعتراف.

كان لبيرنيس أسلوبه الخاص حين يفقد الأوراق التي تدين المتهم. وكما ترون فإن ذلك الأسلوب لم يكن ذا خصوصية معينة، ولا عجب إذن ان تكون نتائج مثل ذلك الاستجواب والاستنطاق لا شيء.

وكان بيرنيس يشعر على الدوام ان قدرته على الاستبصار جيدة جداً، بحيث أنه يستطيع دائماً، وبدون الأوراق التي تدين المتهم، وبدون أن يعرف سبب اتهامه او زجه في سجن الحامية، ان يستنتج سبب اعتقاله وذلك بمجرد التمعن في وجه المتهم وسلوكه.

كان ادراكه ومعرفته للطبيعة البشرية عظيمين الى درجة انه اتهم غجريا أرسل من قبل فوجه الى سجن الحامية بسبب سرقة بضعة دزينات من القمصان (كان يعمل مساعداً لأمين المستودع) بتهم سياسية، فقد ادعى انه تحدث في أحد الحانات مع بعض الجنود عن اقامة دولة وطنية مستقلة مؤلفة من أراضي التاج البوهيمي وسلوفاكيا تحت حكم ملك سلافيا.

قال للغجري التعيس الحظ: «لدينا الأدلة المادية، ولم يبق عليك سوى ان تعترف بأية حانة قلت ذلك الكلام، وبالفوج الذي ينتمي إليه اولئك الجنود الذين استمعوا إليك ومتى حدث ذلك».

لقد اختلق الغجري التعيس الحظ ليس التاريخ فحسب بل اسم الحانة والفوج الذي ينتمي إليه مستمعوه المزعومون، وحين غادر غرفة التحقيق هرب من السجن كله.

قال بيرنيس حين بقي شفيك صامتاً كالأموات:

- إذن، لن تعترف بشيء؟ لن تقول سبب احضارك الى هنا ولماذا وضعت في السجن؟ كان بإمكانك على الاقل ان تقوله لي قبل ان اخبرك به أنا. احذر مرة أخرى بأنه من الأفضل لك ان تعترف. سيكون ذلك أهون عليك حيث انه سيسهل التحقيق ويخفف العقوبة. وفي هذا الخصوص فإن الأمر هنا أشبه بمحكمة مدنية.

قال شفيك فجأةً وبهجة:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انني هنا في سجن الحامية لأنني لقيط.

- ما الذي تعنيه بذلك؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني استطيع ان أشرح لكم ذلك بكل بساطة. في شارعنا تاجر فحم كان لديه طفل صغير في الثانية من العمر وفي منتهى البراءة. وقد سار هذا الطفل مرة كل تلك المسافة من «فينوهرادي» الى «ليبيني»، حيث وجده شرطي جالساً على الرصيف، فاصطحبه الى مخفر الشرطة وحبسه هناك: ذلك الطفل البريء الذي في الثانية من العمر. وهكذا ترى ان الصبي الصغير كان بريئاً تماماً، ومع ذلك فقد حبسوه. ولو كان قادراً على الكلام وسأله أحدهم عن السبب في أنهم حبسوه لما كان سيعرف على أية حال. إن أمري أشبه بأمر ذلك الطفل، فأنا لقيط أيضاً.

مرت التحديقة الحادة لممثل النيابة العسكرية بسرعة فوق جسد ووجه شفيك واستقرت فوقهما. كانت اللامبالاة والبراءة تشعان من كيان الكائن الواقف أمامه، وبدأ بيرنيس يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. ولو لم يكن قد وعد القسيس فلا يدري أحد سوى الله ما الذي كان سيفعله بشفيك. وأخيراً توقف عند مكتبه.

قال لشفيك الذي كان يحدق غير مبالي نحو الأمام:

- اسمع، لو قابلتك مرة أخرى فلن تنسى ذلك أبداً. خذوه!

حين أعادوا شفيك الى الزنزانة رقم (16) مرة أخرى، طلب بيرنيس من كبير السجنانيين سلافيك أن يمثل أمامه.

قال له باقتضاب:

- حتى تصدر أوامر أخرى، سيرسل شفيك الى القسيس كاتس ليوضع تحت تصرفه. جهز أوراق إخلاء سبيله وأرسله الى القسيس تحت حراسة رجلين.

- هل نضع يديه في القيد خلال الرحلة يا سيدي؟

ضرب ممثل النيابة العسكرية المكتب بقبضته.

- يا لك يا من أحقق. لقد أمرتك بكل وضوح ان تجهز أوراق اخلاء سبيله.

وهكذا انصب كل النكد الذي تجمع في نفس بيرنيس خلال ذلك اليوم بسبب النقيب لينهارت وشفيك كالتيار المجنون على رأس كبير السجنانين. وفي النهاية قال له:

- والآن هل تعرف أنك أحقق ملكي ممتاز؟.

وهذا أمر لا ينبغي أن يقال سوى للملوك والباطرة، ولكن حتى كبير السجنانين البسيط هذا، والذي لم يكن شخصية ملكية، لم يسر بذلك. وخلال عودته من مكتب ممثل النيابة العسكرية، رفس أحد السجناء المكلفين بأعمال السخرة، وكان يقوم بتنظيف الممر، رفسة قاسية.

أما بالنسبة لشفيك، فقد قرر كبير السجنانين أن عليه أن يقضي ليلة أخرى على الأقل في سجن الحامية حتى يستمد المزيد من الفائدة منه.

* * *

تلك الليلة التي قضاها شفيك في سجن الحامية ستبقى دائما واحدة من أحب ذكريات شفيك إليه.

فإلى القرب من الزنزانة رقم (16) كانت «الحفرة السوداء»، وهي بئر مظلم يستعمل للحبس الانفرادي. كان شفيك يستمع خلال تلك الليلة الى صراخ جندي قام الرقيب الأول «رجينا» بكسر أضلاعه بناء على أوامر كبير السجنانين سلافيك بسبب ارتكابه مخالفة انضباطية.

وحين توقف الصراخ كان يمكن الاستماع في الزنزانة رقم (16) الى صوت هرس القمل بين أصابع السجناء خلال تفتيشهم عنه.

فوق الباب وفي فتحة في الجدار وضع مصباح يعمل بالكاز مثبت عليه

شبكة معدني واق، كان يث ضوءاً خفيفاً ويدخن، وكانت رائحة الكاز تختلط بالروائح الطبيعية للأجساد البشرية غير المغتسلة، ورائحة الدلو الذي كان في كل مرة يستعمل فيها يضرب سطحه ويضيف موجة جديدة من الروائح النتنة التي الزلزاة رقم (16).

كان الطعام الرديء يجعل عملية الهضم صعبة على الجميع، وكان أغلبهم يعانون من ريح البطن، فيطلقونها في هدوء الليل، حيث يجيب أحدهم الآخر بتلك الاشارات المصاحبة بمختلف النكات.

في الممرات كان يسمع وقع خطوات الحرس. ومن وقت لآخر كانت الفتحة التي في الباب تنفرج ليحذق احد الحرس عبر الثقب.

من السرير الأوسط كان يمكن سماع صوت يقول بهدوء:

- قبل محاولتي الفرار وقبل أن أجلب الى هنا لاكون معكم كنت في الرقم (12) فهناك يسجنون الحالات الخفيفة. ومرة جاؤوا برجل من مكان ما في الريف. كان ذلك الإنسان الطيب قد حكم بالحبس أربعة عشر يوماً لأنه سمح للجنود بالمبيت في داره ليلة واحدة. في البداية ظنوا أن هناك مؤامرة ما، ولكن ثبت لاحقاً أنه فعل ما فعله من أجل المال. كان يتوجب حبسه بين أقل المتهمين خطورة، ولكن بما ان زلزاة اولئك كانت ممتلئة عن آخرها، فقد جيء به إلينا. ولا يمكنكم ان تتخيلوا كل تلك الأشياء التي كان يحملها معه من البيت وما الذي كان يرسل إليه، لأنه استطاع بطريقة ما ان يحصل على اذن بأن يطلب ما يشاء من الطعام وأن يكون مرتاحاً في السجن. كما كان مسموحاً له بالتدخين. كان معه قطعتان من لحم فخذ الخنزير، وأرغفة هائلة الحجم، وبيض وزبدة ولفافات تبغ. حسناً، وبايجاز، فقد كان معه في حقيبتيه (وهما من النوع الذي يحمله العسكري على ظهره) كل ما يمكن ان تحلم به. وكان ذلك النغل يظن انه يستطيع ابتلاع ذلك كله

لوحده. بدأنا نرجوه ان يشاركنا إياه، ولكن لم ترق له الفكرة كما قد يفعل الآخرون حين يمتلكون شيئاً ما. لقد كان نغلا بخيلاً وقال لا، فهو محكوم مدة أربعة عشر يوماً والملفوف والبطاطا العفنة اللذان يقدمان لنا في السجن سيخربان له معدته. قال انه سيتمنحنا كل حصته من طعام السجن والخبز العسكري: لم يكن في ذلك ما يستحق الاحتفاظ به، وقال إن بإمكاننا ان نقتسمه بيننا او ان نأخذه بالدور. اقول لكم انه كان جنتلماناً الى حد انه كان يرفض الجلوس على الدلو وينتظر حتى اليوم التالي حين تزف ساعة التريض حتى يفعلها في المرحاض الموجود في ساحة المحكمة. لقد كان مدللاً الى درجة انه جلب معه حتى أوراق التواليت. قلنا له اننا لا نريد حصته من طعام السجن وقد ثابرتنا على ذلك بشجاعة مدة يوم فيومين فثلاثة. كان ذلك النغل يلتهم لحم الخنزير ويمسح خبزه بالزبدة ويقشر بيضاته... باختصار: كان يعيش كخنزير مترف. كما كان يدخن اللفافات ولا يمنح أياً منّا حتى «مجة» واحدة، إذ يقول انه ليس مسموحاً لنا بالتدخين ولو رآه الحارس وهو يعطينا «مجة» واحدة، فسوف يحبسونه في الانفرادي. وقد اخبرتك اننا صبرنا عليه ثلاثة أيام. ولكننا فعلنا ما فعلناه في الليلة الرابعة. كان ذلك النغل يستيقظ باكراً، وقد نسيت ان اقول لكم انه كان يصلي في الصباح الباكر وفي الظهر والمساء، وذلك، قبل أن يبدأ بالأكل، ويصلي لفترة طويلة جداً. وهكذا صلى هذه المرة ثم اخذ يبحث عن حقيبتيه تحت سريره. أجل، كانت الحقيبتان هناك، ولكنهما كانتا فارغتين ومنكمتين كخوختين مجففتين. وقد راح يصرخ بأنه قد سرق وإننا لم نترك له سوى أوراق التواليت. ثم شرع يظن لمدة خمس دقائق أننا كنا نمازحه فحسب وأنا اخفينا الطعام في مكان ما. قال بلهجة لا يزال المرح يشوبها: «أعرف أنكم تحاولون اغاظتي ليس أكثر. اعرف انكم ستعيدونها إليّ، ولكن المزحة كانت ناجحة على اية حال». كان بيننا

شاب من «ليبي» قال له: «هيا وغط نفسك ببطانيتك ثم عدّ حتى العشرة. ثم انظر في حقيبتك». وقد عطى نفسه فعلا وراح يعد كطفل صغير مطيع... واحد، اثنان، ثلاثة... ثم قال له ذلك الشاب من «ليبي»: «لا تعجل بالعد، بل عد بمنتهى البطء». وها هو تحت البطانية يعد ببطء على مراحل: واحد - اثنان - ثلاثة..

وحين وصل الى عشرة قفز من سريره ونظر في حقيبتيه، ثم بدأ يصرخ: «يا ليسوع ومريم أيها الرجال! انهما فارغتان كما كانتا من قبل». كان وجهه طوال ذلك الوقت شديد الغباء والى درجة ان خواصرنا كادت تطق من الضحك. ثم قال له ذلك الشاب من «ليبي»: «حاول مرة اخرى». وصدقوني انه كان مجنوناً رغم كل ما حصل الى حد انه حاول مرة اخرى، وحين رأى انه لم يعد هناك سوى ورق التواليت بدأ يضرب الباب ويصرخ: «لقد سرقوني، لقد سرقوني، النجدة، افتحوا الباب كرمي للمسيح، افتحوا». وهكذا اندفع الحرس جميعاً الى الزنزانة ونادوا على كبير السجنائين والرقيب أول «رجيباً». وقد قلنا جميعاً بصوت واحد انه قد جن وإنه قام في اليوم السابق بالتهام الطعام حتى ساعة متأخرة في الليل فلم يبق على اي شيء. ولكنه بكى وشرع يقول: «لا شك انه لا زال هناك بعض الفتات». وهكذا بدؤوا يبحثون عن الفتات ولم يجدوا أيها منه لأننا كنا أذكياء جداً أيضاً، حيث ارسلنا عن طريق «بريد الحب» ما لم نستطع ابتلاعه الى الطابق الثاني. وهكذا لم يستطيعوا ان يمسكوا اي دليل ضدنا رغم أن ذلك الأحق المغفل ظل يقول: «ولكن لا شك انه لا زال هناك بعض الفتات». وهكذا لم يأكل شيئاً طوال النهار بل راح يراقبنا بعناية ليرى ان كان اي واحد منا يأكل او يدخن أي شيء. وفي اليوم التالي وعند الغداء لم يتناول شيئاً من مخصصاته، ولكن بدا مع حلول المساء، وكان البطاطا والملفوف الفاسدين قد راقا له، ولكنه لم يأكل كثيراً كالعادة كما كان

يفعل حين كان ينقض على اللحم والبيض. ثم حصل احدنا على اعقاب من الخارج، وحينها بدأ يخاطبنا للمرة الأولى طالباً منا ان نمنحه «مجة». ولكننا لم نعطه شيئاً البتة.

قال شفيك:

- ظننت انكم كنتم ستعطونه «مجة»، فقد كان من شأن ذلك ان يفسد الحكاية كلها. مثل هذه التصرفات النبيلة لا يراها المرء إلا في الروايات، ولكن في سجن الحامية، وفي مثل هذه الظروف، سيكون من الجنون التصرف بذلك النبيل.

سأله احدهم:

- أو لم تمارسوا عليه علاج البطانية؟

- لم نفكر به.

ثم جرى نقاش بلهجة خفيفة حول ما إذا كان من الواجب استعمال علاج البطانية أم لا. وقد ايدت الأغلبية استعماله.

وهكذا خفت حدة الحوار تدريجياً، فهاهم يستسلمون للنوم وهم يهرشون تحت آباطهم وصدورهم وبطونهم، في تلك المواضع تحت ملابسهم الداخلية حيث يتجمع القمل كأكثر ما يكون. أجل ناموا وهم يسحبون البطانيات المترعة بالقمل الى ما فوق رؤوسهم، حتى لا يزعجهم نور مصباح الكاز..

في الثامنة من صباح اليوم التالي دعني شفيك الى المكتب.

قال احد الرجال لشفيك: «الى الجانب الايسر من الباب المؤدي الى المكتب مبصقة يرمون فيها الاعقاب، وستم في الطابق الاول بوحدة اخرى. انهم لا ينظفون الممرات حتى التاسعة، ولذا يمكنك ان تجد شيئاً ما على الأرجح».

ولكن شفيك خيب آمالهم، حيث لم يعد أبداً الى الرقم «16». هذا وقد قامت الأزواج التسعة عشر من السنراويل باختراع مختلف الاستنتاجات والتحريرات حول شخصيته.

كما نشر احد الجنود - وكان النمش يغطي وجهه وينتمي الى اللاندير، ويتمتع بمخيلة شديدة الخصب - إشاعة مفادها أن شفيك قد اطلق النار على قائده النقيب وانه سيقاد في اليوم نفسه الى ساحة التدريب في «موتول» لاعدامه.

شفيك وصيفاً للقسيس

استؤنفت أسفار شفيك مرة أخرى بحراسة ملؤها التبجيل مؤلفة من جنديين شاهري الحراب كان عليهما ان يوصلاه الى القسيس.

كان مرافقاه رجلين يكملا بعضهما بعضا، فقد كان أحدهما طويلا هزيلا والآخر قصيرا وبدينا. كان الطويل يعرج بينما يعرج الآخر، وهو القصير البدين، بيسراه. كان كلاهما يؤديان الخدمة العسكرية خلف الخطوط (خدمة ثابتة) حيث كانا قد أعفيا منذ ما قبل الحرب نهائيا من الخدمة العسكرية.

سارا بوقار على امتداد الرصيف، وكانا بين الحين والآخر ينظران شزرا الى شفيك الذي كان يسير بخطوات واسعة بينهما وهو يحيي كل من يراه. كانت ملابسه المدنية وقبعته العسكرية التي ارتداها لدى إلتحاقه بالخدمة، قد ضاعت في مستودعات السجن. وقبل اطلاق سراحه أعطوه بذلة عسكرية قديمة كانت تنتمي الى شخص بدين مكرش أطول من شفيك بخمسة وعشرين سنتيمتراً.

أما بالنسبة للبنطال فقد كان ممكنا لثلاثة آخرين من حجم شفيك ان يدخلوا فيه. لقد ارغمت تلك السلسلة من الطيات المنتفخة، من قدميه

وحتى صدره، حيث وصل البنطال، المشاهدين على الاعجاب به. كما كانت سترة واسعة مرقعة عند المرفقين ومغطاة بالشحم والأوساخ تتدلى من حول شفيك كما يتدلى المعطف على فزاعة العصافير (خيال المائة). أما قبعته العسكرية التي تم استبدالها ايضاً في سجن الحامية فكانت تغطي رأسه حتى اذنيه لكبرها.

أجاب شفيك على ابتسامات المشاهدين بابتسامته العذبة وتلك النظرة الرقيقة الدافئة التي تكون عادة في عينيه الودودتين.
وهكذا ساروا باتجاه شقة القسيس في «كارلين».
كان أول من تحدث الى شفيك هو القصير البدين. كانوا في تلك اللحظة في «مالسترانا» تحت البناء المقنطر.

سأله القصير البدين:

- من أين أنت؟

- من براغ.

- ألن تهرب؟

والآن انضم الطويل النحيل الى الحديث. ومن الظواهر العجيبة ان الاشخاص قصيري القامة البدينين يكونون عادة من النوع المتفائل الودود. بينما يكون اولئك الطوال القامة النحيلون على العكس من ذلك اي شكاكين مستريين.

وهكذا قال الطويل:

- سيهرب لو استطاع ذلك.

أجاب القصير البدين:

- ولم يهرب؟ طالما أنه أصبح خارج سجن الحامية فإنه حر عملياً. إني

أحمل ذلك في الرزمة هنا.

سأله الطويل:

- وما الذي في تلك الرزمة؟
- لا أعرف.

- ها هه! أنت لا تعرف وتتحدث عمّا لا تعرفه رغم ذلك.

عبرا جسر تشارلز في صمت مطبق. وفي شارع تشارلز تحدث البدين القصير الى شفيك مرة اخرى:

- هل تعرف لماذا نقودك الى القسيس؟

قال شفيك دون اكتراث:

- للاعتراف. غدا سيشنقونني. هذا ما يفعلونه عادة في مثل هذه المناسبات ويسمون ذلك سلواناً روحانياً.

سأله الطويل بحذر بينما كان القصير ينظر نظرة اشفاق الى شفيك:

- ولماذا سيقومون ب...؟

كان هذان كلاهما من تجار الريف وأرباب الأسر.

أجاب شفيك بابتسامته الودود:

- لا أعرف. ليست لديّ أدنى فكرة. لا بد وأنه القدر.

قال القصير بلهجة العارف والمتعاطف:

- ربما ولدت تحت نجم سيئ الفأل. في ضيعتنا «ياسينا» قرب

«يوسيفوف» جرى خلال الحرب مع بروسيا شنق شخص بهذه الطريقة تماما. جاؤوا يبحثون عنه، ولم يقولوا له شيئا بل شنقوه في «يوسيفوف».

قال الطويل بلهجة ملؤها الريب:

- لو سألتني لقلت أنهم لا يشنقون شخصا دون أية جريرة على الإطلاق.

لا بد من وجود سبب لذلك دائما، حتى يستطيعوا تبرير الأمر.

قال شفيك:

- حين لا تكون هناك حرب دائرة فإنهم يبررون الأمر، ولكن حين تكون

الحرب دائرة فانهم لا يكثرثون بك. يمكنك ان تسقط صريعا في الجبهة او تشنق في بلدك: الأمر سيان.

سأله الطويل، وقد بدا من لهجة السؤال الآن انه بدأ يتعاطف مع شفيك:

- لا أعتقد انك «سياسي»، أليس كذلك؟

- نعم، أنا «سياسي» الى اقصى حد.

- لست «اشتراكيا وطنيا⁽¹⁾»، أليس كذلك؟

هنا جاء دور القصير البدين في الحذر. قاطع الحوار ليستأنف قائلاً:

- وما علاقتنا بذلك على أية حال؟ هناك الكثيرون من الناس في كل مكان

وها هم يراقبوننا الآن. لو اننا نستطيع نزع حرابنا في احدى الحارات دون

أن نلفت الانتباه. لن تهرب منا، أليس كذلك؟ سنواجه المتعاب لو فعلت.

ألست على حق يا «تونيك»؟

هكذا خاطب القصير الطويل الذي أجابه بهدوء:

- يمكننا نزع حرابنا. انه واحد منا على اية حال.

لم يعد شكاكاً الآن، كما أن قلبه أصبح مترعاً بالتعاطف مع شفيك. بحثا

عن زقاق مناسب يمكنهما نزع حربتيهما فيه، وقد سمح القصير لشفيك بأن

يسير الى جانبه.

قال له:

- تحب أن تدخن، أليس كذلك؟ أتساءل إن...

كان يريد أن يقول: «أتساءل ان كانوا سيسمحون لك بالتدخين قبل ان

يشنقوك». ولكنه لم يكمل الجملة مدركا أن ذلك قد يكون منافيا للباقة.

دخن الجميع وبدأ مرافقا شفيك باخباره عن عائلتيهما في الريف بالقرب

من «هرادتس كر الوفه»، عن الزوجة والأطفال والأرض والبقرة.

(1) حزب سياسي تشيكي يعود الى أيام الحكم النمساوي. وقد أصبح «ادوارد بنيش» واحداً من

قاده لاحقاً. (س.ب).

قال شفيك:

- أنا ظمآن.

تبادل الطويل والقصير النظرات.

قال القصير وهو يشعر أنه يستطيع الاعتماد على موافقة الطويل:

- يمكن ان نتوقف في حانة ما لتتناول كأساً سريعة. ولكن يجب ان يكون ذلك في مكان لا يلفت الانتباه إلينا.

اقترح شفيك قائلاً:

- فلنذهب الى «كركليك». يمكنكما وضع بندقيتكما في المطبخ هناك.

صاحب تلك الحانة واسمه «سيرابونا» من «الصفور⁽¹⁾» ولا حاجة الى الخوف منه. كما انهم يعزفون الكمان والأكورديون هناك، وترتاد البغايا المكان وكذلك

مختلف انواع اعضاء المجتمع ممن لا يسمح لهم بالدخول الى «الريريزتناك⁽²⁾».

تبادل النحيل والبدین النظرات مرة أخرى ثم قال النحيل:

- حسنا فلنذهب. لا زال الطريق طويلا أمامنا حتى «كارلين».

في الطريق قص عليهما شفيك حكايات مختلفة فوصلا الى «كوكليك» في مزاج جيد وفعلا ما نصحهما به شفيك بالضبط، فقد وضعا بندقيتهما في المطبخ ثم انطلقوا جميعا نحو البار حيث كان الكمان والأكورديون يملآن المكان بألحان أغنية شعبية:

«في بانكراتس هضبة

يقف عليها

(1) كان أنصار النوادي الرياضية من المتحمسين الوطنيين يضعون شعار الصقر على قبعاتهم (س.ب.غ).

(2) مكان في براغ يحوي مقهى ومطعما وعدة قاعات للاستقبال وكذلك «قاعة سميتانا» وهي أكبر قاعات الحفلات الموسيقية. (س.ب.).

صف جميل من الأشجار...»

كانت هناك شابة تجلس على ركبتني شاب منهك ذي شعر مفروق وناعم تغني بصوت أجش قائلة: «كانت لدي فتاة واقفة في الصف وقد قرصتها فتاة أخرى».

وكان سكير من باعة السردين المتجولين نائماً فوق إحدى الطاولات، وكان هذا يستيقظ بين الحين والآخر فيضرب الطاولة بقبضته ويفأفئ قائلاً: «لا فائدة»، ثم ينام من جديد. تحت مرآة علق خلف طاولة البلياردو جلست ثلاث شابات أخريات كن يصرخن على حارس السكة الحديدية: «أيها الشاب، اشترلنا كأساً من الفرموت». قرب الفرقة الموسيقية كان شخصان يتشاجران حول ما إذا كانت «ماركا» قد أمسكت بها الدورية في الليلة الماضية أم لا. كان أحدهم قد شاهد حادثة القاء القبض عليها بأم عينيه، أما الآخر فكان يصر على أنها قد ضاجعت جندياً في «فندق أوفالشو».

قرب الباب جلس جندي مع عدد من المدنيين وراح يقص عليهم كيف أصيب بجراح في الحرب. كانت ذراعه مضمدة وجيوبه مليئة بلفافات التبغ التي أعطيت له. كان يقول أنه لم يعد يستطيع أن يشرب شيئاً، ولكن أحد جالسه، وهو كهل أصلع الرأس، ظل يعرض عليه كأساً من الشراب قائلاً: «تناول كأساً أخرى أيها الجندي. من يعلم ان كنا سنتقابل مرة أخرى ام لا؟ هل تريد مني أن أطلب من الفرقة أن تعزف لك شيئاً ما؟ هل تحب «الطفل اليتيم»؟ تلك كانت الأغنية المفضلة للكهل الأصلع، وسرعان ما كان الكمان والأكورديون يؤديانها، بينما امتلأت عيناه بالدموع وشرع بالغناء بصوت هائل قائلاً: «وحين نما واصبح في سن الازدراك، سأل عن أمه، سأل عن أمه...».

ومن الطاولة الأخرى قال أحدهم: «اوقف ذلك، ألا تستطيع؟ اذهب به

وحنطه! اشنق نفسك على خطاف! اذهب الى الجحيم مع طفلك اليتيم!».
ثم كورقة رابحة اخيرة انطلقت الطاولة المنافسة تغني: «الفراق الفراق
يحطم فؤادي فؤادي...»

بعد أن اسكتت الطاولة المنافسة اغنية «الطفل اليتيم» صاح الجالسون
عليها منادين الجندي الجريح: «يا فرانتا، اتركهم وتعال اجلس معنا. ليذهبوا
الى الجحيم. تعال واجلب معك لفافات التبغ. لن تستطيع تسلية اولئك
المغفلين».

استعاد شفيك ذكريات تردده على هذا المكان قبل الحرب. لقد اعتاد
مفتش الشرطة «دراشتر» ان يغير على المكان، وكان يثير الفزع في قلوب
المومسات اللواتي ألفن أغاني عنه مليئة بالتوريات. وتذكر كيف رحن مرة
يغنين في جوقة قائلات:

«حين أغار دراشتر علينا

لم تكن تخشاه مارينا.

وخلال ما تلا من الفوضى

القت بالعديدين أرضاً».

وفي تلك اللحظة من وصل يا ترى سوى دراشتر الرهيب القاسي نفسه
يصحبه رجاله. كان ذلك أشبه باطلاق النار على سرب من طيور الحجل.

قام رجال الشرطة المرتدون الملابس المدنية بتجميع كل الموجودين
في مجموعة واحدة، وقد وجد شفيك نفسه ضمنها ايضا حيث كان سيء
الحظ كالعادة وقال للمفتش دراشتر حين طلب منه ان يخرج أوراقه
الشخصية: «هل لديك اذن بهذا من رئاسة الشرطة؟» كما تذكر شفيك
أيضا شاعراً اعتاد ان يجلس هناك تحت المرأة، وكان في الضوضاء التي
تغلب على حانة «كوكليك» ووسط الألحان والأنغام الصادرة عن
الأكورديون يدبج القصائد ويتلوها على المومسات.

من ناحية اخرى لم يكن لدى حارشي شفيك مثل هذه الذكريات. فبالنسبة إليهما كانت تلك تجربة جديدة تماما وقد شرعا يجبانها. وكان اول من وجد الراحة الكاملة هنا القصير البدين منهما، حيث ان الناس من هذا النمط يميلون ليس الى التفاؤل فحسب بل الى الانغماس في الملذات الحسية. أما الطويل فقد صارع نفسه قليلا، وبما انه كان قد تخلى عن نزوعه الى الشك، فقد بدأ يفقد الآن سيطرته على نفسه تدريجيا وما تبقى لديه من وعي وحس سليم.

قال بعد كأس الجعة الخامسة حين رأى أزواج الراقصين يرقصون رقصة «السلامك»: «سأرقص أنا ايضا».

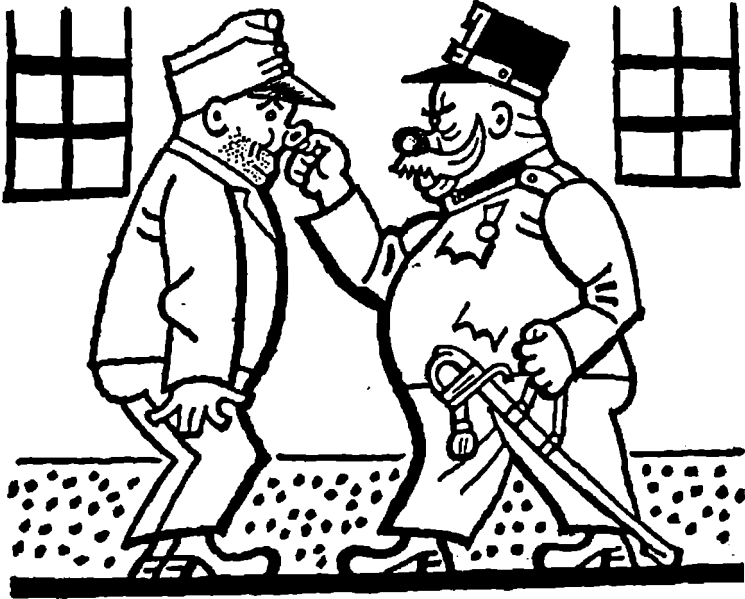
أما القصير فقد استسلم تماما للانغماس في الملذات، كما جلست إلى جانبه شابة وراحت تحكي له نكات بذيئة. كانت عيناه تطلقان الشرر.

كان شفيك يشرب، أما الطويل فقد انهى رقصته وعاد مع شريكته في الرقص الى الطاولة. ثم غنوا جميعا ورقصوا وشربوا دون توقف كما صفعوا شريكاتهم على اقفيتهن. وفي جو الحب المشتري بالمال والنيكوتين والكحول كان حاضرا باستمرار الشعار القديم: «ومن بعدنا الطوفان» وان كان الحاضرون واعين به إلا بالكاد.

وفي فترة ما بعد الظهر جاءهم جندي وعرض عليهم «بشرة وتسمما بالدم لقاء خمسة غيلدرات». كان معه محقنة للزرق تحت الجلد وقال انه يستطيع ان يزرق الكاز في سيقانهم وأذرعهم⁽¹⁾. وإذا ما حصل ذلك يستطيعون الحصول على اجازة مرضية لمدة شهرين على الأقل وإذا ما قاموا بوضع الريق على الجرح لأمكنهم على الأرجح تمديد الاجازة الى نصف عام ثم التسريح النهائي من الخدمة العسكرية.

(1) هذه طريقة مضمونة للدخول الى المستشفى. ولكن رائحة الكاز التي تبقى في البشرة والناجمة عن الزرق تفضح الحيلة. لذا فالبنزين افضل لانه يتبخر بسرعة أكبر. وفيما بعد استعمل مزيج من الاثير والبنزين في الحقن كما حدثت تحسينات اخرى لاحقة على الطريقة. (ملاحظة من المؤلف).





هذا وقد وافق الطويل النحيل، الذي كان قد فقد توازنه العقلي نهائياً، على ان يحقن وريديا في ساقه بالكازر. وقد حقنه الجندي في دورة المياه. وبما أن المساء كان وشيكاً، فقد اقترح شفيك ان يستأنفوا رحلتهم الى القسيس. ولكن القصير البدين، الذي كان قد بدأ يفقد توازنه العقلي ايضاً، حاول ان يقنع شفيك بالبقاء لفترة اخرى قصيرة. كما ان الطويل النحيل أفاد بأن القسيس يمكنه الانتظار. ولكن شفيك قال انه لم يعد يستمتع بالجلوس في حانة «كوكليك» وهدد بالانصراف وحيداً. وهكذا غادروا الحانة ولكنه اضطر الى ان يعدهم بالمرور على مكان آخر قبل الوصول الى المكان المنشود.

وقد توقفوا فعلاً في مقهى صغير في شارع «فلورنس»، حيث رهن القصير البدين ساعته الفضية حتى يستطيعوا الاستمرار بالشرب. وحين غادروا المقهى كان شفيك يجرحهما الآن من ذراعيهما. وقد سببا

له الكثير من الازعاج، فقد كانا يتعثران في سيرهما ويلحان باستمرار على المرور بحانة اخرى. هذا وكاد القصير البدين أن يضيع الرزمة المفروض تسليمها الى القسيس، وهكذا اضطر شفيك الى حملها بنفسه.

كان على شفيك أن ينيهم باستمرار كلما مرّ ضابط صف بالقرب منهم. وبعد جهود ونضالات جبارة استطاع ان يوصلهم الى ذلك المنزل في جادة كروفسكا حيث يقطن القسيس.

ثبت الحربة على بندقية كل منهما بنفسه وعن طريق نخزهما في الاضلاع اجبرهما على قيادته بدلا عن أن يقودهما هو بنفسه.

في الطابق الأول طرقتوا على الباب المصق عليه بطاقة زيارة كتب عليها «أوتو كاتس / قسيس»، ففتح لهم الباب أحد الجنود. ومن غرفة الاستقبال كان يمكن سماع أصوات مختلفة وقرع الزجاجات والكؤوس.

قال الطويل النحيل بألمانية ركيكة وهو يبذل قصارى جهده ليماسك ويحيي الجندي:

- أبلغكم... بتواضع... يا سيدي... أني أسلمكم... رزمة واحدة..
ورجلا... واحداً...

قال الجندي:

- ادخلوا. كيفما وصلتكم الى مثل هذه الحالة فإن القسيس قد وصل إليها
ايضا...

ثم بصق.

أخذ الجندي الرزمة ومضى بها الى الداخل. انتظروا في البهو لفترة طويلة حتى فتح الباب وانطلق منه القسيس خارجا كالمسهم. كان يرتدي صدرية ويحمل سيجارا في يده. قال مخاطبا شفيك:

- اذن ها أنت قد وصلت، وقد جلبك هذان الشخصان. هاي، هل معك
أعواد ثقاب؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني لا أملك أيا منها.

- ولم لا؟ على كل جندي أن يحمل أعواد الثقاب حتى يستطيع أن يشعل النار. ان الجندي الذي لا يحمل أعواد ثقاب هو... ما هو؟

أجاب شفيك:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه بدون أعواد ثقاب.

- جيد جداً. انه بدون أعواد ثقاب ولا يستطيع ان يشعل سيجارا لاي شخص. حسنا، هذه احدى النواحي الجوهرية، وإليك اخرى: هل لتقديمك رائحة كريهة ياشفيك؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه ليست لقدمي رائحة كريهة.

- حسنا، تلك كانت الناحية الثانية، اما الآن فالى الثالثة: هل تناول المشروبات الروحية؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني لا اتناول المشروبات الروحية بل شراب «الروم» فحسب.

- حسنا. هيا انظر الى هذا الجندي. لقد استعرته ليوم واحد فقط من الملازم الاول «فلدهوبر». انه وصيفه. وهو لا يشرب شيئاً على الاطلاق. انه من الممتنعين امتناعاً مطاً. مطلقاً، ولذلك سيتم إرساله الى الجبهة، لأ... لأن شخصا مثله لا يمكن ان يكون ذا فائدة لي. انه ليس وصيفا بل بقرة. فالبقرة لا تشرب سوى الماء وتخور كالثور ايضا.

قال مخاطبا الجندي:

- أنت ممتنع عن تناول المسكرات امتناعاً تاماً. يجب ان تخجل من نفسك فأنت مغفل، وتستحق بضع لكلمات على خدك.

ثم قال القسيس مخاطبا الجنديين اللذين رافقا شفيك واللذين كانا

يحاولان الوقوف باستقامة معتمدين على بندقيتيهما، ولكنهما كانا رغم ذلك يترنحان:

- أنتما ث... ثملان. لقد تناولتما المسكرات خلال أداء الواجب وسوف أس... أسجنكما بسبب ذلك. يا شفيك جردهما من السلاح وخذهما الى المطبخ. عليك بحراستهما حتى تصل الدورية لاصطحابهما. سأه... أه... أهتف للشكنة.

وبهذه الحادثة فإنه تم تأييد رأي نابليون تأييداً مطلقاً وذلك حين قال: «في الحرب يتغير الوضع في كل لحظة».

ففي الصباح كان هذان الجنديان يقودان شفيك تحت الحراب وهما يخشيان أن يفر منهما. ثم قادهما هو، والآن ها هو يحرسهما.

لم يدرك الجنديان في البداية هذا التغيير في الأوضاع، ولم يفتنا الى ذلك إلا حين جلسا في المطبخ وشاهدا شفيك يقف عند الباب حاملا البندقية والحرابة.

صاح القصير المتفائل:

- لو أن لي بكأس من الشراب.

أما الطويل فقد أصيب مرة أخرى بنوبة من الارتياب وقال ان الأمر وما فيه أن هناك خيانة قدرة، وشرع يتهم شفيك بأنه اوقعهما في هذه الورطة ولامه لأنه اخبرهما انه سيشتق في اليوم التالي. والآن أصبحا يعرفان ان مسألة الاعتراف والشنق كانت عبارة عن حيلة ليس إلا.

بقي شفيك صامتا وراح يذرع المكان جيئةً وذهاباً الى القرب من الباب.

صاح الطويل التحيل:

- نحن جحشان قدران.

وفي النهاية وبعد أن استمع الى كل التهم، صرح شفيك قائلاً:

- والآن على اية حال تستطيعان أن تدركا ان الخدمة العسكرية ليست مجرد نزهة. أنا اقوم بواجبي فحسب. لقد تورطت في هذه القضية كما حصل معكما بالضبط، ولكن كما يقول المثل: «ابتسم الحظ لي».

كرر المتفائل بلهجة يائسة:

- لو أن لي بكأس من الشراب.

نهض الطويل النحيل وترنح مسرعاً نحو الباب قائلاً لشفيك:

- دعنا نذهب كل إلى بيته، يا صديقي. لا تكن أحمق.

أجاب شفيك:

- عد الى مكانك. عليّ أن أحرصكما. من الآن فصاعدا لا أعرفكما ولا

تعرفاني.

- لم... لم استطع الاتصال بالشكنة، لذا اذهبا الى بيتكما وتذك... تذكرنا

أن عليكما ألا تسكرا خلال أداء الواجب. أمام سرا

وحتى نبرئ القسيس فإن علينا ان نقول أنه لم يستطع الاتصال بالشكنة

لانه لم يكن لديه هاتف في المنزل وإنه كان يتكلم في الواقع الى حاملة

المصباح.

2

مرت ثلاثة أيام على شفيك وهو يعمل كوصيف للقسيس، ولكنه لم يره

خلال هذه الفترة كلها إلا مرة واحدة. وفي اليوم الثالث وصل وصيف

الملازم الأول «هلمينخ» ليقول لشفيك إن عليه أن يذهب ليحضر قسيسه.

في الطريق حكى لشفيك أن القسيس تشاجر مع الملازم الأول وحطم له

البيانو، وأنه ثمل الى أقصى حد ويرفض الذهاب الى بيته.

كان الملازم الأول هلمينخ ثملا ايضا وقد طرد القسيس خارجا الى

الدهلينز، حيث كان جالسا هناك على الأرض عند البوابة وقد غلبه النعاس. حين وصل شفيك الى المكان هز القسيس ليوقطه، وحين بدأ ذاك يدمدم متذمرا وفتح عينيه، حياه شفيك تحية عسكرية وقال:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني هنا.

- ما الذي تريده من هنا؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني حضرت لاصطحابكم.

- اذن، فقد اضطررت الى الحضور لتصطحبني، أليس كذلك؟ وأين

سنذهب؟

- الى شقتكم يا سيدي.

- ولماذا عليّ الذهاب الى شقتي، ألسنت فيها الآن؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انكم في دهليز منزل شخص آخر.

- وكيف وصلت الى هنا؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انكم كنتم هنا في زيارة.

- لا، لي... ليس في زيارة. أنت ع... على خطأ.

رفع شفيك القسيس وسنده الى الحائط. كان القسيس يترنح من جانب الى آخر ويتمايل على شفيك قائلا: «ها أنذا ارتمي عليك»، ثم كرر مع ابتسامة بلهاء: «ها أنذا ارتمي عليك». وأخيراً نجح شفيك في تثبيت القسيس الى الجدار فبدأ في هذه الوضعية الجديدة يغط في النوم مرة اخرى.

أيقظه شفيك فسأله القسيس:

- ما الذي استطيع ان افعله من أجلك؟

كان يحاول عبثا ان ينزلق على الجدار ليجلس على الأرض.

ثم قال:

- ومن أنت على اية حال؟

اجاب شفيك وهو يسند القسيس مرة اخرى الى الجدار:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انني وصيفكم ايها الموقر، يا سيدي.

قال القسيس بصعوبة وهو يحاول مرة اخرى الارتقاء على شفيك:

- ليس لديّ وصيف، كما انني لست بـ «الموقر».

ثم اضاف بصدق المخمور:

- أنا خنزير. إخلّ سبيلي يا سيدي فأنا لا أعرفك.

وقد انتهت هذه المشادة الصغيرة بانتصار كامل لشفيك. وقد استغل هذا

الانتصار ليجر القسيس على الدرجات ونحو مدخل البناء، حيث حاول القسيس

أن يمنعه من جرّه الى الشارع. لقد ظل يقول لشفيك خلال ذلك الصراع:

- لا أعرفك يا سيدي. هل تعرف أوتو كاتس؟ انه أنا.

ثم صرخ وهو يتمسك بالبوابة التي عند مدخل البناء:

- لقد كنت مع رئيس الأساقفة. الفاتيكان مهتم بي. ألا تفهم؟

تخلّى شفيك الآن عن «ابلاغكم بتواضع يا سيدي» وراح يتحدث الى

القسيس مع رفع الكلفة:

- هيا وإلا سحقت يدك. سنذهب الى البيت دون مزيد من الهراء. اخرس

فحسب.

تخلّى القسيس عن البوابة ثم ترنح على شفيك وهو يقول:

- حسناً، لنذهب الى مكان ما، ولكنني لن اذهب الى «أوشوهو⁽¹⁾»، فعليّ

ديون هناك.

دفعه شفيك ثم حمله خارجا به من مدخل البناء وجرّه على امتداد

الرصيف باتجاه منزله.

سأل أحد المارة في الشارع:

(1) وهو ماخور سيء السمعة. (س.ب).

- من هذا السيد؟

أجاب شفيك:

- انه أخي، وهو في اجازة الآن وقد اتى لزيارتي. وقد اسعدته هذه الاجازة الى حد انه سكر. لقد كان يظن اني قد مت.

دندن القسيس، الذي التقط آخر هذه الكلمات، لحنا من أوبريت كان متعذراً تمييزها، ثم نهض وخاطب المشاهدين من المارة قائلاً:

- ان على الميت منكم ان يتقدم الى قيادة الجيش خلال ثلاثة ايام حتى يتم رش جثمانه بالماء المقدس.

ثم صمت محاولاً ان يستأخر على وجهه فوق الرصيف، بينما شفيك يمسك به من تحت ذراعه ويجره نحو البيت.

وها هو القسيس يهمهم لنفسه باللاتينية ورأسه مدفوع نحو الأمام بينما ساقاه تتجرجران من خلفه وتدلّيان كأنهما لهرة كسر عمودها الفقري:

- السلام لجميعكم - ومع روحك أيضاً - السلام لجميعكم!

وحين وصلا الى موقف عربات «الدروشكي» (عربات روسية الطراز)، أسند شفيك القسيس الى الجدار ثم ذهب ليساوم الحوذي.

قال أحد الحوذيين أنه يعرف السيد جيداً، وأنه قد نقله في عربته مرة ولن يعيدها كرة أخرى.

قال بصراحة:

- لقد تقياً على كل شيء، ولم يدفع الأجرة حتى. لقد ركب معي اكثر من ساعتين حتى وجد مكان اقامته. وبعد اسبوع واحد فحسب، وبعد أن رأته ثلاث مرات على الاقل، دفع لي اجرتي أخيراً، وكان المبلغ كله عبارة عن خمسة كراونات لا غير.

وبعد طول مساومة وافق أحد الحوذيين على اصطحابهما.

عاد شفيك الى القسيس الذي كان نائماً. كان أحدهم قد سرق قبعته السوداء المستديرة (حيث كان يرتدي في العادة ملابس مدنية حين يود الخروج لغير العمل).

ايقظه شفيك واستطاع بمساعدة الحوذي ان يركبه «الدروشكي». وما أن أصبح في داخلها حتى وقع في حالة خدر كامل. ثم افاق قليلاً ليظن ان شفيك هو العقيد «يوست» من اللواء الخامس والسبعين مشاة، فقال عدة مرات:

- لا تغضب ان خاطبتك باسمك الأول يا صديقي. أنا خنزير.

بدا في لحظة من اللحظات ان ارتجاجات «الدروشكي» خلال سيرها على الحصى المرصوفة به الشوارع ستعيده الى رشده، فقد جلس باستقامة وبدأ يغني مقطعاً من أغنية غير معروفة. ربما كانت من بنات أفكاره:

«أتذكر تلك الأيام الجميلة

حين كان يهزني على ركبته.

كنا نعيش تلك الأيام

في ميركلين الى القرب من دوما جليته».

بعد فترة وقع في حالة الخدر مرة اخرى. ثم افاق واستدار نحو شفيك وغمره بعينه وقال: «كيف حالك اليوم يا سيدتي؟...».

ثم قال بعد فترة صمت قصيرة، ويبدو انه كان يرى الاشياء مزدوجة الآن:

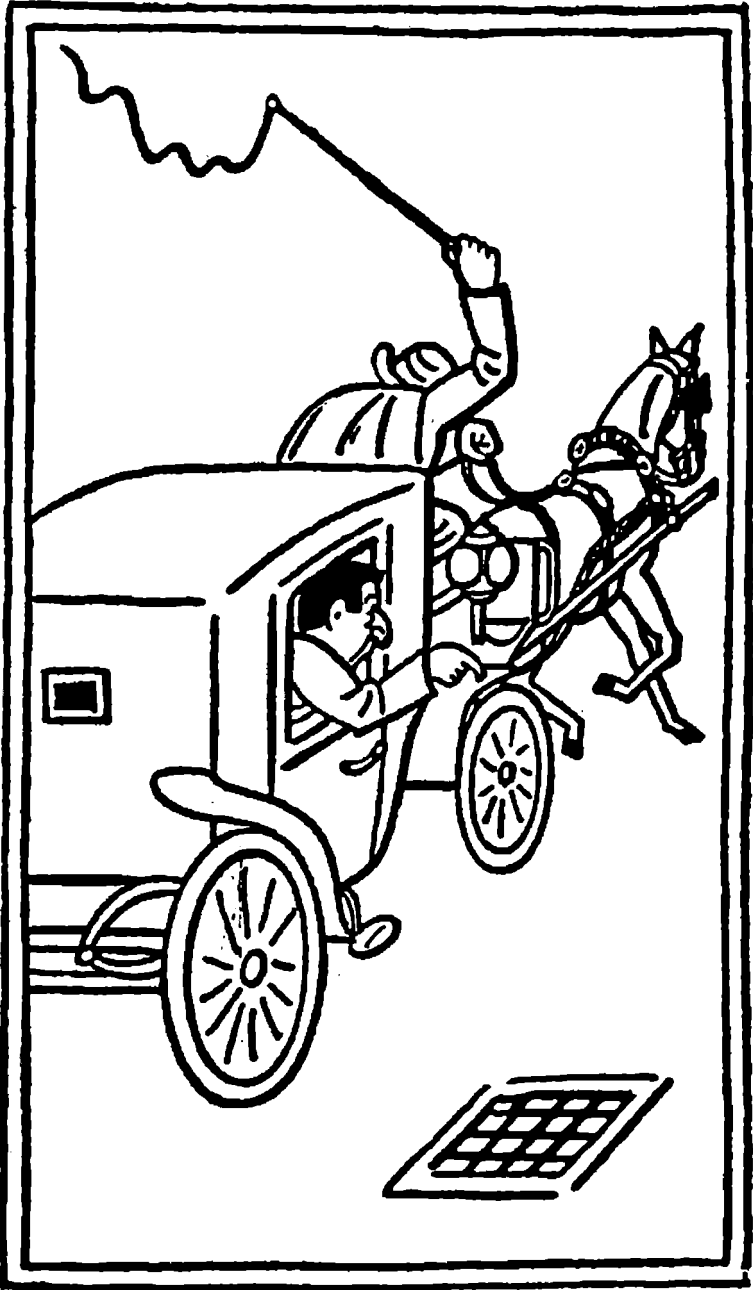
«هل ستذهبن الى مكان ما في هذا الصيف؟ اذن أصبح لديك ابن الآن،

أليس كذلك؟»

قال ذلك وهو يشير الى شفيك.

صرخ به شفيك حين حاول ان يقفز من مقعده:

«اجلس! وإلا لقتك درساً في السلوك!»



هدأ القسيس وبدأ يحدق الى خارج «الدروشكي» بعينه الصغيرتين
النهمتين. كان لا يدري اطلاقاً بما يحدث له.

لم يعد يدري أين هو، فاستدار نحو شفيك وقال بوهن: «سيدتي، أريد
خدمة من الدرجة الأولى». ثم حاول ان يفك حزام بنطاله وينزله.
صاح به شفيك:

- ارفع بنطالك فوراً أيها الخنزير! كل الحوذيين يعرفونك جيداً الآن. لقد
تقيأت على نفسك في المرة الماضية، والآن تفعل هذا!!! لا تتصور أنك
ستنجو هذه المرة دون أن تدفع كما حدث في المرة الأخيرة.

أسند القسيس رأسه الى يديه وتعبير كئيب على وجهه ثم انطلق يغني: «لم
يعد يحبني أحد...» ولكنه قطع اغنيته فجأة وقال بالألمانية:

- اعدرنى أيها العجوز، ولكنك أحق حقير. استطع ان اغني كما أحب.
بدا عليه وكأنه يريد ان يصفرّ لحنا ما، ولكنه تجشأ بدلاً عن ذلك وبقوة
والى حد أن «الدروشكي» توقفت تماماً.

وحين استأنفوا المسير بعد ذلك بناء على أمر من شفيك. حاول القسيس
اشعال حاملة اللفافات (المبسم).

قال بقنوط بعد أن استهلك علبة ثقاب كاملة:

- انها لا تشتعل. أنت تنفخ عليها.

ولكنه فقد الخيط مرة اخرى في هذه اللحظة وبدأ يضحك قائلاً:

- هذا مزاح. نحن وحيدان في الحافلة، أليس كذلك ايها الزميل

العزيز؟

ثم بدأ يفتش في جيوبه وصاح فجأة:

- لقد اضعت تذكرتي. توقف، يجب أن اجد تذكرتي.

ثم لوّح بيده مستسلماً وقال:

- حسنا، لتتابع...

ثم بدأ يتساءل قائلاً:

- في معظم الحالات... نعم... حسنا... في كل الحالات... أنت مخطئة تماما.. الطابق الثاني!.. هذا مجرد عذر... ليس هذا من شأنى بل من شأنك أنت يا سيدتي العزيزة... الفاتورة من فضلكم... لقد شربت فنجان قهوة سادة...!

وفيما بدا انه نصف حلم بدأ يتشاجر مع عدو خيالي كان يناقشه حول حقه في الجلوس الى جانب النافذة في احد المطاعم، ثم بدأ يظن ان «الدروشكي» قطار، وبدأ يصرخ بالتشكيكية وبالالمانية وهو يتدلى من النافذة قائلاً: «هنا نيمبروك، على الجميع تغيير الحافلة».

جذبه شفيك الى الداخل فنسى القسيس حكاية القطار وبدأ يقلد أصوات الحيوانات المختلفة. وقد توقف فترة طويلة عند صوت الديك وكان تقليده لصياح الديك يدوي منتصرا من «الدروشكي».

ظل لبعض الحين نشيطا وقلقا بل وحاول ان يرمي بنفسه من «الدروشكي» وهو يسب المارة ويدعوهم بغلمان الأزقة. ثم رمى بمنديله خارج العربة وصاح بأن عليهم التوقف لأنه أضاع أمتعته. ثم بدأ يقص حكاية قائلاً: «في بوديوفيتسه عاش مرة طبال. ثم تزوج. وبعد عام مات». ثم انفجر ضاحكا: «أليست هذه حكاية جيدة؟».

خلال هذه الفترة كان شفيك يعامل القسيس بقسوة لا هوادة فيها.

وفي المناسبات العديدة التي حاول فيها القسيس ممارسة بعض الحيل على شفيك، مثل ادعاء السقوط من العربة، او كسر المقعد، كان شفيك ينخسه في اضلاعه مرة او مرتين، وكان القسيس يتقبل تلك النخسات ببرود استثنائي.

لم يحاول التمرد والقفز من العربة سوى مرة واحدة، وهو يقول انه لن يتابع المسير وانه يعلم انهم ذاهبون الى «بود موكلي» بدلا عن «بوديوفيتسه». وخلال دقيقة واحدة قضى على تمرده تماما وأجبره على العودة الى وضعه السابق فوق المقعد، مع الحرص على ألا يدع الفرصة له لينام. وقد كان أرق ما قاله له خلال ذلك كله هو: «لا تنم يا رمز الموت!».

وفجأة اصيب القسيس بنوبة من الكآبة وبدا ينشج، ويسأل شفيك ان كانت له أم.

صاح وصوته ينطلق من العربة:

- أيها الناس، أنا وحيد تماما في هذا العالم. اعتنوا بي!

وبخه شفيك قائلا:

- لا تفضحنا. توقف عن هذا وإلا ظن الجميع انك سكران.

أجاب القسيس:

- لم اشرب رشفة واحدة حتى. أنا صاح تماما.

ولكنه نهض فجأة وأدى التحية العسكرية وقال بالألمانية:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أني ثمل.

ثم كرر عشر مرات بالتتابع وبيأس كامل وحقوقي: «أنا خنزير قدر».

ثم التفت نحو شفيك وهو يرجوه ويتوسل إليه بالحاح قائلا:

- الق بي خارج العربة. لماذا تصطحبني معك؟

ثم جلس وهمهم:

- هناك حالات تتشكل حول القمر. أيها القبطان، هل تؤمن بخلود

الروح؟ هل يمكن لحصان أن يدخل الجنة؟

ثم بدأ يقهقه، ولكنه عاد فاكتأب مرة اخرى ونظر الى شفيك وقال:
 - اعذرني يا سيدي ولكنني شاهدتك سابقا في مكان ما. هل سبق لك
 وكنت في فيينا؟ اتذكر اني رأيتك في المعهد اللاهوتي.
 ثم راح يسلي نفسه لفترة عن طريق تلاوة اشعار لاتينية: «العمر الأول!
 اكتفى عمراً، الذي لم ينتصر على شيء...»
 ثم قال:

- لا استطيع الاستمرار. إلق بي خارجا. لماذا لم تلق بي خارجا؟ لن
 أوذي نفسي أبداً.

ثم أعلن بصوت ملوّه التصميم: «لن اسقط على أنفي».

وبعدها استأنف مرة اخرى بتوسل:

- سيدي، يا سيدي العجوز العزيز، الكمني على فكي لكمة واحدة.
 سأل شفيك:

- لكمة واحدة او عدة لكمات؟ اثنتان؟ إليك بهما...

عدّ القسيس اللكمات بصوت مرتفع ووجهه يشرق بسعادة طول
 الوقت.

قال:

- هذه اللكمات تجعلني اشعر اني على ما يرام. انها تساعد المعدة
 وتسهل الهضم. اعطني لكمة اخرى.

وحين لبّى شفيك طلبه فوراً قال:

- شكرا جزيلاً. أنا راض تماما. افتح لي صدريتي من فضلك.

أخذ يعبر عن مختلف الرغبات: أراد من شفيك ان يخلع له ساقه: ان
 يخنقه قليلا، ان يقلع له أظافره وأسنانه الأمامية.

كما عبّر عن توقه الى الاستشهاد، وطلب من شفيك ان يقطع له رأسه
 وان يرمي به في نهر فلتافا بعد وضعه في كيس.

قال بحماسة:

- بعض النجمات حول رأسي ستنا سبني تماما. سأحتاج الى عشر منها⁽¹⁾.
ثم بدأ يتحدث عن الأجناس ومنها انتقل بسرعة الى فن الباليه ولم يتوقف
كثيرا عند هذا ايضا.

سأل شفيك:

- هل ترقص التشارداش⁽²⁾؟ هل تعرف رقصة الدب؟ هكذا...
حاول القفز في الهواء ولكنه سقط فوق شفيك الذي بدأ يلكمه ثم مدده
فوق المقعد.

صاح القسيس:

- أريد شيئا ما، ولكني لا اعرف ما هو. ألا تعرف ما أريد؟ ثم نكس رأسه
مستسلما تماما وقال برزانة:

- أي شأن لي فيما أريد؟ كما أنه ليس من شأنك ايضا. أليس كذلك يا
سيدي؟ أنا لا اعرفك. كيف تجرؤ على توبيخي؟ هل تعرف كيف تبارز
بالسيف؟

ولبرهة أصبح أشد عدوانية وحاول دفع شفيك بعيدا عن المقعد.
وحين هدأ شفيك من روعه ولم يتورع عن جعله يذوق طعم تفوقه
البدني، سأله القسيس:

- هل اليوم هو الاثنين ام الجمعة؟

كما كان تواقا لمعرفة ان كان الشهر هو كانون الأول (ديسمبر) أم
حزيران (يونيو) كما ابدى استعداداً عظيماً ل طرح اكثر الاسئلة تنوعا
مثل: «هل أنت متزوج؟ هل تحب الغورغو نزولا⁽³⁾؟ هل لديك بق في

(1) اشارة اخرى الى القديس جون النيوموكي. كان لتمثال القديس عشر نجمات فوق هاتنه،
وهي ترمز الى المعجزات التي حدثت خلال استشهاده. (س. ب).

(2) رقصة وطنية هنغارية. (المرجم).

(3) جبن أزرق ايطالي الاصل. (المرجم).

البيت؟ هل أنت على ما يرام؟ هل لكلك مزاج سيء؟».

أصبح كثير الكلام، وحكى انه مدين بثمان بنطال ركوب وسوط وسرج،
وانه أصيب بمرض تناسلي منذ بضع سنوات وقد عالجه بالبرمنغوات.

قال وهو يتجشأ:

- لم يكن هناك مجال لمحاولة استخدام اي علاج آخر، فالوقت لم
يسعفنا. وقد يبدو الامر فظيعا، ولكن قل لي، هي.. هي... ما الذي افعله،
هي.. هي...؟ عليك ان تغفر لي.

استأنف قائلا بعد ان نسي ما كان يتحدث عنه منذ لحظة:

- «الترموس» هو اسم الإناء الذي يحافظ على دفء المشروبات والطعام.
اي لعبة تظنها افضل يا زميلي العزيز؟ «القربل» او «الواحد والعشرون»؟
ثم صاح وهو يحاول معانقة شفيك وتقيله بشفاه مبلة باللعباب:
- حقا، لا بد اني رأيتك في مكان ما من قبل. لقد كنا في المدرسة معا.
أنت رجل طيب.

ثم ربت على ساقه وقال:

- لقد كبرت كثيرا منذ ان رأيتك آخر مرة. إن سروري برويتك
مرة اخرى يعوضني عن كل المعاناة التي كابدها.
ثم انتابه مزاج شعري وبدأ يتحدث عن العودة الى بهجة الوجوه السعيدة
والافئدة الرقيقة.

ثم ركع وبدأ يصلي «آفيه ماريا» وهو يضحك ضحكا مبالغا فيه.

وحين وصلوا أخيراً الى القرب من شقته، كان صعبا اخراجه من
الدروشكي. صرخ:

- لم نصل بعد. النجدة! انهم يخطفونني! اريد الاستمرار في السير.
وقد اخرج عنوة من الدروشكي كما يخرج الحلزون المغلي من قوقعته.

وقد بدا للحظة وكأنه سينشطر الى شطرين، لأن ساقيه علقتا خلف المقعد.

ضحك بصوت عال لدي حدوث ذلك قائلاً انه قد خدعهم، ثم اضاف:

- أنتم تشطرونني الى شطرين ايها السيدان.

ثم جراه عبر مدخل البناء والدرج الى شفته، وما ان اصبحوا داخلها حتى رمياه فوق الاريغة كأنه كيس ولكنه اعلن انه لن يدفع اجرة العربة حيث انه لم يطلبها، وقد ظل اربع ساعة يشرحان له انها دروشكي وليست عربة.

ومع ذلك لم يوافق حيث قال انها كانت عربة اجرة صغيرة.

قال وهو يغمز غمزة العارف لشفيك وسائق الدروشكي:

- أنتما تحاولان غشي. لقد جننا الى هنا سيراً على الاقدام.

وفجأة، وفي نوبة من نوبات الكرم الفجائية، رمى بمحفظة نقوده الى السائق وقال:

- خذها كلها. استطيع ان ادفع. كرويتزر واحد ناقص او زائد لا فرق.

كان عليه ان يقول «سته وثلاثين كرويتزراً» حيث كانت محفظته لا



تحتوي سوى على هذا المبلغ. ولحسن الحظ، اخضعه السائق لتفتيش شامل، وهو يتحدث عن ضربات عنيفة على الوجه خلال عملية التفتيش.

قال القسيس:

- حسنا. اضربني اذن. هل تظن اني لا استطيع تحمل ذلك؟ استطيع تحمل خمسة ضربات منك.

في جيب صدرية القسيس وجد السائق عشر كروانات. ثم انطلق بعيدا وهو يسب حظه العاثر ويسب القسيس لأنه اضاع له وقته وخرب عليه تجارته.

لم ينم القسيس إلا بعد مرور بعض الوقت لانه استمر في اختراع الخطط الجديدة. أراد ان يفعل كل شيء، ان يعزف على البيانو وان يتلقى دروسا في الرقص وان يقلي السمك.

ثم وعد شفيك بتزويجه من أخته، رغم انه لم يكن لديه اخوات. كما طلب ان يؤخذ الى الفراش، ونام أخيراً وهو يؤكد انه يرغب في ان يعامل ككائن إنساني وهي كينونة ذات قيمة بقدر ما هي كينونة الخنزير.

3

حين دخل شفيك غرفة القسيس في الصباح، وجده ممدداً على الاريقة وهو يفكر محتاراً في الطريقة التي حدث فيها ان بلله شخص ما بتلك الطريقة العجيبة والى حد انه اصبح ملتصقا بجلد الاريقة من بنطاله.

قال شفيك: «أبلغكم بتواضع يا سيدي انكم في الليل...».

وبكلمات قليلة شرح للقسيس انه على خطأ اذ يظن انه قد بلل. كان القسيس في حالة من الكآبة حيث ان آثار اسرافه في الشراب في الليلة الماضية كانت لا تزال تثقل عليه الى حد كبير.

- استطيع ان اتذكر كيف نهضت من السرير ونمت على الاريقة.

- لم تكن في سريرك ابداً يا سيدي. ما أن وصلنا الى هنا حتى مددناك على الاريقة. هذا كل ما استطعنا عمله.

- وماذا فعلت؟ هل ارتكبت شيئاً. هل كنت ثملاً يا ترى؟

- ليس نصف ثمل، بل ثملاً تماماً يا سيدي. كما انتابتك حالة صغيرة من الهديان. اعتقد انك لو بدلت ثيابك واغتسلت فسوف تشعر ببعض التحسن كما آمل.

- اشعر وكأن شخصاً ما قد جلدني. وأنا ظمآن ايضاً. هل تشاجرت مع شخص ما البارحة؟

- لم يكن الامر شيئاً الى ذلك الحد يا سيدي. وظمأك الآن نتيجة للشراب الذي تناولته البارحة. لا يستطيع المرء التغلب على ذلك بهذه السرعة. كنت اعرف نجارا للموبيليا سكر للمرة الأولى في ليلة رأس سنة عام (1910)، وفي صباح الأول من كانون الثاني (يناير) اصيب بعطش شديد وأحس بالضييق الى درجة انه ذهب واشترى بعض سمك الرنكة المملح وعاد للشرب مرة اخرى. وقد استمر يفعل ذلك كل يوم لمدة اربع سنوات، ولا يمكن لاي شخص ان يساعده لانه يشتري عادة السمك المملح يوم السبت وبكمية تكفيه طوال الاسبوع. انها دوامة حقيقية، كما كان الرقيب الاول في الفوج الواحد والتسعين يقول لنا دائماً.

كان القسيس يعاني من آثار الاسراف في الشراب الى حد كبير ومن الاحباط الكامل. واي شخص كان يصغي إليه في تلك اللحظة كان سيقنع بأنه من المواظبين على حضور محاضرات «الدكتور الكسندر باتييك»: «علينا ان نعلنها حرباً حتى الموت على شيطان الكحول الذي يذبح أفضل رجالنا»، وانه كان يطالع مقاله: «مئة شرارة اخلاقية».

وقد عدلها على نحو طفيف، وهذا صحيح، حيث قال:

«إذا احتسيت المشروبات النبيلة كالعرق والمرسكينو⁽¹⁾ والكونياك: فهذا حسن. ولكنني شربت البارحة بعض البروروفيتشكا⁽²⁾ المرعب. وأنا

(1) Marascino شراب مسكر يصنع من عصير الكرز البري المخمر. (المترجم).

(2) Bororivcka وهو «شبنس» يصنع من العرعر. (س. ب.).

مندهش لاني استطعت ابتلاع كل ذلك الشراب. كان مذاقه كريها. كم اتمنى لو انه كان شراب «الغريوت»! الناس تفكر بمختلف أنواع القذاره وتشربها كأنها الماء. ان ذلك البوروفيتشكا ذو طعم سيء حتى، وليس له اي لون ويحرق حنجرتك. كم اتمنى لو انه كان من انواع الشراب الاصلية، ومقطرا من العرعر، كذاك الذي احتسيته مرة في مورافيا! ولكنه كان مصنوعا من نوع من كحول الخشب والزيت المعطرة. انظر إليّ كيف اتجشأ.

- الكحول سم! يجب ان يكون الشراب اصليا وحقيقيا وليس مصنوعا على نحو تركيبى في معمل كما تفعل اليهود. وهذا الأمر ينطبق على شراب الروم، فالروم الجيد من الأمور النادرة.

- لو انه توفر لنا هنا بعض «الأوريخوفكا»⁽¹⁾ الأصلي فحسب». وهنا تنهد ثم استأنف قائلا: «لكنك اصلحت به معدتي. كذلك النوع من الأوريخوفكا الذي يملكه النقيب شنابل في بروسكا. ثم بدأ يفتش في جيوبه ويفحص محفظة نقوده.

فكر قائلا:

«لدى ستة وثلاثون كروتيزا فحسب. ما رأيك في بيع الاريكة؟ ما تقول في ذلك؟ هل سيقبل احد شراءها؟ سأقول لصاحب البيت اني اعرتها لشخص ما او ان شخصا ما قد سرقها. لا، لا سأبقي الاريكة. سأرسلك الى النقيب شنابل لتطلب منه ان يقرضني مئة كراون. لقد كسب اول البارحة في لعب الورق. وإذا لم تحصل على شيء منه فأذهب الى الشكنة في «فرشوفيتسه» وأسأل عن الملازم الاول «مالر». وإذا لم تفلح في الاقتراض منه، يمكنك الذهاب الى هرادتشانى والسؤال عن النقيب «فيشر». يمكنك أن تقول له إن عليّ ان ادفع ثمن علف لحصاني واني انفقت أموالى على

(1) وهو شنبس مصنوع من الجوز. (س. ب).

الشراب. وإذا لم يفلح الحظ معه، سترهن البيانو وليكن ما يكون. سأكتب لك بضعة اسطر عامة. لا تدع احداً يماطلك. قل اني في حاجة الى المال واني مفلس تماما. اخترع ما تريد، ولكن لا تعد خالي الوفاض، وإلا ارسلتك الى الجبهة. اسأل النقيب شنابل عن المكان الذي يشتري منه الأوريوخوفكا واشتر لي زجاجتين منه».

أدى شفيك مهمته على افضل نحو. لقد اكسبه اخلاصه ووجهه الذي يوحي بالأمانة الثقة الكاملة. ولم يشك احد في صدق كلامه.

لقد وجد انه من المناسب في حضرة النقيب شنابل والنقيب فيشر والملازم الاول مالر ألا يقول ان القسيس كان مضطراً إلى دفع ثمن علف حصانه ولكن ليدعم طلبه للقرض قال إن القسيس كان مضطراً إلى دفع نفقة أبويه. وقد اعطي مالا في الأماكن الثلاثة.

وبعد ان أبلى بلاء حسنا وبشرف في مهمته، دخل على القسيس وهو يلوح بالثلاثمئة كراون، مما جعل القسيس، الذي كان في تلك الاثناء قد استحم وارتدى ملابس نظيفة، يشعر بدهشة كبيرة.

قال شفيك:

- لقد اصطدت كل العصافير بحجر واحد وذلك حتى لا نزعج رؤوسنا بالتفكير في المال غدا او بعد غد. لقد سارت الامور على أحسن ما يرام، ولكنني اضطررت الى الركوع على ركبتي امام النقيب شنابل. انه خنزير حقيقي. ولكنني حين قلت له اننا مضطرون لدفع النفقة...

كرر القسيس وهو في حالة من الفزع:

- النفقة؟!!

- أجل النفقة يا سيدي، التعويض الذي يدفع للنساء كما تعرف. قلت لي إن علي أن اخترع شيئاً ما فلم اجد شيئاً آخر. في المكان الذي جئت منه دفع اسكافي النفقة لخمس فتيات مختلفات. كان بانسا تماما بسبب ذلك

واضطر الى الاقتراض ايضا. ولكن كان الجميع مستعدين لتصديق انه كان في وضع مرعب. وقد سألوني عن الفتاة وأحوالها وقلت انها جميلة جدا وانها لم تبلغ الخامسة عشرة بعد. وهكذا طلبوا مني عنوانها.

تنهد القسيس وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يقول:

- لا شك انك افسدت الأمر كله.

ثم استأنف وهو يمسك برأسه بقوة:

- هذه فضيحة صغيرة أخرى. اعاني من صدام رهيب.

قال شفيك:

- لقد اعطيتهم عنوان سيدة عجوز صماء في الشارع الذي اقيم فيه. اردت ان انجز الأمر على افضل نحو، حيث ان الأوامر هي الأوامر. ما كنت لأدعهم يماطلونني وكان عليّ ان اخترع شيئا ما. والآن ها هم ينتظرون في البهو من اجل البيانو. لقد جلبتهم الى هنا حتى يأخذوه الى مكتب الرهونات يا سيدي. لن يكون هناك ضرر لو تم ترحيل البيانو. سيصبح المكان ارحب كما سنكسب المزيد من المال على اية حال. كما أننا سننعم بالهدوء ليوم او اثنين. وإذا ما سألنا صاحب البيت عما نريد ان نفعله بالبيانو، سأقول له ان بعض الأوتار قد تقطعت وانا نقوم بإرساله الى الورشة لاصلاحه. لقد سبق لي واعلمت البوابة بذلك حتى لا تستغرب حين يحملون البيانو ويضعونه على عربة النقل. كما اني وجدت من يشتري الأريكة. انه صديق لي، تاجر اثاث مستعمل، وسيأتي الى هنا في فترة بعد الظهر. الأرائك الجلدية غالية الثمن في هذه الأيام.

سأله القسيس وهو لا زال ممسكا برأسه بشدة وقد بدا عليه اليأس:

- أهذا كل ما فعلته يا شفيك؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني جلست بدلا عن زجاجتين من

الأورويخوفكا من النوع الذي يشتريه النقيب شنابل خمس

زجاجات، وذلك حتى يكون لدينا احتياطي من الشراب. هل يمكنهم الدخول لأخذ البيانو قبل ان يغلق مكتب الرهونات أبوابه؟.

لوح القسيس بيده يائسا، وما هي إلا دقائق قليلة حتى كان البيانو محمولا على العربة.

حين عاد شفيك من مكتب الرهونات وجد القسيس جالسا امام زجاجة مفتوحة من الاوريخوفكا وهو يشتم ويسب لان شريحة اللحم التي قدمت له على الغداء كانت اقل نضجا من المطلوب.

كان قد أبحر من جديد في محيط من النشوة، وصرح لشفيك انه اعتبارا من الغد سيبدأ بحياة جديدة. ان شرب الكحول عبارة عن مادية مبتذلة وعلى المرء ان يعيش حياة روحانية.

تحدث لنصف ساعة حديثا فلسفيا. وحين فتح الزجاجاة الثالثة، وصل تاجر الاثاث المستعمل، وباعه القسيس الأريكة لقاء اغنية. ثم دعاه لتبادل الاحاديث وشعر بالخيبة حين اعتذر التاجر فإن عليه ان يذهب الى مكان آخر لشراء كومودينة.

بعد أن غادر تاجر الاثاث المستعمل الشقة، فتح القسيس حديثا وديا مع شفيك حيث شرب معه زجاجة اخرى. وكان جزء من هذا الحديث يتعلق بموقفه الشخصي من النساء ولعب الورق.

كانا قد جلسا لفترة طويلة ثم حل المساء وما زالوا يتحدثان حديث الأصدقاء.

وفي الليل تغيرت العلاقة بينهما على اية حال. عاد القسيس الى الحالة التي كان عليها في الأمس، وبدأ يرى في شفيك شخصا آخر وقال له:

- لا، لا تغادر الآن! هل تذكر ذلك الطالب الضابط الأحمر الشعر في قطار البضائع؟.

واستمر يعزف على هذا اللحن حتى قال شفيك:

- انظر إليّ، لقد مللت. والآن ستقوم الى فراشك وتغفو قليلا، اتفهمني؟
 - سأقوم الى فراشي يا صديقي العزيز، سأقوم، ولماذا لا اقوم الى الفراش؟ هل
 تذكر كيف كنا في الصف الخامس معا وكيف كنت اكتب عنك واجباتك
 المدرسية في مادة اللغة اليونانية؟ لديك فيلا في زبراسلاف. ويمكنك الذهاب
 بالباخرة عبر الفلتافا. هل تعرف ما هو الفلتافا؟
 أجبره شفيك على خلع حذائه وملابسه. أطاعه القسيس مع احتجاج موجه
 الى اشخاص مجهولين.

قال مخاطبا الخزانة وشجرة الزينة⁽¹⁾:

- أترون ايها السادة كيف يعاملني اقربائي؟

ثم قال فجأة وهو يتمدد على السرير:

- لا اعرف اقربائي. وحتى لو تأمرت السماء والأرض ضدي، فاني لا
 اعرفهم... ثم دوت الغرفة بشخير ه.

* * *

4

في تلك الأيام أيضا ذهب شفيك لزيارة العجوز السيدة مولر. وفي شفته
 وجد شفيك ابنة عمها التي أخبرته والدموع في عينيها أن السيدة مولر قبض
 عليها ليلة أن قادت شفيك نحو الحرب في كرسي ذي عجلات. لقد
 حوكت السيدة مولر أمام محكمة عسكرية ميدانية، وبما انهم لم يجدوا
 اي دليل ضدها، فقد أرسلت الى معسكر اعتقال في «شتاينهوف». ولقد
 سبق لها وأرسلت بطاقة بريدية.

أمسك شفيك بالآثر المقدس الثمين وقرأ ما يلي:

«عزيزتي أنينكا:

(1) Ficus وتعني شجر المطاط او ما يسمى في العامية «الكاوتشركة». (المترجم).

نحن نستمتع كثيراً بالاقامة هنا. كلنا بخير. المرأة التي تنام في السرير المجاور لي قد تبقع جلدها.. كما ان هناك أناساً مصابين بالجذام... ومن نواح أخرى فإن كل شيء على ما يرام.

لدينا الكثير من الطعام كما اننا نجتمع البطاطا... للحساء. لقد سمعت ان السيد شفيك قد سبق له و... لذا يرجى البحث عن مكان دفنه حتى نستطيع ان نزخرف له قبره بعد الحرب. لقد نسيت ان اقول لك إنك تستطيعين ان تجدي في الزاوية اليمنى من العلية كلباً صغيراً في علبه، وهو جرو من نوع البشير الصغير. ولكنه لم يأكل منذ اسابيع عديدة منذ ان أتوا ليقبضوا عليّ بسبب... لذا افترض انه قد سبق السيف العذل وان الكلب الصغير يستريح الآن مع...».

هذا وقد ختمت الرسالة كلها بخاتم وردي اللون مكتوب عليه بالألمانية: «مراقب من قبل معسكر الاعتقال الامبراطوري والملكي في شتاينهوف».

وهنا بكت ابنة عم السيدة مولر وقالت:

- لقد كان الكلب الصغير ميتاً بالفعل، كما انك لن تميز شفتك ايضاً اذ تسكن هنا الآن بعض الخيانات وقد حولن الشقة الى دار حقيقية للأزياء النسائية وتستطيع ان ترى صوراً للأزياء على الجدران كلها، وهناك أزهار في النوافذ الآن.



كان من الصعب موااساة ابنة عم السيدة مولر.

ومن خلال البكاء والعيول المستمرين عبرت أخيراً عن خشيتها من أن يكون شفيك قد فرّ من الخدمة العسكرية ويريد ان يخرب سمعتها ويجعلها تعيش هي ايضا في حالة من البؤس. وأخيراً خاطبته وكأنه مغامر أفاق.
قال شفيك:

- هذا نفيس جداً في الحقيقة. أنا أحب ما حدث تماما. واسمحي لي أن أقول لك يا سيدة كييرج انك على حق تماما بخصوص فراري. لقد اضطررت الى قتل خمسة عشرة رقبيا ورقبيا أول. ولكن لا تقولي لأحد... ثم غادر شفيك بيته الذي لم يرحب به اطلاقا وهو يقول:

- يا سيدة كييرج، هناك بعض الياقات ومقدمات القمصان في المصبغة. يرجى احضارها لي حتى أجد ملابس مدنية ارتديها لدى عودتي من الحرب. كما ارجو ان تحتاطي حتى لا يأكل العث بذلاتي التي في الخزانة. وأرجو أن تهدي حبي إلى أولئك السيدات الشابات النائمت في سريري.

ثم ذهب شفيك ليزور حانة «كأس القربان» وحين رآته السيدة باليفتس صرحت له بأنها لن تقدم له شيئا حيث انه قد يكون فارا من الخدمة.
ثم اعادت عزف الاسطوانة نفسها قائلة:



- زوجي كان شديد الحذر ولكنه هناك، إنه معتقل، ذلك العزيز المسكين، ومن أجل لا شيء، وأشخاص مثلك أحرار في التجول والفرار من الجيش. لقد كانوا يبحثون عنك هنا مرة أخرى منذ اسبوع فحسب.
ثم ختمت كلامها قائلة:

- نحن أكثر حذرا منك، ورغم ذلك فإننا في مأزق أيضا. ليس للجميع مثل حظك الطيب.

كان أحد الأشخاص المسنين يستمع الى هذا الحديث، وهو صانع اقفال من «سيمخوف»، وقد اقترب من شفيك وقال له:

- اعذرني يا سيدي، هل لك ان تنتظر في الخارج؟ لديّ ما اقوله لك.

وفي الشارع تحدث الى شفيك وافضى له بسرّه معتقدا انه فار من الخدمة فعلا وذلك على اساس ما قالته السيدة باليفتس.

حكى له ان له ابنا فرّ ايضا من الخدمة وهو يعيش حاليا مع جدته في «باسينا» بالقرب من «يوسيفوف».

وقد دسّ في يد شفيك قطعة نقود من فئة العشرين كراونا متجاهلا تأكيدات شفيك له بأنه ليس فارا.

قال له وهو يجره نحو مشرب للتبيذ يقع عند زاوية الشارع:

- هذا بعض الاسعاف الأولي. أفهمك تماما. لا حاجة الى الخوف مني. عاد شفيك متأخراً في تلك الليلة الى شقة القسيس الذي لم يكن قد وصل بعد.

ولم يصل حتى صباح اليوم التالي حيث ايقظ شفيك وقال له:

غدا سنذهب لاقامة قداس ميداني. اصنع بعض القهوة السوداء وضع معها بعض شراب الروم. او من الافضل ان تصنع بعض الغروغ⁽¹⁾.

* * *

(1) شراب مسكر ممزوج بالماء. (المترجم).

شفيك

يذهب مع القسيس لإقامة قداس ميداني

1

كانت التحضيرات لذبح البشرية لا تزال تتم باسم الرب أو باسم كينونة علوية مفترضة اخترعها البشر واتدعوها في مخيلتهم.

ففي الماضي كان الفينيقيون القدماء، وقبل ذبحهم للأسير، يقيمون أيضا شعائر دينية لها كل مهابة الشعائر الدينية التي تؤديها الأجيال الجديدة بعد آلاف السنين وذلك قبل المسير نحو ساحة الوغى لتدمير اعدائهم بالنار والسيف.

هذا ويضحى آكلو لحوم البشر في جزر غينيا وبولينيزيا لألهتهم و يقيمون مختلف الشعائر الدينية قبل التهام الاسرى او الاشخاص الذين لا ضرورة لهم كالمبشرين والمسافرين ووكلاء مختلف الشركات التجارية او الأشخاص الفضوليين فحسب. وبما أن حضارة الثياب لم تصلهم بعد فإنهم يزينون القسم الظاهر من أفخاذهم بياقات من ريش طيور الغابات الملون المبهرج.

وقبل تنفيذ إحكام الاعدام بضحايا محاكم التفتيش حرقا، كانت هذه

المحاكم تقيم أعظم الشعائر الدينية إجلالا: القداس الأعلى مع الغناء. ولدى اعدام المجرمين، يكون القساوسة موجودين للصلاة ولازعاج منتهكي القانون اولئك بوجودهم.

في بروسيا تقاد الضحية التعيسة الحظ الى خشبة الجلاد من قبل راعي الابرشية، وفي النمسا تقاد الى المشنقة من قبل قس كاثوليكي، وفي فرنسا الى المقصلة، وفي أميركا الى الكرسي الكهربائي من قبل كاهن، وكذلك في اسبانيا الى الكرسي الذي يخنق عليه بأداة بارعة. وفي روسيا يقتاد الثوري من قبل كاهن اورثوذكسي ... الخ.

في كل مكان وفي مثل هذه المناسبات اعتادوا ان يسيروا حاملين تمثالا للمسيح المصلوب وكان لسان حالهم يقول: «انهم لا يفعلون بك شيئا سوى قطع رأسك، او انهم يشنقونك فحنسب او يخنقونك أو يكهربونك بخمسة عشر ألفا من الفولتات، ولكن فكر بالذي عاناه ذلك الرجل الذي على الصليب».

لم تجر المذابح العظمى للحرب العالمية دون مباركة القساوسة. لقد صلى قساوسة على الجيوش واقاموا القداسات الميدانية لانتصار الجانب الذي يأكلون من خيره خبزهم.

لدى اعدام المتمردين يظهر الكاهن. كما يمكننا مشاهدة القس لدى اعدام أفراد «الفيلق التشيكي».

لا شيء قد تغير منذ ذلك الحين الذي ظهر فيه اللص «فويتخ⁽¹⁾» الذي لقب بـ«القديس» وراح يعمل قتلا وإبادة في السلاف البلطيقين وهو يحمل السيف بيد والصليب بالآخرى.

في كل انحاء اوروبا مضى الناس الى الذبح كأنهم المواشي، مدفوعين الى

(1) القديس أدالبرت وهو قديس شفيع للتشيكيين. (س.ب.).

ذلك ليس من قبل أباطرتهم وملوكهم الجزارين والحكام والقادة- وهم جزارون ايضا- بل ايضا من قبل كهنة كل المذاهب، الذين باركوهم وجعلوهم يحلفون ايماننا كاذبة بأنهم سيدمون عدوهم براً وجواً وبحراً... الخ.

في العادة كانت القداسات الميدانية تقام مرتين: مرة لدى مسير وحدة عسكرية ما نحو الجبهة ومرة اخرى في الجبهة عشية مجزرة او مذبحه دموية ما. أتذكر انه في مرة من المرات، ولدى اقامة قداس ميداني، قامت طائرة معادية بالقاء قنبلة علينا فأصابنا المذبح الميداني، ولم يتبق من القسيس سوى بعض الخرق المدماة.

فيما بعد كتب عنه كقديس، بينما كانت طائراتنا تجهز نفسها لمثل هذا النوع من المجد وذلك لقساوسة الجانب الآخر.

لقد استمتعنا كثيراً بذلك، وعلى الصليب المؤقت الذي نصب في البقعة التي دفتت فيها بقايا القسيس، ظهر فجأة بين عشية وضحاها هذا التأين:

«ان ما أصابنا قد أصابكم.

قلتم دو ما انا سنلحق بالقديسين.

حسننا، والآن لحقتم بهم وأنتم تقيمون القداس.

وحيث وقفتم لم يبق سوى بعض البقع».

2

خمر شفيك بعض شراب «الغروغ» الرائع الذي بزّ حتى ذلك الذي كان يخمره الملاحون القدماء. ولو أن قراصنة القرن السابع عشر شربوا مثل هذا «الغروغ» لكان قد نال اعجابهم.

سرّ القسيس وسأله:

- أين تعلمت صنع مثل هذا الشراب الرائع؟

- منذ سنوات خلت كنت أعمل كمتدرب متجول، وقد تعلمته في مدينة بريمن من بحار فاسق اعتاد أن يقول إن الغروغ يجب أن يكون قويا بحيث لو سقط المرء في البحر لاستطاع السباحة عبر القنال الانكليزي كله دون توقف. ولكن لو شرب المرء غروغا ضعيفا فسيغرق كالجرى الصغير.

- بعد غروغ كهذا يا شفيك سنستطيع إقامة قداس ميداني رائع. أعتقد أن عليّ أن أقول بضع كلمات وداعية أولاً. إن القداس الميداني ليس مسليا كقداس يقام في سجن الحامية أو القاء موعظة على اولئك المساجين الأوغاد. يجب أن تكون صاحيا. هناك مذبح ميداني من النوع الذي يطوى: مذبح جيب.

وهنا صاح القسيس وهو يمسك برأسه بين يديه، واستأنف قائلاً:
- يا للمسيح ومريم يا شفيك! نحن احمقان نذلان. هل تعرف أين كنت احفظ ذلك المذبح القابل للطي؟ في تلك الأريكة التي بعناها.

- يا إلهي، هذه محنة حقيقية يا سيدي. في الواقع أنا أعرف تاجر المفروشات ذلك، وقد قابلت زوجته قبل البارحة. انه في السجن بسبب خزانة مسروقة، وقد اشترى أحد معلمي المدارس اريكتنا منه. ستحل علينا الكارثة إذا لم نحصل على ذلك المذبح الميداني. أفضل ما يمكننا عمله هو أن نشرب الغروغ كله ثم نذهب للبحث عنه، لأنني اعتقد أنك لن تستطيع إقامة القداس دون المذبح الميداني.

قال القسيس بصوت كئيب:

- المذبح الميداني هو الشيء الوحيد الناقص. كل شيء جاهز في ساحة الاستعراض. لقد سبق للنجارين أن نصبوا مصطبة من أجله. كما أن دير برينفوف قد اعارنا اوعية القربان المقدس. كان من المفروض أن يكون لديّ كأس القربان الخاصة، ولكن أين هي يا ترى..؟

ثم استأنف يقول مفكراً:

- لنفترض أنني ضيعته، إذا سنحصل على كأس الفوز الرياضي من الملازم الأول فيتينغر من الفوج الخامس والسبعين. كان يشترك في المسابقات منذ سنوات وقد كسب الكأس في مسابقة «الرياضي المحبوب». كان من العدائين الأوائل، وقد قطع مسافة الأربعين كيلو مترا من فيينا الى مودلينغ في ساعة و48 دقيقة، كما تفاخر بذلك في حينه. وقد ربت الأمر معه البارحة. أنا احمق بالفعل اذ انني اترك الأمور كلها حتى اللحظة الأخيرة. لماذا لم انظر في داخل تلك الأريكة؟ جحش لعين!

تحت تأثير شراب الغروغ، الذي تم تجهيزه وفقا لوصفة البحار الفاسق، بدأ القسيس يشتم نفسه وهو في حالة من الخدر ويشرح بأكثر المبادئ تنوعا انتماءاته الحقيقية.

اقترح شفيك قائلا:

- حسنا، الأفضل أن نذهب ونبحث عن المذبح الميداني. لقد طلع الفجر.

- ما زال علي ارتداء بزتي وشرب كأس آخر من الغروغ.

وأخيراً خرجا، وفي طريقهما الى زوجة تاجر المفروشات قال القسيس لشفيك انه قد كسب في اليوم السابق الكثير من المال في القمار وذلك «ببركة من الله»، وانه لو سارت الأمور كما يرام سيعيد البيانو من دكان الرهونات.

كان ذلك اشبه بوعد الوثنيين بدفن الأضحية. لقد حصلنا من زوجة تاجر المفروشات الوسنانة على عنوان المعلم الذي اشترى الأريكة وهو يسكن في فرشوفيتسه. وقد ابدى القسيس كرما غير عادي. فقد قرصها من خدها وداعبها من تحت ذقتها.

انطلقا الى فرشوفيتسه سيرا على الاقدام حيث صرح القسيس بأنه في حاجة الى بعض الهواء النقي حتى يصفي أفكاره.

كانت هناك مفاجأة غير سارة في انتظارهما لدى وصولهما الى شقة المعلم في فرشوفيتسه، وهو رجل عجوز ورع. فقد وجد هذا المذبح الميداني في الأريكة وظن ذلك السيد العجوز أن ما حدث تدبير رباني لا ريب فوجهه الى مجلس الكنيسة المحلية في فرشوفيتسه شريطة ان ينقش على الجانب الآخر من المذبح القابل للطّي: «قدم في سبيل الله ومجده من قبل السيد كولارجيك، المعلم المتقاعد في عام 1914». وقد بدا عليه الارتباك الشديد حيث فاجأه وهو في ملابسه الداخلية.

ومن حوارهما معه تبين لهما انه يظفي على اكتشاف المذبح مغزى المعجزة والأمر الإلهي المقدس. قال انه حين اشترى الأريكة قال له صوت داخلي:

«انظر الى ما يحتويه درج الأريكة». وادعى ايضا ان ملاكا تراءى له ووجه إليه أمراً مباشراً: «افتح درج الأريكة» وقد اطاع.

وحين رأى المذبح الصغير القابل للطّي ذا الاقسام الثلاثة والتجويف الخاص لوضع وعاء خبز القربان، ركع امام الأريكة وصلى لفترة طويلة بحرارة وحمد الله. وبما انه اعتبر ذلك أمراً إلهياً فقد زين كنيسة فرشوفيتسه به.

قال القسيس: «ليس عليك انت تظن هذا مضحكا على الاطلاق. ان وجود مثل هذا الشيء في الأريكة، وهو ليس ملكا لك، يعني أنه كان عليك ان تأخذه فوراً الى الشرطة وليس الى اي مجلس كنيسة لعين».

اضاف شفيك: «بسبب تلك المعجزة قد تتعرض للكثير من المشاكل. لقد اشترت اريكة وليس مذبحاً، وهذا المذبح يخص السلطات العسكرية. ان تدبيراً ربانياً كهذا قد يكلفك غالباً. كان عليك ألا تهتم اطلاقاً بما تقوله الملائكة. عرفت شخصاً في «زهورج» وجد كأس قربان وهو يحفر في الحقل. الكأس مسروقة من كنيسة وقد دفنت هناك حتى يحين الوقت

ويكون أمرها قد نسي. وقد ظن الرجل أن الأمر تدير رباني أيضا ووهبها الى الكنيسة، إلا أن الكاهن ظن ان الرجل هو السارق وانه اعادها الآن بعد أن أنبه ضميره، فاستدعى المختار الذي استدعى رجال الدرك، ورغم براءته، فقد عوقب على اساس انه سرق ممتلكات كنسية رغم انه ظل حتى النهاية يثرثر متحدثا عن المعجزات. وقد أراد ان يدافع عن نفسه فتحدث ايضا عن ملاك، ولكنه اقحم مريم العذراء في الموضوع ايضا مما جعله ينال عقوبة مقدارها عشر سنوات سجن. الأفضل لك أن تأتي معنا الى الكاهن وتقنعه ان يعيد إلينا ممتلكات الجيش. أن المذبح ليس هرة او جوربا تمنحه لمن تشاء.

ارتدى الرجل العجوز ملابسه وهو يرتجف من رأسه الى أخمص قدميه وأسنانه تصطك رعبا وخوفا وقال: «لم أقصد الاساءة. لقد ظننت انه بمثل ذلك التدبير الإلهي استطيع ان أزين كنيستنا الفقيرة، كنيسة الرب في فرشوفيتسه».

قال شفيك بشدة وقسوة: «على نفقة السلطات العسكرية لا ريب. الحمد لله على مثل هذا التدبير الإلهي!. لقد ظن شخص من «بيفونيك» التابعة لـ«خوتيبورج» ايضا أن التدبير الإلهي هو الذي اوقع في يده رسن بقرة شخص آخر وبمحض الصدفة».

ارتبك الرجل العجوز المسكين تماما امام هذه التعليقات ولم يعد يحاول الدفاع عن نفسه، بل راح يحاول ان يرتدي ملابسه بأقصى سرعة ممكنة لحل المشكلة حلا نهائياً.

كان الكاهن في كنيسة فرشوفيتسه لا يزال نائما حين ايقظته الضجة فبدأ يشتم، لأنه ظن، وهو الوسنان، أن عليه أن يذهب ليمارس الشعائر الدينية لشخص يحتضر.

زمجر وهو يرتدي ملابسه كارها: «لا يجب إزعاج الناس بكل هذه

الحماسة الزائدة عن الحد. ما بال الناس يريدون ان يموتوا حين يكون رجل آخر راغبا في أن ينام نومة مشبعة حقا؟ وبعد ذلك تضطر الى مساومتهم على الأجر». وهكذا التقيا في البهو: ممثل الرب عن المدنيين الكاثوليكيين من سكان فرشوفيتسه وممثل الرب على الأرض لدى السلطات العسكرية.

وعلى أية حال، لم يكن الأمر أكثر من نزاع بين مدني وعسكري. وحين أكد الكاهن أن المذبح الميداني لا علاقة له بالأريكة، صرّح القسيس بأنه لا ينتمي بأية حال من الأحوال أيضا الى مجلس الكنيسة التي يؤمها المدنيون فحسب.

وقد طرح شفيك عدة ملاحظات فحواها انه من السهل تأييث كنيسة «فقيرة» على حساب السلطات العسكرية. وقد شدّد شفيك على كلمة «فقيرة».

وأخيراً ذهبوا الى مجلس الكنيسة فسلمهما القسّ المذبح الميداني مقابل الايصال التالي:

«استلمت مذبحا ميدانيا وجد طريقه بالصدفة الى كنيسة فرشوفيتسه». «القس أوتو كاتس»

جاء هذا المذبح الميداني الشهير في الأصل من المصنع اليهودي الخاص لموريتس مالر في فيينا الذي كان ينتج كل أنواع الكماليات الخاصة بالقداس المسيحي. وكذلك الأشياء الدينية كالمسابع وصور القديسين. كان المذبح مؤلفا من ثلاثة اجزاء ومطليا بالذهب المزّيف على نحو سخّي كما هو مجد الكنيسة المقدسة كله.

لم يكن ممكنا دون براعة هائلة معرفة ما كانت تمثله الرسوم المصورة على تلك الأجزاء الثلاثة من المذبح. ولكن الشيء المؤكد انه كان مذبحا يمكن استعماله من قبل الوثنيين في زامبيزي او شامانات (كهان) البوريات والمنغول. كان مطليا بألوان صارخة بحيث يبدو من بعيد كالرسم الملون الذي

يستعمل لاختبار عمال السكة الحديدية المصابين بعمى الألوان. كان هناك شكل بارز هو عبارة عن رجل عار تحيط هالة برأسه وله جسد آخذ لونه بالاخضرار اشبه بأنف الكاهن الكبير الذي بدأ يتفسخ وقد سبق له وأصيب بالتن. لم يكن هناك من يمارس اي شيء ضد هذا القديس. بل العكس هو الصحيح حيث انه محاط من الجانبين بمخلوقات مجنحة من المفترض انها تمثل الملائكة. ولكن كل من ينظر رالى الرسمة كان سيعتقد ان هذا الرجل العاري المقدس كان يصرخ بسبب رعبه من تلك المخلوقات، فقد بدت تلك الملائكة كوحوش الحكايات الخرافية وكشيء هجين يتراوح بين هرة متوحشة مجنحة والوحش الموصوف في سفر الرؤيا.

ومقابل هذا كانت صورة قصد منها تمثيل الثالوث المقدس. وعلى العموم كان الرسام غير قادر على أن يفسد الحمامة. لقد رسم نوعا من الطير يمكنه ان يكون حمامة او دجاجة اميركية بيضاء من نوع «وياندوت». بدا الأب كقاطع طريق من الغرب الأميركي المتوحش جرى تقديمه الى الجمهور في فيلم اميركي مثير.

أما الابن من ناحية اخرى فقد كان شابا صغيرا مرحا له كرش كبير مغطى بسر وال اشبه بذلك الخاص بالسباحة. وعلى اية حال بدا عموما كشاب رياضي. أما الصليب الذي كان بيده فقد كان يمسك به برشاقة توحى برشاقة لاعب التنس الذي يحمل مضربه.

وإذا ما رأيت هذه التفاصيل عن بعد للاحظت انها تتداخل وتوحي لك بقطار يدخل في محطة.

أما ما كانت تمثله الرسمة الثالثة فكان مستحيلا معرفة كنهه. غالبا ما كان الجنود يختلفون حول تلك الرسمة ويحاولون حل لغزها. لقد ظن احدهم حتى، انها تمثل مشهدا طبيعيا من وادي سازافا. ولكن كان مكتوبا تحتها بالألمانية «مريم المقدسة يا أم الله، ارحمينا».

وضع شفيك المذبح الميداني في مكان أمين في عربة الدروشكي وجلس

الى جانب الحوذني على مقعده. جلس القسيس براحة ضمن العربة وقد وضع ساقيه فوق... «الثالوث».

تحدث شفيك مع الحوذني حول الحرب. كان الحوذني من المتمردين، وقدم تعليقات مختلفة عن انتصار القوات النمساوية فقال مثلاً: «لقد أذاقوكم الجحيم في الحرب». وحين عبروا نقطة الجمارك سألهما الموظف المسؤول عما يحملونه فأجاب شفيك:

- الثالوث المقدس ومريم العذراء ومعهم القسيس.

في تلك الأثناء وفي ساحة الاستعراض كانت الكتائب المتوجهة الى الجبهة تنتظر بفارغ الصبر، فقد سبق لها وانتظرت فترة طويلة، اذ كان على القسيس وشفيك أن يحضرا الكأس الرياضي من عند الملازم الأول فيتينغر ثم وعاء القربان المقدس والأمر الأخرى الخاصة بالقداس بما فيها زجاجة الخمر المقدس من دير برينفوف. ومن هذا كله يمكن للمرء أن يستنتج ان الاحتفال بقداس ميداني لم يكن بالأمر السهل.

قال شفيك للحوذني:

- نحن نتخبط كما نشاء.

وقد كان على حق. فحين وصلوا الى ساحة الاستعراض وصعدوا الى المنصة ذات الاطار الخشبي والمنضدة، حيث يوضع المذبح الميداني، تبين ان القسيس قد نسي أمر مساعده.

كان هناك دائماً في السابق جندي مشاة يعمل كمساعد للقسيس ولكنه فضل ان ينقل الى قسم الهواتف وذهب بالتالي الى الجبهة.

قال شفيك:

- لا بأس يا سيدي: استطيع تدبير هذا ايضاً.

- ولكنك لا تعرف القيام بذلك؟

- لم أقم بذلك سابقاً، ولكن لا بأس في ان يجرب المرء حظه. الآن هناك

حرب دائرة، وفي زمن الحرب يقوم الناس بأمر لم يحلموا بالقيام بها من قبل. سأحاول ان اقول ((ومع روحك أيضاً)) السخيفة تلك حين تقول أنت: «السلام لجميعكم». وأعتقد انه ليس من الصعب جدا أن أسير من حواليك كما تسير القطة فوق طبق ساخن من العصيدة، وأغسل يديك وأصب الخمر من الدورق. قال القسيس:

- حسنا، ولكن لا تصب الماء. الأفضل ان تضع خمرا في الدورق ايضا. أما بالنسبة لما تبقى سأقول لك على الدوام ان كان عليك الاتجاه الى اليمين او الى اليسار. اذا صفرت بنعومة شديدة فهذا يعني أن تذهب الى اليمين. أما اذا صفرت مرتين فذاك يعني الى اليسار. وليس عليك ان تجر كتاب القداس طوال الوقت. سنستمتع كثيراً بالفعل. هل تصاب عادة برهبة المسرح؟.

- لست أرهب اي شيء يا سيدي، ولا حتى من العمل كمساعد لك.

لقد كان القسيس على حق حين قال ان ذلك سيمتعم كثيرا.

وقد سار كل شيء بسرعة النار في الهشيم.

كان خطاب القسيس موجزا الى حد كبير. قال:

- أيها الجنود لقد اجتمعنا هنا حتى ننزع بقلوبنا الى الرب قبل الذهاب الى ميدان المعركة، وحتى يمنحنا النصر ويقينا في أمان واطمئنان. لن اعيقكم لفترة طويلة وامننى لكم جميعا أفضل التمنيات.

صاح العقيد العجوز على الجناح الأيسر:

- استرح!

يسمى القداس الميداني «قداسا ميدانيا» لأنه يتحلى بالتكتيكات العسكرية نفسها التي لساحة الوغى. فخلال المناورات الطويلة للجيش في «حرب الثلاثين سنة» كانت القداسات الميدانية تميل الى أن تكون مطولة الى حد كبير ايضا. وفي التكتيكات الحديثة، حيث تنزع تحركات الجيش الى السرعة والرشاقة فإنه يجب أن يكون القداس الميداني سريعا ورشيقا على حد سواء..

وهكذا استغرق هذا القداس عشر دقائق فحسب قد استغرب اولئك القرييون من المذبح لأن القسيس كان يصفر خلال القداس.

سرعان ما اتقن شفيك الاشارات، وها هو يمشي الآن الى يمين المذبح او الى يساره ولا يقول سوى: «ومع روحك ايضاً».

لقد بدا كأنه هندي أحمر يدور حول صخرة مقدسة، ولكنه ترك انطبعا جيداً، حيث انه طرد الملل الذي توحى به ساحة التدريب المغيرة الكثيبة بذلك الصف من اشجار الخوخ الى الخلف ومراحيضها التي كانت روائحها بديلاً عن الرائحة الصوفية للبخور في الكنائس القوطية.

لقد استمتع الجميع الى حد كبير. وها هم الضباط الواقفون من حول العقيد يتبادلون النكات، واذن فالأمور كما يجب ان تكون. هنا وهناك بين الصفوف كان يمكننا سماع الكلمات التالية:

«أعطني مجّة».

ومن بين صفوف الجند سعدت غمائم زرقاء من دخان اللفائف الى السماء وكأنها دخان اضحية محروقة. لقد بدأ ضباط الصف كافة بالتدخين حين رأوا ان العقيد نفسه قد اشعل لفاقة.

وأخيراً سمعت عبارة «لنصل!». ثارت زوابع من الغبار واحنى مستطيل رمادي من البزات الركب امام الكأس الرياضية الخاصة بالملازم الأول فيتينغر والتي كسبها في سباق «فيينا - مولدينغ» حاملاً لقب «الرياضي المحبوب».

كانت الكأس مترعة حتى آخرها وكان الرأي السائد في صفوف الجند عن أداء القسيس انه «قد طفحت الكأس تماماً!»

تكرر هذا الأداء مرتين. وبعد ذلك قال مرة اخرى: «لنصل!»، وهنا بذلت الفرقة اقصى جهدها في عزف النشيد الوطني النمساوي. ثم سمع صوت يقول: «انتبه! امام سر! أسرع!».

قال القسيس لشفيك وهو يشير الى المذبح الميداني: «اجمع كل هذه الأشياء حتى نعيدها جميعا الى حيث أصحابها».

وهكذا انطلقا بالدروشكي وأعادا كل شيء، كما يليق بالطيبين، الى اصحابه، عدا زجاجة النبيذ المقدس.

وحين عادا الى البيت من جديد وقالوا لسائق الدروشكي التعيس الحظ ان عليه ان يطالب قيادة الفوج بأجرة ذلك المشوار الطويل، قال شفيك للقسيس:

- أسألکم بتواضع يا سيدي: هل يجب على مساعد القسيس أن يكون من مذهب ما؟.

أجاب القسيس:

- طبعاً، وإلا فإن القديس لن يكون شرعياً.

- اذن فقد تم ارتكاب غلطة رهيبية. فأنا رجل لا مذهب له. أنا الذي يجلب الحظ السيء دائماً.

نظر القسيس الى شفيك ثم صمت لحظة، وربت بعدها على كتفه وقال: «يمكنك ان تشرب ما تبقى في زجاجة النبيذ المقدس وتتصور أنك قد عدت الى حضن الكنيسة».

* * *

مناظرة وينية

كان يحدث لشفيك ألا يرى لأيام كاملة الرجل الذي كان لديه علاج نفوس أفراد الجيش. فقد كان القسيس يوزع وقته بين واجباته والفسوق، ولا يأتي الى البيت إلا نادراً جداً. وحين يعود بالفعل كان منظره قدراً متسخاً كالهر الموء حين ينطلق لممارسة مهماته الغرامية فوق الأسطحة.

وحين يعود كان يتحدث لشفيك قليلاً قبل أن ينام، هذا إن كان قادراً على التعبير عن نفسه على الاطلاق. وكان حديثه يدور حول أهداف نبيلة وإلهام ومسرات التأمل.

وفي بعض الأحيان كان يحاول ان يتحدث بلغة الشعر ويقتبس من أشعار «هاينه».

وقد أقام شفيك والقسيس قداساً ميدانياً آخر للمهندسين العسكريين، وقد دعي إليه خطأ قسيس آخر، كان سابقاً من أتباع «طريقة السؤال والجواب». كان رجلاً شديد الورع الى حد استثنائي، وقد حذق في زميله بدهشة حين عرض عليه رشفة من الكونياك من «القارورة

الميدانية» التي كان شفيك يحملها معه باستمرار من أجل الوظائف الدينية التي من هذا النوع.

قال القسيس كاتس: «إنها من النوع الجيد. اشرب ثم اذهب للبيت. سأقوم بالعمل أنا نفسي لأنني بحاجة الي الهواء النقي. أعاني من صداع خفيف».

وقد مضى القسيس الورع في حال سييله وهو يهز رأسه، وكالعادة نفذ كاتس مهمته على أنبل وجه.

في هذه المرة كان النبيذ وماء الصودا هما اللذان استحالوا الى دم سيدنا المسيح، وكانت الموعظة أطول، وكل ثالث كلمة كانت: «وهكذا دواليك وبالطبع».

- اليوم يا رجالي، ستذهبون الى الجبهة وهكذا دواليك. توجهوا بقلوبكم الى الله وهلم جرا وبالطبع. أنتم لا تعرفون ما سيحدث لكم وهكذا دواليك وبالطبع.

ومن المذبح استمر يرعد قائلاً: «وهكذا دواليك وبالطبع» وهو ينتقل متناوباً ما بين الرب والقديسين.

وخلال حماسته وتحليقاته الخطابية قدّم القسيس الأمير يوجين أمير سافوي على انه قديس سيحميهم حين ينون الجسور فوق الأنهر.

وعلى أية حال فإن القداس الميداني انتهى دون اي حادث يعكر الصفو. كان قداساً لطيفاً وممتعاً. لقد استمتع المهندسون العسكريون كثيراً.

خلال عودتهما لم يسمح للقسيس وشفيك ان يستقلا الحافلة وهما يحملان المذبح القابل للطّي.

قال شفيك لقاطع التذاكر: «سأحطم هذا القديس على رأسك».

وحين وصلا أخيراً اكتشفا أخيراً انهما اضاعا وعاء خبز القربان في مكان ما على الطريق.

قال شفيك:

- لا يهم. كان المسيحيون الأوائل يقيمون القداس دون وعاء خبز القربان. ولو نشرنا اعلانا عن الوعاء الضائع في مكان ما، فإن الشخص الأمين الذي وجدته يستطيع ان يطلب مكافأة منا. ولو كان ما ضاع منا نقوداً فلا اعتقد اننا كنا سنجد اي شخص أمين رغم ان هؤلاء موجودون فعلا. في فوجنا في بوديوفيتسه كان هناك جندي، رجل غبي عجوز عزيز، وجد مرة ستمئة كراون في الشارع فأخذها الى الشرطة. وقد كتبت عنه الصحافة على انه شخص أمين، ولكن ذلك جلب عليه العار على أية حال. لقد رفض الناس ان يكلموه. كان الجميع يقولون له: «أيها الأحمق، ما هذا الهراء؟ عجباً! لا بد وانك مشتمز من نفسك، هذا ان كان قد تبقى لديك أي حسّ بالشرف» كانت لديه صديقة فهجرته. وحين عاد في إجازة رمى به اصداقاه خارج الحانة خلال حفلة للرقص بسبب الموضوع نفسه. ثم مرض وانتابه الحزن الى حد انه ألقي بنفسه تحت عجلات القطار. كما حدث في شارعنا ان وجد خياط خاتما ذهبيا. وقد حذره الناس ونصحوه بالأى سلمه الى الشرطة، ولكنه لم يعمل بنصيحتهم. وقد استقبله رجال الشرطة استقبالا لطيفا على غير عادتهم وقالوا له انه قد سبق وابلغوا بضياع خاتم ذهبي ذي فص ماسي. ثم نظروا الى الفص وقالوا له: «أيها الشخص الطيب، أنت تعرف جيدا ان هذا زجاج وليس ماسا. كم دفعوا لكم ثمن تلك الماسة؟ نحن نعرف جيدا ذلك النوع من الأشخاص الأمناء الذي تنتمي إليه!» وفي النهاية تبين ان شخصا آخر قد أضاع خاتما ذهبيا ذا ماسة مزيفة، ولكنه ارث عائلي، إلا ان الخياط امضى ثلاثة أيام في السجن على أية حال لأنه فقد زمام نفسه وأهان أحد رجال الشرطة. وقد منح مكافأة قانونية قدرها عشرة بالمئة من سعر الخاتم، وكان ذلك كراونا واحداً و(20) هلراً، فقد كان سعر تلك النفاية اثني عشر كراونا فحسب، ولكنه رمى النقود في وجه الرجل صاحب الخاتم، فقام هذا بمقاضاته لإهانتته لشرفه، فدفعت غرامة قدرها عشرة كراونات. وقد

اعتاد ان يقول لاحقا وفي كل مكان ان على كل شخص أمين يجد حاجة ثمينة ويبلغ عنها ان يجلد خمسا وعشرين جلدة، وذلك حتى يزرق ويسود جلده، وأن يجلد في مكان عام حتى يتعظ به الناس. لا اعتقد ان هناك من سيعيد لنا الوعاء حتى لو كان على ظهره الشعار الخاص بالفوج، لأنه لن يكون هناك من يرغب في أن تكون له علاقة بشيء من ممتلكات الجيش. ان الناس تفضل ان ترمي مثل هذه الاشياء في الماء حتى لا تكون لها اية علاقة اخرى بها. البارحة في حانة «الإكليل الذهبي» تحدثت الى شخص قادم من الريف. كان في السادسة والخمسين وكان ذاهبا الى «ممثل الحكومة المركزية في المقاطعة» في «نوفاباكا» ليسأل عن السبب في مصادرة عربته. في طريق العودة، وحين رموا به خارج مكتب ممثل الحكومة، نظرا الى قفل رتل عسكري كان قد وصل للتو ويقف عند الساحة. فطلب منه شاب ان يتبه لبرهة قصيرة للجياذ التي كان من المفروض ان تجر عربات تحمل معليات للجيش، ولكن هذا الشاب لم يعد أبداً. وحين انطلق قفل الرتل اضطر صاحبنا هذا ان يذهب معه فوجد نفسه وقد وصل الى هنغاريا، وهناك طلب بدوره من أحد الاشخاص ان يتبه لبرهة للجياذ. وبهذه الطريقة فحسب استطاع انقاذ نفسه، وإلا لكان سيصل الى الصرب، وحين عاد الى بيته كان يبدو عليه الرعب الشديد، وآلى على نفسه ألا يقترب من أية ملكية تعود للجيش أبداً.

في المساء تلقيا زيارة من القسيس الورع الذي أراد أن يقيم القداس الميداني لسلاح الهندسة في ذلك الصباح. كان شخصا متعصبا يريد أن يهدي الناس كلهم الى عبادة الله. حين كان من أتباع «مذهب السؤال والجواب» قام هذا القسيس بتنمية المشاعر الدينية لدى الاطفال بواسطة صنفهم على وجوههم وكانت قد ظهرت بين الحين والآخر في صحف مختلفة مقالات حول «القسيس السادي» و«القسيس المحب للصفح». كان على قناعة من أن الطفل يتعلم «مذهب السؤال والجواب» على افضل نحو بمساعدة القضييب.

كان يعرج قليلا على احدى قدميه وسبب ذلك زيارة قام بها أب لأحد تلاميذه ممن صفعهم القسيس لأنه عبر عن شكوك معينة فيما يخص «الثالوث المقدس». وقد تلقى القسيس نفسه ثلاث صفعات على وجهه: واحدة عن الأب والثانية عن الابن والثالثة عن الروح القدس.

وها هو قد جاء اليوم ليقود زميله «كاتس» الى الطريق الصواب ويتحدث معه حديث القلب للقلب. وقد بدأ الحديث بالملاحظة التالية:

«يدهشني أنني لا أرى اي صليب معلق هنا. أين تلو صلواتك؟ كما لا أرى اي صورة للقديسين على جدران غرفتك. ما ذاك المعلق فوق سريرك؟»
ابتسم «كاتس» وقال:

- انها لوحة «سوزانا والشيوخ». وتلك المرأة العارية في الاسفل صديقة قديمة لي. الى اليمين هناك شيء ياباني يصوّر الفعل الجنسي بين فتاة من الغيشا مع ساموراي ياباني عجوز. اصيلة تماما، أليست كذلك؟ كتاب الصلوات اليومية في المطبخ. يا شفيك، احضره الى هنا وافتحه على الصفحة الثالثة.

ذهب شفيك الى المطبخ وكان ممكنا من هناك سماع صوت الفلينات وهي تنزع عن ثلاث زجاجات من النبيذ.



شده القسيس الورع لدى رؤيته للزجاجات الثلاث وهي توضع على الطاولة.

قال كاتس:

- مجرد نبذ مقدس خفيف يا أخي، وهو من نوعية جيدة جدا، انه من صنف «الريز لينغ»، وطعمه اشبه بنيذ «الموزيل».

قال القسيس الورع يعناد:

- لن اشرب. لقد جئت من اجل حديث من القلب الى القلب معك.

- الحديث سيجعلك ظمآنا يا زميلي العزيز. اشرب وسأستمع. أنا شخص شديد التسامح واستطيع سماع الآراء الاخرى.

شرب القسيس الورع قليلا ثم قلب عينيه.

- هذا نبذ شيطاني جيد يا زميلي العزيز، أليس كذلك؟

أجاب القسيس الورع بحزم:

- لم يفتني انك تشتم.

أجاب كاتس:

- انها عادة من عاداتي. احيانا أجد نفسي وأنا أجدف حتى صبّ المزيد للقسيس يا شفيك. كما اوكد لك أنني اقول ايضا: «السماء، الرب، الصليب والسر المقدس». حين تخدم في الجيش كل المدة التي خدمتها أنا ستجد نفسك تفعل الشيء نفسه. ليس الأمر صعبا ومعقدا اطلاقا، وهو أمر شائع بيننا نحن رجال الدين: السماء والرب والصليب والسر المقدس. هل يبدو هذا حرفياً على نحو رائع؟ اشرب المزيد ايضا يا زميلي العزيز.

راح القسيس وهو من الاتباع السابقين لمذهب السؤال والجواب يرتشف النبيذ بحركة آلية. كان من الواضح انه أراد ان يقول شيئا ما ولكنه لم يستطع. كان يستجمع أفكاره.

استأنف كاتس قائلاً:

- يا زميلي العزيز، ابتهج! لا تجلس هناك بكل هذا البؤس وكأنك ستشوق خلال خمس دقائق. لقد سمعت عنك، وكيف أنك أكلت مرة خطأ ضلع خنزير في مطعم في يوم جمعة لأنك ظننته يوم خميس، وكيف أنك اقحمت اصبعك في حلقك في دورة المياه حتى تتقيأه، لأنك ظننت ان الله سيمحقك. أنا لا أخاف من أكل اللحم في فترة الصوم الكبير كما اني لا أخاف نار جهنم حتى. اعذرني، ارجو ان تستمر في الشراب. هل أنت في حالة افضل الآن؟ أم هل لديك أفكار تقدمية فيما يخص الجحيم تجاري فيها روح العصر والاصلاحيين؟ أعني انه بدلا من المراجل العادية التي تحوي الكبريت لحرق الآثمين المساكين ستكون هناك قدور «بابان»⁽¹⁾ وتلك التي تعمل على الضغط العالي. الآثمون سيقلون بالسمن وهناك مشاو تعمل على الكهرباء، وسيتم دحل الآثمين بمداحل بخارية لملايين السنين، أما اصطكاك الأسنان فسيتم بمساعدة أطباء الأسنان المزودين بمعدات خاصة، كما سيتم تسجيل صرخات المعذبين على اسطوانات موسيقية لترسل الى الجنة ليستمتع بها الصالحون. في الجنة ستكون هناك رشاشات تبخ ماء الكولونيا، وتعزف الأوركسترا الفيلهارمونية موسيقى «برامز» لفترات طويلة، الى حد يفضل معه المرء الجحيم والمطهر. للملائكة محركات كمحركات الطائرة في أقيمتها حتى لا تضطر الى تحريك أجنحتها كثيراً فتتعب. اشرب يا زميلي العزيز! يا شفيك صب له بعض الكونياك. لا اعتقد انه في حالة جيدة.

حين استفاق القسيس الورع بدأ يهمس قائلاً:

- الدين مسألة تفكير عقلائي. ان من لا يؤمن بالثالوث المقدس...

قاطعته كاتس قائلاً:

- يا شفيك، صب كأس كونياك آخر للقسيس حتى يصحو قل له شيئا. يا

شفيك.

(1) وهي قدور سريعة الغلي اخترعها الفيزيائي الفرنسي «بابان» عام (1871) (س. ب).

قال شفيك:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه بالقرب من «فلاشيم» كاهن كانت لديه خادمة وقد هربت مع أمواله وغلामه. وكان هذا الكاهن قد بدأ في سنوات شيخوخته بدراسة القديس اوغسطين الذي يقال انه أحد «الآباء المقدسين»، وقد قرأ في اعماله أن كل من آمن بوجود جانب مقابل سفلي للأرض سيكون ملعونا. وهكذا نادى على خادمه وقال لها: «اسمعي، لقد قلت لي مرة ان ابنك قد ذهب الى استراليا، وهذه تقع في الجانب المقابل من الأرض، ووفقا لتعليمات القديس اوغسطين فإن كل من آمن بذلك ملعون». اجابته الخادم: «يا سيدي المبجل إن ابني يبعث لي بالرسائل والمال من استراليا». أجابها الكاهن: «هذه احبولة شيطانية. فوفقا للقديس اوغسطين لا وجود لاستراليا اطلاقا، وأنتِ امرأة أغواها المسيح الدجال». وفي يوم الأحد قام الكاهن بحرمانها من حقوقها الكنسية علنا وصاح معلنا بأن استراليا لا وجود لها. وهكذا اخذ من الكنيسة الى المصح العقلي مباشرة. هناك اشخاص كثيرون مثله يستحقون ان يوضعوا هناك. في «دير أخوات القديسة اورزولا» لديهم زجاجة من لبن العذراء المقدسة الذي ارضعت منه المسيح طفلا، وفي ميثم «بنيشوف» وبعد أن احضر الماء من «لورد» اصيب الأيتام باسهال لم يعرف له العالم مثيلا من قبل.

كانت بقع سوداء تراقص امام عيني القسيس الورع ولم يصح تماما إلا بعد كأس آخر من الكونياك صعد الى رأسه فوراً.

رمش بعينه وهو يسأل كاتس:

- ألا تؤمن بحبل العذراء مريم بلا دنس؟ ألا تؤمن بأن ابهام القديس يوحنا المعمدان المحفوظ في «دير بياريست» هو ابهامه الحقيقي؟ هل تؤمن بالرب اطلاقا حتى؟ وان كنت لا تؤمن بالرب فلماذا أنت قسيس؟

اجابه كاتس وهو يربت على ظهره بطريقة حميمية:

- يا صديقي العزيز: حتى تدرك الدولة أن الجنود الذاهبين الى الموت في ميدان القتال ليسوا في حاجة الى المباركة الالهية، تبقى مهنة القسيس مهنة ذات راتب جيد كما انها ليست متعبة. انها أفضل لي من العدو في ساحة التدريب والاشتراك في المناورات. في ذلك الحين كنت استلم الأوامر من رؤسائي ولكنني افعل الآن ما يحلو لي. أنا امثل من هو غير موجود وألعب دور الرب أنا نفسي. وإذا لم ارغب في ان اغفر لشخص ذنوبه فإنني لا اغفرها، حتى لو توسلوا إلي وهم جاثون على ركبهم. ولكنك لا تجد سوى قلة من الناس تصل معهم الأمور الى هذا الحد في هذه الأيام.
أعلن القسيس وقد بدأ يحزق:

- أحب الرب. أحبه كثيراً. اعطني قليلا من النييد. أنا احترم الرب. احترمه وأبجله كثيراً. لا احترم أحداً بقدر احترامي له.

ضرب الطاولة بقبضته مما جعل الزجاجات تقفز من مكانها وقال:

- الرب كائن سام، شيء ما سماوي. انه شريف في تعامله. انه وحي متوقد، ولن يقنعني احد بعكس هذا الكلام. كما أنني احترم القديس يوسف ايضا، احترم كل القديسين باستثناء القديس سيرايون، فله اسم قبيح جداً.
قال شفيك:

- كان عليه أن يتقدم بطلب لتغييره.

استأنف القسيس من اتباع مذهب السؤال والجواب سابقا كلامه فقال:

- أحب القديسة لودميلا والقديس برنارد. لقد أنقذ الكثيرين من الحجاج في «سانت غوتار». انه يحمل زجاجة كونياك حول عنقه ويفتش عن الناس الذين يعلقون في العواصف الثلجية.

اتجه الحديث الآن اتجاها مختلفا، فقد بدأ القسيس الورع يلخبط في الكلام:

- احترم «الأبرياء». فيوم قديسهم هو في الثامن والعشرين من كانون

الأول (ديسمبر). أكره «حيرود». حين ينام الدجاج لا نحصل على المزيد من البيض.

ثم قهقهه وبدأ يغني «أيها الرب المقدس المقدس المقدس يا رب يوم الأحد».

توقف فجأة واستدار نحو كاتس وسأله وهو ينهض بلهجة حادة:
- ألا تعتقد أن الخامس عشر من آب (أغسطس) هو يوم صعود العذراء
إلى السماء؟

أصبح الهزل في منتهى الزخم. ظهرت زجاجات جديدة، وبين الحين
والآخر كان يمكننا سماع: «قل انك لا تؤمن بالرب وإلا لن ادعك تنال
قطرة واحدة اخرى!».

بدا الأمر وكأن أيام اضطهاد المسيحيين الاوائل قد عادت. فقد غنى
القسيس وهو من الاتباع السابقين لطريقة السؤال والجواب أغنية تمجد
شهداء الحلبة الرومانية ثم صرح: «اوؤمن بالرب. لن أكفر به. بإمكانك ان
تحتفظ بنبيذك لنفسك. استطيع أن ابعث من يأتي لي ببعض النبيذ أنا ايضا».
وأخيراً وضع في السرير، وقبل أن ينام صرح وهو يرفع يده اليمنى في
قسم مقدس: «اوؤمن بالأب والابن والروح القدس. احضروا لي كتاب
الصلوات اليومية».

وضع شفيك في يده كتابا كان موجوداً على الكومودينة. ثم نام القسيس
الورع وفي يده كتاب «ديكاميرون» لبوكاتشيو.

شفيك

يمارس مسح المحتضرين بالزيت

جلس القسيس اوتاكاتس باكتئاب فوق نشرة كان قد جلبها للتو من الثكنة. وكانت تحتوي على تعليمات من وزارة الحرب:

«خلال فترة الحرب تقوم وزارة الحرب بتعليق كافة انظمة العمليات الخاصة بممارسة مسح المحتضرين بالزيت على جنود الجيش وتضع الانظمة التالية لقساوسة الجيش:

1- في الجبهة تلغى ممارسة مسح المحتضرين بالزيت.

2- يمنع المصابون بأمراض شديدة او جراح من العودة الى القاعدة من أجل المسح بالزيت. والمطلوب من قساوسة الجيش أن يسلموا فوراً مثل هذه الحالات الى السلطات العسكرية المختصة للقيام بالاجراءات المناسبة.

3- في المستشفيات العسكرية في القاعدة يمكن ممارسة مسح المحتضرين بالزيت «جماعيا» على أساس شهادة صادرة عن أطباء الجيش شريطة ألا يتضمن ذلك صعوبات للمؤسسات العسكرية المختصة.

4 - في الحالات الاستثنائية يمكن لقيادة المستشفيات العسكرية في القاعدة أن تسمح للأفراد بأن يمسحوا بالزيت.

5 - على قساوسة الجيش ان يمارسوا مسح المحتضرين بالزيت على أولئك الذين تسميهم قيادة المستشفيات العسكرية إذا ما دعتهم هذه القيادة الى ذلك».

بعد ذلك قرأ القسيس مرة اخرى الأمر الذي يعلمه أن عليه في اليوم التالي الذهاب الى المستشفى العسكري في ساحة تشارلز لممارسة المسح بالزيت على المصابين بجروح خطيرة.

صاح القسيس:

- اسمع يا شفيك، أليس هذا ازعاجا لعينا؟ لكأني القسيس الوحيد في كل براغ! لماذا لا يرسلون ذلك القسيس الورع الذي نام عندنا في تلك الليلة؟ علينا ان نذهب ونمسح بالزيت على المحتضرين في ساحة تشارلز. لقد سبق لي ونسيت كيف أمارس ذلك.

قال شفيك:

- إذا سنشتري كتاب صلوات وسأكون هناك. انه نوع من «الدليل» للقساوسة الروحيين. لقد أراد ذات مرة احد مساعدي البستاني وكان يعمل في «دير ايمائوس» ان ينضم الى صفوف اخوته من الرهبان ويحصل على قلنسوة حتى لا يمزق ملابسه. وقد كان عليه ان يشتري كتاب صلوات ويتعلم كيف يرسم اشارة الصليب، فمن هو المعصوم عن الخطيئة الاصلية؟ وما المغزى في أن يكون للمرء ضمير نقى وأمور اخرى تافهة كهذه. وبعد ذلك سرق سراً نصف متوج الخيار من بستان الدير وغادر الدير مطرودا. وحين قابلته قال: «كان يمكنني سرقة ذلك الخيار دون كتاب الصلوات».

حين احضر شفيك كتاب الصلاة الذي اشتراه، قلب القسيس الصفحات ثم قال:

- انظر هنا، لا يمكن ان يمارس مسح الزيت على المحتضرين سوى قسيس وعلى ان يكون الزيت مقدسا من قبل احد الاساقفة. وهكذا ترى يا شفيك انك لا تستطيع ممارسة المسح بالزيت شخصا. اقرأ لي عاليا كيف تتم ممارسته».

قرأ له شفيك:

- تم هكذا: يمسح القسيس على كل حواس المريض، ويصلي في الوقت نفسه قائلا: «بهذا المسح المقدس، وبرحمته الإلهية، فليغفر لك الله كل خطاياك التي ارتكبتها من خلال عينيك وأذنيك وحاسة شمك وذوقك وكلماتك وملمسك ومشيتك».

قال القسيس:

- أريد ان اعرف يا شفيك كيف يمكن للمرء أن يأثم من خلال ملمسه، هل تعرف؟

- بطرق كثيرة يا سيدي. تستطيع ان تضع يديك في جيب غيرك، او كما يحدث في ساحة الرقص... حسنا، أنت تعرف ما يحدث هناك؟

- وبمشيته؟

- حين يعرج حتى يثير شفقة الناس.

- وبحاسة شمه؟

- حين لا يحب رائحة العفونة او العفنين.

- وبحاسة ذوقه يا شفيك؟

- حين يكون لديه ذوق تجاه شخص معين.

- وبكلماته؟

- هذا يتماشى مع الأذنين ايضا. حين يثرثر المرء كثيرا وهناك شخص آخر يصغي إليه.

صمت القسيس بعد هذه التأملات الفلسفية ثم قال:

- اذن نحن في حاجة الى زيت قدسه اسقف. إليك عشرة كراونات اذهب واشتر زجاجة. لا شك انهم لا يملكون هذا النوع من الزيت في المستودعات العسكرية.

انطلق شفيك بحثا عن زيت قدسه احد الأساقفة. وقد كانت هذه المهمة اصعب من البحث عن ماء الحياة في حكايات «بوجينا نيمكوبا» الخرافية⁽¹⁾. لقد ذهب الى عدة صيدليات وكان يسأل في كل واحدة قائلا: «من فضلكم اريد زجاجة من زيت قدس من قبل أسقف». وكانوا إما ينفجرون بالضحك او يختبئون تحت طاولة الحساب في فرع شديد. وفي هذه الاثناء كلها كان وجه شفيك رزينا كعادته.

وهكذا قرر ان يجرب حظه عند الجراحين. في أول عيادة جراحية ألقى به خارجا من قبل عامل العيادة. وفي الثانية اوشكوا ان يطلبوا له سيارة اسعاف بالهاتف. وفي الثالثة قال رئيس العيادة ان شركة «بولاكس المحدودة» في شارع «دلوها»، وفي شركة مختصة بالزيوت والورنيش، لا بد ان يكون لديها مخزون من الزيت الذي يريده شفيك.

كانت شركة «بولاكس المحدودة» في شارع «دلوها» شركة شديدة الكفاءة بالفعل، فهي لم تكن تترك زبونا يرحل دون تلبية طلباته. فلو طلب حتى بلسم الكوبايية (شجر اميركي جنوبي) لصبوا له «زيت التريبتين» حيث ان لهذا الزيت المعقول نفسه.

وحين دخل شفيك وطلب ما تعادل قيمته عشرة كراونات من زيت قدس من قبل أسقف. قال المدير لمساعدته: «صب له ما يعادل غيلا⁽²⁾ واحداً من زيت بذر القنب رقم ثلاثة يا سيد تاوخن».

(1) من اعظم الكائنات التشيكيات ومن جمعوا الحكايات الشعبية التشيكية والسلوفاكية. (س. ب.).

(2) غيل: مكبال للسوائل سعته ربع باينت والباينت يعادل 1/8 من الغالون. (الترجم).

قال المساعد لشفيك وهو يلف الزجاجاة بورقة، وبلهجة تجارية تماما: «هذا من أفضل نوعية. إذا اردت فرشاة دهان أو ورنيش أو طلاء فلا تتردد في القدوم إلينا. سنخدمك بكل كفاءة».

في هذه الاثناء كان القسيس يدرس مرة أخرى في كتاب الصلوات ما كان قد نسيه منذ أيام الدراسة. وقد استمتع كثيرا ببعض الجمل الذكية على نحو استثنائي والتي جعلته يضحك من كل قلبه: «ان عبارة المسح على المحتضرين او «المسح الاخير» مستمدة من حقيقة انه آخر عمليات المسح بالزيت التي تمارسها الكنيسة على الشخص».

أو: «يمكن ممارسة المسح بالزيت على المحتضرين على كل مسيحي كاثوليكي ان كان مريضا على نحو خطير وعاد أخيراً الى وعيه».

«على المريض ان يمسخ بالزيت المسح الأخير، إذا امكن، بينما لا تزال ذاكرته فعالة».

ثم وصل وصيف وهو يحمل رسالة تم اعلام القسيس فيها انه سيجري في اليوم التالي المسح بالزيت على المحتضرين بحضور «اتحاد النساء لأجل التثقيف الديني للجنود».

كان هذا الاتحاد مؤلفا من نساء عجائز مصابات بالهستيريا كن يوزعن على الجنود في المستشفيات ايقونات تمثل القديسين وقصصا تدور حول المحارب الكاثوليكي الذي يموت في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية. وقد كانت هذه القصص مزينة بلوحات ملونة تمثل ساحات الوغى، ويمكننا أن نرى فيها جثثا لبشر وجيفا لجياد، وقد انتشرت في انحاء المكان، وكذلك قطارات ذخيرة وعربات جرد المدافع وقد انقلبت عاليها سافلها. وعند الأفق نرى قرى تحترق وشظايا تتفجر. وفي المقدمة نرى جنديا محتضرا انتزعت ساقه من مكانها، وهناك ملاك ينحني فوقه وقد جلب له إكليلاً كتب على شريطه: «في هذا اليوم ستكون معي في الفردوس». وكان الجندي المحتضر

يبتسم بمنتهى السعادة وكأنما كانوا يجلبون له الأيس كريم.

حين قرأ أوتو كاتس مضمون الرسالة بصق ثم فكر قائلا: «غدا سيكون يوما مشهوداً».

كان يعرف اولئك «المستهترات» كما كان يسميهن، وذلك من كنيسة القديس اغناطيوس حيث اعتاد منذ اعوام خلت ان يعظ الجنود. في ذلك الحين كان يضمن عظامه الكثير من المشاعر، وكان من عادة نساء «الاتحاد» الجلوس خلف العقيد. وقد تقدمت منه مرة بعد الموعدة، امرأتان طويلتان نحيلتان ترتديان ملابس سوداء وتحمل كل واحدة منهما سبحة، وتحدثنا إليه مدة ساعتين عن الثقيف الديني للجنود حتى اثارنا غضبه فقال لهما: «أرجو أن تعذراني يا سيدتي العزيزتين، إلا أن النقيب ينتظرني لنلعب الورق».

قال شفيك برزانه بعد أن عاد من شركة بولاكس المحدودة:

- إليك اذن الزيت: انه زيت بذر القنب رقم ثلاثة من أفضل نوع. يمكننا ان نمسح على كتيبة كاملة به. الشركة موثوقة، وهي تبيع الورنيش والطلاء والفراشي ايضا. كل ما نحن في حاجة إليه الآن هو الجرس.

- لمّ الجرس يا شفيك؟

- علينا ان نقرعه ونحن في الطريق حتى يرفع الناس قبعاتهم لنا خلال نقلنا لزيت الرب يا سيدي. هذا هو ما يتم فعله دائما، وهناك الكثير من الناس الذين لا يعني لهم هذا الأمر شيئا قد وضعوا في الحبس لأنهم لم يرفعوا قبعاتهم. وفي مناسبة مشابهة في «جيجكوف» ضرب قس مرة رجلا ضريرا لأنه لم يرفع قبعته، كما حبس هذا الرجل ايضا حيث ثبت في المحكمة انه لم يكن أصم وأخرس بل أعمى فقط، وانه قد سمع رنين الجرس وسبب في فضيحة، رغم أن الوقت كان ليلا. وهذه هي الحال في «عيد الجسد» او «عيد القربان». وفي مناسبات اخرى لن ينظر الناس إلينا أبداً، ولكنهم

سيرفون لنا قبعاتهم هذه المرة. وإذا لم يكن لديك مانع يا سيدي فسأحضر جرسا في الحال.

بعد أن نال الموافقة عاد شفيك بجرس خلال نصف ساعة.

قال:

- انه من باب نزل على جانب شارع «أو كرجيجكو». لقد كلفني خمس دقائق من الفزع لا غير، وكان عليّ أن انتظر فترة طويلة لان الناس لم يتوقفوا عن المرور.

- سأذهب الى المقهى يا شفيك. وإذا ما جاء اي شخص يسأل عني فقل له ان ينتظر.

بعد حوالي الساعة وصل جنتلمان عجوز اشيب الشعر وكان مشدود القوام كالح الوجه.

كان مظهره ينفث غضبا وحنقا باردين. وقد بدا عليه وكأنه قد ارسل من قبل القضاء والقدر ليحطم كوكبنا البائس ويزيل كل آثاره من الكون. كانت كلماته جافة شديدة وقاسية:

- ليس في البيت؟ لا بد وانه قد ذهب الى احد المقاهي، أليس كذلك؟ اذن سأضطر الى انتظاره، أليس كذلك؟ سأنتظر حتى الصباح. معه نقود ينفقها في المقهى ولكنه لا يسدد ديونه. ويدعو نفسه قسيسا! الجرذ القذر! ثم بصق على أرض المطبخ.

قال شفيك وهو ينظر الى الغريب باهتمام:

- لا تبصق هنا يا سيدي.

- سأبصق مرة اخرى، كما ترى، هكذا.

قال الرجل الكالح الوجه بعناد هذا الكلام ثم بصق على الأرض مرة اخرى.

- عليه أن يخجل من نفسه. قسيس عسكري. يا للعار!
قال له شفيك منبهاً:

- لو كنت متعلما لكان عليك ان تداوي نفسك من مرض البصاق في بيوت الآخرين. أم هل تظن انه بسبب وجود حرب عالمية دائرة الآن تستطيع أن تفعل ما يحلو لك؟ عليك أن تتصرف باحترام وليس كقاطع طريق. عليك أن تتصرف بأدب وتحدث باحترام وألا تتصرف كذلك لعين ايها المدني الأحمق!

نهض الرجل الكالح الوجه من كرسيه وراح بدنه يهتز من الغضب وصاح:
- أتجروا على أن تقول لي إني لست رجلا شريفا؟ اذن من أنا؟ قل لي بالله عليك...

- أنت خنزير قذر.

هذا ما قاله شفيك له وهو ينظر مباشرة في عينيه.

- أنت تبصق على الأرض وكأنك في حافلة او قطار او مكان عمومي. لقد تساءلت دوما عن السبب في وجود لافتات معلقة في كل مكان تعلن ان البصاق ممنوع. والآن فهمت ان السبب في ذلك كله هو أنت. لا بد وانهم يعرفونك جيدا في كل مكان.

تغير لون الرجل الكالح الوجه وحاول الاجابة بسيل من الشتائم الموجهة نحو شفيك والقسيس.

سأله شفيك بهدوء: «هل انتهيت من خطبتك؟» وذلك بعد انتهاء الرجل مباشرة من قوله: «أنتما كلاكما ندلان. السيد والكلب سيان». ثم أردف شفيك: «أو هل تحب أن تقول شيئا آخر قبل أن تطير هابطا الدرج؟».

وبعد أن انهك الرجل الكالح الوجه نفسه الى ذلك الحد الذي لم يعد بعده في جعبته اية شتيمة اخرى، صمت فجأة، مما حدا بشفيك الى ان يفهم انه لم يعد هناك مغزى لأي مزيد من الانتظار.

وهكذا فتح الباب ووضع السيد ذا الوجه الكالحو عنده، ثم وجهه نحو الممر ورفسه رفسة تليق بأفضل لاعب في فريق حائزو على بطولة العالم في كرة القدم.

هذا وقد لحق صوت شفيك بالسيد ذي الوجه الكالحو طوال فترة نزوله الدرج:

- في المرة التالية حين تزور الناس المحترمين. عليك أن تتصرف بلياقة. ذرع السيد ذو الوجه الكالحو ولفترة طويلة المسافة تحت النوافذ جيئة وذهابا وهو ينتظر وصول القسيس. فتح شفيك النافذة وراح يراقبه. وأخيراً عاد القسيس فأدخل السيد ذا الوجه الكالحو الى الغرفة وأجلبسه على كرسي قبالته.

جلب شفيك في صمت مبصقة ووضعها امام الضيف:

- ما الذي تفعله يا شفيك؟



- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه سبق وحدثت بعض الامور غير السارة هنا مع هذا السيد فيما يخص البصاق على الأرض.

- اتركنا لوحدنا يا شفيك. لدينا عمل ننهيه.

أدى شفيك التحية وقال:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني سأغادركم.

ذهب الى المطبخ وفي الغرفة المجاورة جرت المحادثة الهامة التالية،

فقد سأل القسيس ضيفه قائلاً:

- لقد جئت لأجل النقود الخاصة بالكمبيالة ان لم أكن مخطئاً؟

- نعم وآمل...

- كثيراً ما يوضع الإنسان في موقف يكون فيه الأمل هو الشيء الوحيد

المتبقي له. كم هي جميلة كلمة «الأمل» الصغيرة هذه، انها جزء من تلك النبتة ثلاثية الأوراق التي تسمو بالإنسان الى ما فوق فوضى الحياة:

الاخلاص والأمل والإحسان.

- آمل أيها القسيس ان تسدد لي...

قاطعها القسيس قائلاً:

- طبعاً يا سيدي الفاضل. اسمح لي ان اكرر مرة اخرى ان كلمة «الأمل»

تمنح الإنسان قوة عظيمة في كفاحه مع الحياة. لا تفقد الأمل. لكم هو أمر رائع أن يكون للمرء مثال محدد، أن يكون كينونة بريئة نظيفة، تقترض المال

على اساس الكمبيالات وتأمل في ان تعاد إليها أموالها في الوقت المناسب. أن تأمل، أن تأمل على نحو مطرد في ان أدفع لك ألفاً ومئتي كراون، بينما لا

أملك حتى مئة منها في جيبي!

قال الضيف متلعثماً:

- اذن فأنت...

أجاب القسيس:

- نعم، ولذا فأنا...

ومرة أخرى اكتسب وجه الضيف تعبيراً ينم عن العناد والغضب.

قال وهو ينهض:

- يا سيدي هذا احتيال.

- هدئ من روعك يا سيدي الفاضل.

صاح الضيف بعناد:

- هذا احتيال. لقد أسأت استغلال ثقتي على نحو شائن.

قال القسيس:

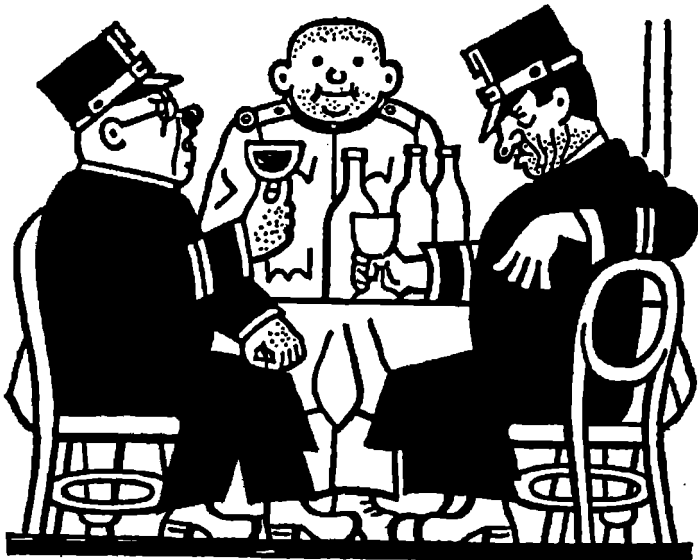
- يا سيدي. لا شك انه سيكون مفيداً لك ان تستنشق بعض الهواء النقي،

حيث ان الجو خانق هنا.

ثم نادى شفيك من المطبخ قائلاً:

- يا شفيك. هذا السيد هنا يريد الخروج الى الهواء النقي.

جاءت الاجابة من المطبخ كما يلي:



- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه سبق لي مرة ورميت بالسيد خارجا.

جاء الأمر:

- كرر العملية.

وقد تم تنفيذه بسرعة وخفة ودون رحمة.

قال شفيك حين عاد من بهو المدخل:

- لا بأس اننا تخلصنا منه قبل ان يثير فضيحة. ففي «ماليشيتسه» كان يسكن صاحب حانة من المثقفين، وكان يقتبس دوما من الكتاب المقدس أقوالا لكل المناسبات، وإذا ما ضرب شخصا كان يقول:

«من يحجم عن استعمال عصاه يكره ابنه، ومن يحب ابنه يعاقبه بالعصا قبل فوات الآوان. سأعلمكم الملاكمة في حانتي».

ابتسم القسيس وقال:

- اترى يا شفيك ما يحدث للشخص الذي لا يحترم القساوسة؟ لقد قال القديس يوحنا فم الذهب: «من يحترم القسيس يحترم المسيح. من يهين القسيس يهين المسيح الرب الذي ما القسيس إلا مثله!» علينا ان نقوم بتحضيرات كاملة للغد. عليك بتحضير بعض البيض المقلي ولحم الخنزير. امزج لنا بنشاً⁽¹⁾ ممزوجا بنبيذ بوردو الأحمر، ومن ثم سنكرس أنفسنا للتأمل، فكما قيل في كتاب صلوات المساء: «ببركة الله ستبتعد أحابيل العدو كافة عن هذا المسكن».

هناك اشخاص في هذا العالم يتميزون بالعناد الشديد، ومنهم ذلك الشخص الذي رمي به مرتين خارج شقة القسيس. ما أن تم تحضير العشاء حتى قرع الجرس. ذهب شفيك ليفتح الباب وعاد بعد لحظة ليقول:

- لقد عاد يا سيدي. اقفلت عليه باب الحمام حتى نستطيع أن نتناول عشاءنا في سلام.

(1) شراب مسكر مؤلف من كحول وعصير ليمون وشاي وماء. (المترجم).

قال القسيس:

- ليس هذا عدلاً يا شفيك. «الضيف في البيت هو الرب في البيت». في ولائم العهود الغابرة كانوا يمتعون أنفسهم بصحبة الوحوش. اجلبه الى هنا حتى يسلينا.

عاد شفيك بعد لحظة مصطحبا الرجل العنيد الذي كان يحرق بكآبة.

دعاه القسيس بكياسة قائلاً:

- اجلس. نحن ننهي عشاءنا الآن. فقد سبق وتناولنا القريدس وسمك السلمون والآن تناول البيض المقلي وفخذ الخنزير ايضا. نحن نقيم موائد عامرة ورائعة حين يقرضنا الناس المال.

قال الرجل الكالح الوجه:

- آمل ألا أكون موجوداً هنا من اجل تسليتكم. هذه هي المرة الثالثة التي اجيء بها لعندكم. آمل ان يكون كل شيء قد تم توضيحه.

قال شفيك:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه «علقة» حقيقة كذاك الشخص «بوشيك» من سكان «ليبي». فقد رمي به في ليلة واحدة ثماني عشرة مرة خارج نادي «اكزرنز» وكان يعود دائماً وهو يقول انه نسي غليونه. لقد دخل متسللاً عبر النافذة والباب ومن المطبخ ومن على الجدار باتجاه الصالة وعبر القبو الى البار، وكان سيهبط من المدخنة لولا ان انزله احد رجال الاطفاء من على السقف. لقد كان ملحاحاً جداً والى حد انه كان يصلح كوزير جيد او نائب في البرلمان. لقد فعلوا كل ما كان في وسعهم لأجله.

كرر الرجل العنيد وكأنه لم يلحظ ما كان يقال:

- أريد انهاء الموضوع وأطالبكم بالاصغاء إليّ.

قال القسيس:

- نمحك ذلك. تحدث أيها الرجل المحترم. تكلم طالما كان ذلك في وسعك، وسنستمر نحن في هذه الاثناء في تناول الطعام. آمل ألا يكون في ذلك مقاطعة لحكايتك. يا شفيك، أحضر الطعام.

قال الرجل العنيد:

- كما تعرف فإن الحرب قد اضطرم أوارها. لقد أقرضتك المبلغ قبل الحرب ولولا الحرب لما اصررت على السداد. ولكنني عانيت من تجارب قاسية.

تناول دفتر ملاحظات من جيبه واستأنف قائلا:

- الأمر كله مسجل هنا. الملازم الأول «ياناتا» مدين لي بسبعمئة كراون وقد توافق الى حد السقوط في معركة نهر الدرينا. والملازم الأول «براشيك» أسر على الجبهة الروسية وهو مدين لي بألفين من الكراونات. أما النقيب «فيختيرله» فهو مدين لي بالمبلغ نفسه وقد سمح لنفسه بأن يقتل من قبل جنوده أنفسهم عند «روسكارافا»⁽¹⁾. هذا وقد أسر الملازم الأول «ماخيك» في الصرب وهو مدين لي بألف وخمسمئة كراون. وهناك أشخاص آخرون علي هذا المنوال هنا. فقد سقط احدهم في الجبال الكارباتية ومعه كمبيالة غير مسددة لي، كما أسر آخر ومعه مثلها، أما الثالث فمات غرقا في الصرب ومات الرابع في المستشفى في هنغاريا. والآن تستطيع أن تقدّر مخاوفي من أن تخرب هذه الحرب بيتي اذا لم أكن نشيطا وقاسيا. يمكنك أن تقول إنك لست في خطر مباشر الآن، ولكن انظر هنا.

ثم دفع بدفتره تحت أنف القسيس وقال:

- ألا ترى ايها القسيس ان القسيس «ماتياش» في «برنو» قد توفي في مستشفى للعزل منذ اسبوع؟ كنت استطيع أن امزق شعري كله. كان

(1) نقطة اتصال للسكك الحديدية في غاليسيا حيث جرت معارك كبيرة بين القوات الروسية والنمساوية في عامي (1914-1915).

مدينا لي بألف وثمانئة كراون ثم دخل جناح الكوليرا ليمارس المسح بالزيت على شخص لم يكن يعني شيئاً له.

قال القسيس:

- كان ذلك واجبه يا سيدي العزيز. وأنا ذاهب ايضاً لأمارس المسح بالزيت على المحتضرين غداً.

قال شفيك:

- وفي جناح الكوليرا أيضاً. ويمكنك ان تذهب معنا لنرى بنفسك ما الذي تعنيه التضحية بالنفس.

قال الرجل العنيد:

- صدقتني أيها القسيس اني في حالة يائسة. هل تشن هذه الحرب حتى تقضي على كل من هو مدين لي بالمال؟

قال شفيك:

- حين استدعونك الى الاحتياط وتذهب الى الجبهة، سيقوم القسيس وأنا ايضاً باقامة القداس. حتى يسرّ الرب في السماء إذا ما مزقتك أول قذيفة الى أشلاء.

قال الرجل «العلقة» للقسيس:

- يا سيدي، هذه مسألة جدية. أطلب ألا يتدخل خادمكم في شؤوننا، حتى نستطيع الوصول الى حل لهذه المسألة فوراً.

أجاب شفيك:

- كما تريد يا سيدي. تفضل ووجه إليّ أمراً بالآأ تدخل في شؤونك، وإلآ فسأستمر في الدفاع عن مصالحك كما يليق بالجندي المحترم. هذا الرجل على حق تماماً. انه يريد ان يرحل من هنا بمفرده أنا ايضاً لا أحب المشاجرات. أنا رجل اجتماعي.

قال القسيس وكأنه لم يلحظ وجود ضيفه:

- يا شفيك لقد مللت من هذه المسألة. كنت اظن ان هذا الرجل سيسلينا ويحكى لنا بعض القصص، ولكنه يطلب مني بدلا عن ذلك ان آمرك بعدم التدخل، رغم انك اضطررت الى التعامل معه مرتين من قبل. في مساء كهذا حين يكون امامي طقس ديني هام كهذا. وحين أكون مضطرا الى ان اوجه كل أفكارى نحو الرب. يأتي ليزعجني بحكايته الغبية حول ألف ومثتي كراون، ويشتت أفكارى بحيث تبتعد عن نشدان ضميري والرب، بل ويريدني ان اقول له مرة اخرى اني لن اعطيه اي شيء الآن. لم أعد اريد التحدث معه وذلك حتى لا تفسد هذه الأمسية المقدسة. قل له يا شفيك: «لن يعطيك القسيس شيئا!».

نفذ شفيك الأمر وهو يصيح بقوة في أذن الضيف.

استمر الضيف العنيد بالجلوس على اية حال.

قال القسيس:

- يا شفيك، اسأله كم سيجلس هنا وهو فاغر فاه؟

أجاب الرجل «العلقة» بعناد:

- لن أتحرك من هنا حتى استعيد نقودي!

نهض القسيس وذهب الى النافذة وقال:

- في مثل هذه الحالة أسلمك إياه يا شفيك. افعل به ما يحلو لك. قال

شفيك وهو يمسك بالضيف الثقيل من كتفه:

- تعال من هنا يا سيدي. «الثالثة ثابتة».

ثم كرر أداءه بسرعة وأناقة بينما راح القسيس يقرع مارشا جنائزيا على

زجاج النافذة.

وهكذا مر المساء الذي كان مكرّسا للتأمل عبر مراحل عدة. وقد اقترب

القسيس من الرب بورع وحماسة الى حد انه كان ممكنا في منتصف الليل

سماع الغناء التالي من شقته:

«حين سرنا نحو الجبهة».

بكت الفتيات حتى كادت عيونهن تخرج من محاجرها...»

هذا وقد غنى الجندي الطيب شفيك معه.

في المستشفى العسكري كان هناك رجلان يتوقان للمسح بالزيت. رائد عجوز ومدير مصرف يخدم كضابط في الاحتياط. كان الاثنان قد اصيبا بالرصاص في المعدة في الجبال الكارباتية ويتمددان في سريرين متجاورين. كان الضابط الاحتياطي يعتبر ان واجبه ان يتم المسح بالزيت عليه هو، حيث أن الضابط الأعلى منه رتبة كان يتوق الى ذلك ايضا. وكان يعتبر أن عدم اجراء المسح عليه خرق للنظام. لقد فعل الرائد العجوز ذلك بعد حساب مدروس، حيث أنه كان يتصور أن الصلاة يمكن ان تشفي الجريح. وعلى أية حال مات الرجلان كلاهما في الليلة السابقة على المسح بالزيت، وحين وصل القسيس مع شفيك في الصباح كان كلا الضابطين ممددين تحت الشراشف بوجهين مسودين، ككل أولئك الذين يموتون من الاختناق.

غمغم شفيك حين قيل لهما في المكتب إن هذين الشخصين ما عادا في حاجة الى اي شيء «لقد اقمنا الدنيا وأقعدناها، وها هما الآن قد رحلا وأفسدا الأمر كله».

وكان صحيحا انهما قد اقاما الدنيا واقعداها، فقد كانا قد استأجرا عربة دروشكي للوصول الى هناك، وكان شفيك يقرع الجرس والقسيس يحمل في يديه الزجاجاة الحاوية للزيت الملفوفة بغطاء طاوله. وقد بارك بكل وقار كل من مرّ به وكانوا يرفعون قبعاتهم احتراما.

لم يكن هناك الكثيرون منهم، هذا صحيح، رغم أن شفيك حاول ان يشير أكبر جلبة ممكنة بجرسه.

كان شحاذ او اثنان من شحاذي الطرقات الأبرياء قد لحقا بالدروشكي

وقام احدهما بالتعلق بها من الخلف بينما راح رفاقه يصيحون: «خلف العربية، خلف العربية!».

وقرع شفيك الجرس فضرب الحوذي بسوطه نحو الخلف، وفي شارع «فوديتشكوف» ركضت امرأة تعمل بوابة وكانت عضوا في طائفة «مريم العذراء» خلف الدروشكي حتى لحقت بها. وقد تلقت التبريك والعربة تواصل سيرها ثم رسمت اشارة الصليب وبصقت وصاحت: «انهما في تلك العربية ياهوه»⁽¹⁾ مع الرب! في هذا ما يكفي لاصابتك بالسل الرئوي! وبعد ذلك عادت لاهثة الأنفاس الى مكان عملها.

كانت فرس العربية هي التي انزعجت كأكثر ما يكون من صوت الجرس لا بد وأنه ذكرها بشيء حدث في الماضي لأنها كانت تنظر نحو الخلف باستمرار وتحاول من وقت الى آخر أن ترقص فوق حصى الشارع.

اذن، كان هذا هو ما تحدث عنه شفيك من حيث اقامة الدنيا واقاعادها. وفي هذه الاثناء كان القسيس قد دخل الى المكتب لحل الجانب المالي لقضية المسح بالزيت المقدس وقدم كشف حساب الى الرقيب الأول المسؤول عن الشؤون المالية يفيد بأن السلطات العسكرية مدينة له بمئة وخمسين كراونا لقاء الزيت المقدس والرحلة الى المستشفى.

ثم نشب جدال بين قائد المستشفى والقسيس، وقد ضرب القسيس خلاله الطاولة عدة مرات بقبضته وقال: «لا تتصور أيها النقيب أن المسح بالزيت المقدس مسألة مجانية، فحين يؤمر ضابط من سلاح الفرسان بالذهاب الى مزرعة الخيول ليحضر الجياد فإنهم يدفعون له التعويضات ايضا. يوسفني أن هذين لم يبقيا على قيد الحياة حتى يمسحا بالزيت المقدس. كنت سأطالب بخمسين كراونا اضافية».

في هذه الاثناء كان شفيك ينتظر في المحرس مع زجاجة الزيت والتي اثار اهتماما حقيقيا لدى الجنود.

(1) من ملوك إسرائيل (سفر الملوك الثاني الإصحاح 9) (المترجم).

فقد عبر احدهم عن رأيه في ان هذا الزيت يصلح الى حد كبير لتنظيف البنادق والحرايب.

كما طلب جندي شاب قادم من المرتفعات البوهيمية المورافية - وكان لا يزال يؤمن بالرب - من الآخرين ألا يتحدثوا عن مثل هذه الامور وألا يناقشوا ألغاز الأسرار المقدسة. علينا - كما قال - ان نعيش على الأمل كمسيحيين حقيقيين.

نظر أحد الجنود الاحتياطيين وكان كبيرا في السن الي المجند الغرّ وقال:
- الأمل كبير في أن تمزق شظية رأسك! لقد حجبوا الحقائق عنا. لقد جاء مرة الى قرينتنا نائب عن الحزب الديني وتحدث إلينا عن السلام الإلهي الذي يعم الأرض وكيف أن الرب لم يرد ان تنشب الحرب وأراد لنا جميعا ان نعيش في سلام ونتفاهم كالاخوة. وانظروا إليه الآن ذلك الأحمق اللعين! بعد ان نشبت الحرب ها هم يصلون في الكنائس حتى ينصر الله جيوشنا ويتحدثون عن الرب كأنه رئيس أركان يقود الحرب ويوجهها. من هذا المستشفى العسكري رأيت الكثير من الجنازات وهي تخرج، كما رأيت حمولة عربات باكملها من الأذرع والسيقان المبتورة تخرج منه ايضا.

قال جندي آخر:

- والجنود يدفنون عراة حتى يضعوا في البزة العسكرية شخصا آخر حياً. وهكذا دواليك.

قال شفيك:

- حتى نتنصر.

قال عريف بلهجة ترتيلية من احدى الزوايا:

- وهذا الأحمق اللعين يريد أن نتنصر. اذهب الى الجبهة، الى الخنادق! يجب ان ترمى الى الحرايب، فوق الأسلاك الشائكة والألغام وقذائف

الهاون. يمكن لأي شخص أن يقبع هنا خلف الخطوط، ولكن لا أحد يريد أن يسقط في ميدان القتال.

قال شفيك:

- اعتقد انه من الرائع ان يترك الإنسان حربة وتخترقه وأنه ليس من السوء في شيء أن يصاب برصاصة في معدته. والأعظم من ذلك ان تمزقك كذيفة وترى ساقيك وبطنك بعيدا عنك بطريقة ما. هذا مضحك جدا وستموت قبل أن يفسر لك أحد ما حدث.

تهند الجندي الشاب تنهيدة صادرة عن القلب. كان يشعر بالأسف على شبابه. لماذا كان عليه أن يولد في مثل هذا القرن الغبي ليذبح كثور في مسلخ؟ ما ضرورة ذلك كله؟

قال أحد الجنود، وكان في الأصل معلم مدرسة، وبدا أنه كان يقرأ افكار الجندي الشاب:

- يفسر بعض العلماء الحرب بأنها تنشب وفق ظهور بعض البقع الشمسية. فما ان تظهر مثل هذه البقعة الشمسية حتى يحدث دائما شيء رهيب، ان غزو قرطاجة...
قاطعته العريف قائلا:

- الى الجحيم بثقافتك. اذهب وامسح الغرفة بدلا عن هذا الكلام. اليوم هو دورك؟. ما علاقتنا بالبقع الشمسية؟ حتى لو كان هناك عشرون منها لما كنت اشترئها.

قال شفيك:

- هذه البقع الشمسية هامة جدا بالفعل، فمرة كانت هناك بقعة شمسية كهذه وفي اليوم نفسه ضربت «علقة» في «أوبانزيتو» في «نوسله». ومنذ ذلك الحين وكلما ذهبت الى مكان ما، انظر دائما الى الصحف لأرى إن كانت قد ظهرت بقعة شمسية أم لا. وما أن تظهر واحدة منها حتى اختفي،

لا اذهب الى اي مكان، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي استطعت بها النجاة. وفي ذلك الحين الذي دمر فيه بركان «مونت بيله» جزيرة المارتينيك بأكملها، كتب أحد العلماء في صحيفة «نارودني بوليتيكا» انه ابلغ القراء منذ زمن بعيد عن وجود بقعة شمسية كبيرة. ولكن «نارودني بوليتيكا» لم تلحق فتنقذ الجزيرة في الوقت المناسب، وهكذا أصيب سكانها بالكارثة الماحقة.

في هذه الاثناء كان القسيس يقابل في المكتب الواقع في الطابق العلوي سيدة من «اتحاد النساء لأجل الثقيف الديني للقوات»، وهي حيزبون كرية تدور في انحاء المستشفى من الصباح الباكر وتوزع في كل مكان ايقونات للقديسين التي كان الجرحى والمرضى من الجنود يرمونها في المباسق.

وخلال جولاتها كانت تثير حنق الجميع بثررتها الفارغة حول ضرورة أن يتوبوا عن خطاياهم وأن يرعوا عن حق حتى يمنحهم الله بعد الموت خلاصا أبديا.

كانت شاحبة اللون حين تحدثت الى القسيس. قالت ان الحرب تحول الجنود الى وحوش بدلا عن ان تتسامى بهم الى النبل والشرف. في الطابق السفلي كان المرضى يمدون ألسنتهم لها ويقولون لها انها مجرد فزاعة طيور وعجوز مخيفة نحيلة محافظة. قالت للقسيس بالألمانية: «لكم هذا رهيب أيها القسيس! لقد فسدت الناس!».

ثم وصفت له كيف ترى الثقيف الديني للجندي: لا يستطيع الجندي أن يحارب بشجاعة في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية، غير هياب بالموت، إلا حين يؤمن بالله وتكون لديه مشاعر دينية فياضة، إذ انه يعرف عند ذلك ان الفردوس في انتظاره.

ثم استمرت في ثررتها وقالت بضعة اشياء سخيفة اخرى من هذا القبيل،

وكان واضحاً انها لن تدع القسيس يذهب في حال سبيله. ولكنه اعتذر منها بطريقة غير لائقة على نحو ما.

نادي باتجاه المحرس: «نحن ذاهبان الى البيت يا شفيك». وفي طريق العودة لم يقيما الدنيا ولم يقعداها.
قال القسيس:

- في المرة القادمة لو أراد اي شخص ان يمسح عليه بالزيت المقدس، سيكون له ذلك. تصوّر ان عليك ان تساوم وتماحك على المال من أجل كل روح تريد انقاذها. ان الحسابات هي الشيء الوحيد الذي يفكرون به. وحين رأى زجاجة الزيت «المقدس» وهي لا تزال في يد شفيك قال وهو مقطب:

- سيكون من الأفضل يا شفيك لو لمعت حذائي وحذاءك بهذا الزيت.
أضاف شفيك:

- سأرى إن كنت استطيع ان ازيت القفل به. انه يصرّ على نحو مخيف حين تعود ليلا الى المنزل.
وهكذا انتهت ممارسة المسح بالزيت المقدس التي لم تحدث أبداً.

شفيك

وصيفاً للملازم الأول لوكاش

لم يدم حظ شفيك الطيب طويلاً، فقد قطع القدر الذي لا يرحم علاقته الودية مع القسيس. وإن كان القسيس حتى هذا الحدث شخصاً محبوباً، فإن ما فعله الآن كان جديراً بنزع هذه الصفة الجيدة عنه.

لقد باع القسيس صاحبنا شفيك إلى الملازم الأول لوكاش، وإذا توخينا الدقة لقلنا انه قامر عليه خلال لعب الورق، وذلك بالطريقة نفسها التي اعتادوا بها في روسيا ان يبيعوا الأتقان في العهود القديمة. وقد حدث ذلك على نحو غير متوقع أبداً. فقد اقام الملازم الأول لوكاش حفلة رائعة ولعبوا لعبة «الواحد والعشرين».

خسر القسيس كل شيء وقال في النهاية:

- كم تسلّفتني على وصيفي؟ انه أبله ومضحك وذو شخصية تبعث على الاهتمام، انه من ذلك النوع من الناس الذي لا يشبه له: لم يسبق لك ان عرفت وصيفاً مثله.

قال الملازم الأول لوكاش:

- اعرض عليك مئة كراون. وإذا لم تعدها بعد غد سترسل لي هذه العينة النادرة. ان وصيفي شخص مثير للاشمئزاز فهو يئن باستمرار ويكتب الرسائل الى البيت ويسرق في الوقت نفسه ما يستطيع وضع يده عليه. غالبا ما أضربه ولكن هذا لم يجد معه. كما أنني ألكم أذنيه كلما رأيته ولكن هذا لم يجد معه ايضا. لقد اسقطت له بعض اسنانه الأمامية ولكن حتى هذا لم يجد مع ذلك النغل.

قال القسيس بمرح:

- موافق اذن. إما مئة كراون بعد غد او شفيك.

وقد خسر هذه الكراونات المئة ايضا وعاد الى البيت حزينا. كان يعرف بالتأكيد انه لن يستطيع خلال يومين - وليس في هذا أي شك - أن يجمع تلك الكراونات المئة وانه قد قايض بشفيك على نحو دنيء ومثير للاشمئزاز.

قال لنفسه حانقا: «كان يمكنني ان أطلب مئتين على حد سواء». ولكنه حين صعد الى الترام الذي سيقله الى البيت عاوده تأنيب الضمير والأسى.

فكر في نفسه وهو يقرع جرس الشقة: «لم يكن في ذلك التصرف اية مروءة. كيف استطيع ان انظر في عينيه الغبيتين اللطيفتين».

قال بعد أن دخل الى البيت:

- يا عزيزي شفيك، حدث اليوم شيء استثنائي. لقد كان حظي سيئا في لعب الورق اليوم. كنت «بانكر⁽¹⁾» وكان معي الآس في يدي ثم جاءتني ورقة العشرة. ولكن كان مع «البانكر» ورقة «الولد» ومعه واحد وعشرون ايضا. سحبت ورقة «آس» وورقة العشرة عدة مرات ولكن كان «البانكر» يسحب الورقة نفسها طوال الوقت، وهكذا خسرت كل أموالي.

توقف ثم أردف:

- وأخيرا راهنت عليك وخسرتك. لقد اقترضت مئة كراون مرأهنا عليك

(1) أي راهن على كل محتويات البنك. (س. ب.)



وإذا لم اعدّها بعد غد لن تعود تابعا لي بل للملازم الأول لو كاش. آسف جدا بالفعل...

قال شفيك:

- ان كانت المسألة مسألة مئة كراون، استطيع ان اقرضك هذا المبلغ.

قال القسيس وقد اشرق وجهه:

- تعطيها لي وأنا آخذها الى لو كاش فوراً. لا احب مفارقتك على

الاطلاق.

دهش لو كاش كثيرا حين رأى القسيس مرة اخرى.

قال القسيس وهو ينظر من حوله بانتصار:

- عدت لأسدّد ديني. اسمح لي ان انضم الى اللعبة.

صاح القسيس حين جاء دوره:

- بانكو. لديّ نقطة واحدة زيادة فحسب.

ثم قال حين جرت الدورة الثانية:

- حسنا اذن، بانكر مرة اخرى ومستتر.

صاح «البانكر»:

- ادفع عشرين.

قال القسيس بهدوء وهو يدفع للبنك آخر أربعين كراون من الكراونات

المئة التي اقرضها اياه شفيك ليفتديه من رقه الجديد:

- كل ما معي تسعة عشر.

في طريق العودة وصل القسيس الى نتيجة مفادها ان الأمر قد انتهى وانه

لا يمكن انقاذ شفيك الآن، وان القدر قد رسم له أن يكون وصيفا للملازم

الأول لو كاش.

وحين فتح له شفيك الباب قال له:

- انتهى الأمر كله يا شفيك؟ لا منجى من القدر. لقد خسرتك وخسرت المئة كراون خاصتك ايضاً. لقد بذلت ما بوسعي ولكن القدر كان اقوى مني. لقد رميت بك بين مخالب الملازم الأول لوكاش وقد حان وقت الفراق. سأله شفيك بهدوء:

- وهل كان هناك الكثير من المال في «البنك»؟ ألم تتح لك فرصة ان تكون متفوقاً مرات عدة؟ إذا لم تأت الورقة الصحيحة فالامر سيء جداً، ولكن قد يكون الامر سيئاً ايضاً اذا ما كانت الأوراق جيدة جداً. في «زديراز» عاش مرة سمكري يدعى «فييفودا» وقد اعتاد على لعب «المارياش» في حانة تقع خلف «مقهى القرن». وقد همس له الشيطان مرة في أذنه فقال: «ما رأيك بلعبة واحد وعشرين وكل ضربة بعشرة هلرات؟» وهكذا لعبوا الواحد والعشرين وكان معه البنك، وكل ضربة بعشرة هلرات. ثم انضم الجميع الى اللعبة ونما البنك حتى وصل الى عشرة كراونات. أراد فييفودا العجوز مساعدة الآخرين، لذلك واظب على القول: «الواطي والسيء آمن». ولكنك لا تستطيع ان تتخيل ذلك الحظ السيء الذي واتاه، فمهما كانت أوراقه واطئة كان مع الآخرين ما هو ادنى منها. ثم نما البنك ونما وأصبح فيه مئة كراون الآن. لم يكن مع احد من اللاعبين ما يكفي ليصبح «بانكو» وكان «فييفودا» يجلس هناك وقد راح يتعرق بشدة.



ما كنت تستطيع أن تسمع سوى كلماته: «الواطيء والسيء آمن» راحت الناس تنضم الى اللعبة وكل ضربة بعشرة كراونات وانفجر الجميع. ثار غضب رئيس ورشة لتنظيف المداخن وذهب الى البيت لإحضار المزيد من المال. ثم اصبح «بانكو» حين كان هناك ففي البنك اكثر من مئة وخمسين كراونا. أراد فييفودا الخلاص بنفسه من اللعبة، وقد اعترف فيما بعد انه حاول أن يرفع الضربة الواحدة الى ثلاثين كراونا وذلك حتى لا يريح. ولكن جاءه بدلا عن ذلك ورقتا «آس». حاول الادعاء بأنه ليس معه شيء وقال عن عمد: «الدفع ستة عشر». وكان مع رئيس الورشة خمسة عشر فقط. ألم يكن في ذلك ضربة حظ سيئة؟ شحب وجه فييفودا العجوز وشعر باليؤس. راح الجالسون حول المائدة يشتمون ويهمهمون بأنه يغشهم وانه سبق له ان عوقب مرة بالضرب بسبب الغش، رغم انه كان بالفعل لاعبا شريفا. وهكذا دفع له الجميع الكراون في أثر الكراون حتى اصبح لديه ما مجموعه خمسمئة كراون. لم يعد صاحب الحانة يحتمل. كان معه مبلغ جاهز كي يدفعه الى معمل الجعة وهكذا اخذه وجلس الى المائدة ودفع بمئتي كراون ثم مئتين اخريين. بعد ذلك أغلق عينيه ودار حول نفسه بكرسيه طلبا للحظ الطيب وقال «بانكو» ثم قال «سنلعبها مكشوفة⁽¹⁾». لا اعرف ما الذي لم يكن فييفودا العجوز مستعدا للتخلي عنه حتى يخسر. وقد ذهل الجميع حين سحب ورقة من «الشدة» وكانت سبعة فأخذها. كان صاحب الحانة يتسم ابتسامة خفية فقد كان معه واحد وعشرون. سحب فييفودا العجوز سبعة اخرى ومع ذلك فقد أخذها. قال صاحب الحانة بمكر: «والآن سيأتيه آس او عشرة. أراهن بأخر قمصاني يا سيد فييفودا انك ستخسر». ساد صمت مميت. سحب فييفودا مرة اخرى فظهرت سبعة ثالثة. شحب وجه صاحب الحانة حتى صار لونه كالأموات فقد كان ذلك آخر ما معه من مال. دخل الى المطبخ وبعد فترة قصيرة جاء صبياً مسرعاً وهو يصيح بنا أن نأتي لنجدة صاحب الحانة الذي شنت نفسه

(1) أي على اللاعب أن يكشف يده قبل الابتداء باللعب وأن يسمح لكل منافسيه أن يروا كل أوراقه. (س. ب.).

من مقبض النافذة. وهكذا قطعنا الحبل وأنزلناه وأنعشناه واستمرت اللعبة. لم يكن قد تبقى مع الحاضرين أية اموال. كانت كل النقود في البنك امام فييفودا الذي كان ما يزال يقول: «الواطئ والسيء آمن». وكان مستعداً أن يتخلى عن اي شيء في العالم حتى يخسر ولكن بما انه كان مضطراً لكشف يده على الطاولة فلم يكن يستطيع ان يغش وان يخسر بالتالي عن عمد. كان الجميع حانقين بسبب حظه الطيب وقرروا أن يمنحوه «سندات اقرار بأنهم مدينون له» اذ لم تعد معهم نقود. وهكذا استمر اللعب ساعات عديدة وتكومت الآلاف فوق الآلاف امام فييفودا العجوز. أصبح رئيس ورشة منظفي المداخن لدينا للبنك بأكثر من مليون ونصف مليون من الكراونات، كما أصبح أحد تجار الفحم مديناً بحوالي المليون، أما ذلك البواب الذي يعمل في «مقهى القرن» فبثمانمئة ألف كراون، واصبح طالب الطب مديناً بأكثر من مليونين. كان مجموع الأموال التي يقامر بها اللاعبون للمرة الواحدة اكثر من ثلاثمئة ألف كلها مدونة على قطع صغيرة من الورق. حاول فييفودا العجوز الحيل المختلفة كلها. كان يذهب الى المرحاض باستمرار ويطلب من شخص من الحاضرين ان يسحب له، وحين يعود من المرحاض يقولون له ان ذلك الشخص قد سحب وان مجموع ما معه اصبح واحداً وعشرين. جلبوا «شدات» جديدة ولكن ذلك لم يجد فتيلاً. حين كان فييفودا يتوقف عند الخمسة عشر يكون لدى الآخر اربعة عشر فقط. كانوا جميعاً ينظرون بغضب الى فييفودا العجوز وكان اكثر من شتمه من الحاضرين بلاط لم يكن قد وضع نقدا على الطاولة سوى ثمانية كراونات. قال بصراحة إن شخصاً كفييفودا يجب ألا يترك في حال سبيله بل يستحق ان يضرب ويرمى به خارجاً ويتم إغراقه كجرو صغير. لا تستطيع تصوّر مدى يأس فييفودا العجوز. وأخيراً خطرت له فكرة؛ قال لمنظف المداخن: «سأذهب الى المرحاض. هل لك ان تسحب لي؟» ثم خرج كما كان دون قبعته حتى وانطلق الى شارع ميسيليكوفا» يبحث عن الشرطة. وقد وجد

دورية شرطة فحكى لها ان لعب القمار جار على قدم وساق في تلك الحانة بعينها. وقد طلبت الشرطة منه أن يسبقها وانها ستلحق به فوراً. وقد غاد وقيل له انه خلال غيابه خسر طالب الطب اكثر من مليونين وان البواب قد خسر اكثر من ثلاثة ملايين. كان مجموع الأموال المراهن عليها في المرة الواحدة الآن خمسمئة ألف كراون. بعد فترة قصيرة هجم رجال الشرطة فصرخ البلاط: «فلينج كل بجلده»، ولكن ذلك لم يجد فصيلاً. صادرت الشرطة الاموال واقتادت كل اللاعبين الى المخفر. حاول تاجر الفحم من بلدة «زديراز» المقاومة فحملوه في عربة المخمورين. كان في البنك سندات دين تتجاوز قيمتها نصف مليار من الكراونات ونقود بمبلغ ألف وخمسمئة كراون. قال مفتش الشرطة حين رأى هذه المبالغ التي تصيب المرء بالدوار: «لم يسبق لي ان صادرت مثل هذه المبالغ من قبل. هذا اسوأ من مونتي كارلو». كان على الجميع ان يبيتوا في المخفر حتى الصباح باستثناء فيفودا العجوز الذي اطلق سراحه بسبب ابلاغه الشرطة وقد وعدوه بأن يحصل على المكافأة القانونية وقدرها ثلث الاموال التي صودرت، اي حوالي مئة وستين مليوناً من الكراونات او تزيد. ولكن وقبل ان يطلع الصباح، كان هذا قد جن جنونه فراح يوصي على عشرات الخزائن الحديدية. هذا ما يسمى بالربح في القمار.

ثم ذهب شفيك ليصنع شيئاً من «الغروغ». وحين نجح في ان يضع القسيس في فراشه تلك الليلة انفجر هذا الاخير باكياً وقال منتحياً:

- لقد قايضت عليك يا صديقي. لقد قايضت عليك واخجلتاه. اشتهمني، اضربني، وسأقبل ذلك. لقد تخليت عنك. لا استطيع ان انظر في عينيك. مزقني، عضني، حطمني. لا استحق افضل من ذلك. هل تعرف من أنا؟
ثم قال القسيس وهو يدفن وجهه الذي غطته الدموع في الوسادة وذلك بلهجة لطيفة رقيقة:

- أنا نغل لا اعتبار له اطلاقاً!

ثم نام كالخشبة.

في اليوم التالي خرج القسيس باكرا من البيت وهو يتحاشى نظرات شفيك وعاد في وقت متأخر من الليل مصطحبا معه جنديا بدينا من سلاح المشاة.

قال وهو يتجنب مرة أخرى نظرات شفيك:

- أره يا شفيك المكان حتى يتعرف عليه وعلمه كيف يصنع «الغروغ». غداً عليك بالمشول امام الملازم الأول لوكاش.

أمضى شفيك الليلة بانسجام مع الوصيف الجديد وهو يعلمه صنع «الغروغ». في الصباح كان جندي المشاة البدين لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه وكان يدندن مزيجاً عجيبياً من مختلف الأغاني الوطنية، فيخلط الواحدة منها بالآخرى: «حول خودوف يتدفق جدول، حبيبتي تسقي جعة حمراء هناك، أيها الجبل، الجبل، أنت سامق، العذارى يسرن على امتداد الممر، على الجبل الأبيض يحرث فلاح».

قال شفيك:

- لست قلقاً عليك. بموهبة كهذه ستحافظ على عملك مع القسيس.

وهكذا حدث ان رأى الملازم الأول لوكاش في الصباح وللمرة الأولى الوجه اللطيف والصادق للجندي الطيب شفيك الذي أعلن قائلاً:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني شفيك الذي خسرنى القسيس في القمار.

* * *

إن مؤسسة وصيف الضباط مؤسسة عريقة جداً، اذ يبدو انه حتى الاسكندر الكبير كان لديه وصيف. الشيء المؤكد، على اية حال، انه في عهد الاقطاع كان مرتزقة الفارس يلعبون هذا الدور نفسه. وما يكون

سانشوبانزا لدون كيشوت اذن؟ يدهشني انه لم يكتب اي مؤرخ حتى الآن تاريخ الوصيف العسكري. ولو كتب احدهم مثل هذا التاريخ لقرأنا فيه كيف أن «دوق ألمافيرا» كان خلال حصار «طليطلة» جائعا الى حد أنه أكل وصيفه دون ملح، وهذا ما يذكره الدوق نفسه في مذكراته. وقد افاد ايضا ان لحم وصيفه كان طيباً وطرياً ونضراً وأن مذاقه كان يتراوح بين مذاق لحم الدجاج ولحم الحمار.

وفي كتاب الماني قديم حول فن الحرب نجد بعض التوجيهات للوصيفين. كان على وصيف العهود الغابرة ان يكون ورعا، ذا فضيلة، صادقا، متواضعا، شجاعا، جريئا. شريفا وكادحا. وباختصار كان عليه ان يكون انموذجا يحتذى. اما العهود الحديثة فقد غيرت النمط الى حد كبير. لم يعد الوصيف المعاصر ورعا او ذا فضيلة ولا صادقا. انه يكذب على سيده ويغشه، بل ويحول غالبا حياة سيده الى جحيم حقيقي. انه عبد مكارٍ يختلق اكثر الوسائل الغادرة ليجعل حياة سيده مرة المذاق. ففي الجيل الجديد من الوصيفين لن تجد بينهم من هو مستعد للتضحية بالنفس الى حد السماح لسيده بأن يأكله دون ملح، كوصيف دوق ألمافيرا، ذلك الشهم فرناندو. ومن ناحية اخرى نجد ان القادة الذين يشنون حرب حياة أو موت مع وصيفهم في العهود الحديثة يخترعون وسائل مختلفة للمحافظة على سلطاتهم. انه نوع معين من الفظاعة. ففي عام 1912 جرت محاكمة في «غراز» كان الشخص الرئيسي فيها نقيبا قتل وصيفه رفسا بالأقدام. وقد برئت ساحته وقتها لانها كانت المرة الثانية فحسب التي يفعل فيها مثل تلك الفعلة. في رأي مثل هؤلاء السادة فإن حياة الوصيف لا تساوي شيئا. انه مجرد شيء. انه «العمة سالي⁽¹⁾»، عبد رقيق، وخادم يقوم بكل الاعمال. وليس من المدهش ان مثل هذا المركز يتطلب من الرقيق ان يكون بارعا

(1) aunt sally: تمثال راسي لامرأة في مهما غليون من الصلصال تمارس عليه لعبة ما. (المترجم).

وماكرا. ان مركزه فوق هذا الكوكب لا يمكن ان يقارن إلا بمعاناة الندل في العهود الغابرة، فقد كان هؤلاء يدربون على ان يكونوا ذوي ضمائر حية بالضرب والتعذيب.

ورغم ذلك هناك حالات يصعد فيها الوصيف الى مركز اثير وعندها يصبح مصدر ارهاب للسرية او الكتيبة. سيحاول كل ضباط الصف رشوته. فهو الذي يقرر مسألة الاجازات في مثل هذه الحالة ويستطيع استعمال تأثيره على اولئك الذين يرسلون في مهمات. هؤلاء الاثيرون يكافؤون عادة في اوقات الحرب بميداليات فضية صغيرة وكبيرة لقاء شجاعتهم وبسالتهم.

في الفوج الواحد والتسعين عرفت عددا منهم. لقد تلقى احد اولئك الوصفاء ميدالية فضية صغيرة لأنه اعتاد ان يجلب من بيته سلال طعام رائعة بحيث ان سيده في أحلك ظروف المجاعة، كان يستطيع ان يملأ معدته الى حد لا يستطيع معه إلا بالكاد ان يمشي على قدميه.

وقد صاغ سيده التنويه الخاص بمنحه الوسام كما يلي:

«بسبب شجاعته الاستثنائية وبسالته في المعركة واحتقاره للموت وعدم تخليه عن ضابطه المسؤول ولو للحظة واحدة تحت النيران الشديدة للعدو المتقدم».

ولكنه كان في الحقيقة يسطو على أقنان الدجاج في مكان ما من المؤخرة.

لقد غيرت الحرب العلاقة بين الوصيف وسيده وحولته الى ذلك المخلوق الأشد بغضا من قبل الجنود العاديين. فقد كان الوصيف يحصل باستمرار على علبه لحم كاملة بينما توزع مثل هذه العلبه على خمسة من الجنود العاديين. اما «مطرته» فكانت ممتلئة دوما بالروم او الكونياك. وطوال النهار كان هذا النوع من المخلوقات يمتنع الشوكولاته ويلتهم البسكويات المحلى المخصص للضباط. ويدخن لفائف سيده ويطنخ ساعات بحالها ويرتدي سترة اضافية.

كان الوصيف على علاقة ممتازة مع مراسل السرية ويعطيه حصصا سميحة من فئات مائدته ومن كل المزايا التي كان يتمتع بها. وقد اكتمل هذا الثالوث بضابط الصف المسؤول عن الامدادات والتموين. وكان هذا الثلاثي يعيش في اتصال مباشر مع الضباط ويعرف كل العمليات والخطط الحربية.

كانت الوحدة التي لعريفها علاقة طيبة مع الوصيف هي اكثر الوحدات اطلاعا على المتوقع حدوثه من الامور.

فحين يقول: «في الساعة 2,35 سنبدا بالرحيل». فإنه في الساعة 2,35 بالضبط تبدأ القوات النمساوية بالانسحاب من المعركة.

وكان الوصيف على علاقة طيبة جدا مع المطبخ الميداني ويحب التسكع باستمرار عند القدور ويعطي الأوامر وكأنه في مطعم وامامه قائمة الأطعمة. كان يقول للطباخ:

- أريد ضلعاً. البارحة اعطيتني الذنب. وأضف قطعة من الكبد الى حسابي. انت تعرف اني لا أكل الغدد التناسلية لذكر السمك.

ولكن الوصيف يكون في افضل حالاته حين ينتشر الذعر. فحين تقذف الخندق بالقنابل يهبط قلبه الى سرواله. وفي مثل هذه الاوقات نراه في افضل الملاجئ حماية وأمانا مع حوائجه وحوائج سيده وهو يغطي رأسه ببساط حتى يقيه في حالة اصابته بقذيفة، ولا تكون لديه إلا رغبة واحدة هي ان يصاب ضابطه بجراح فيستطيع العودة معه الى القاعدة بعيدا قدر الإمكان عن خط الجبهة.

كان يشجع انتشار الذعر على نحو نظامي وذلك باستعمال اجراء معين من الاجراءات السرية. فقد كان يقول بلهجة السر الى الوحدات: «لديّ حدس بأنهم يحزمون الهاتف من اجل الرحيل». وكم يكون سعيدا حين يكون قادرا على أن يقول: «الآن حزموه فعلا».

لم يكن هناك شخص يحب التراجع بقدر ما يحبه هو. ففي مثل تلك

اللحظات كان ينسى القذائف والشظايا المتطايرة من حول رأسه ويندفع حاملاً متاعه دون ان يشعر بالتعب نحو رئاسة اركان الوحدة حيث يقف قطار الامتعة. كان يحب قطار الامتعة النمساوي ويشعر بسعادة غامرة حين يسافر فيه. وفي حالات الطوارئ كان يستعمل العربة ذات الدولابين. وحين يضطر للذهاب سيرا على قدميه نراه رجلاً محطماً تماماً. وفي مثل هذه الحالة كان يتخلى عن امتعة سيده ويتركها في الخنادق ولا يحمل معه سوى متاعه الخاص.

وإذا ما حدث ونجا الضابط من الأسر عن طريق الهرب وتم أسر الوصيف، فلم يكن لينسى في اي حال من الاحوال ان يصطحب امتعة سيده معه الى الأسر، فهي تصبح ملكه في مثل هذه الحالة. وكان يتمسك بها بكل قوة وبأس.

رأيت مرة وصيفاً اسيراً كان قد سار على قدميه مع الآخرين من «دوبنو» الى «دارينكا» وراء «كليف». وبالإضافة الى جراب المؤونة خاصته كان يحمل جراب مؤونة ضابطه الذي نجا من الأسر وخمس حقائب يدوية من مختلف الاحجام والاشكال وبطانيتين ووسادة، وحقية اخرى كان يحملها فوق رأسه. وكان يشكو من ان القوزاق قد سرقوا له حقيبتين من حقائبه.

لن انسى أبداً ذلك الرجل الذي كان يجرجر نفسه بتلك الطريقة عبر اوكرانيا كلها. كان عبارة عن عربة نقل تمشي على قدمين، ولا استطيع ان افهم كيف كان قادراً على حمل كل تلك الامتعة وجرها لمئات الكيلو مترات والذهاب بها حتى طشقند والاعتناء بها والموت فوقها في معسكر للأسرى بالتيفوس الابقع.

في أيامنا هذه ينتشر الوصفاء عبر انحاء جمهوريتنا كلها وهم يحكون عن بطولاتهم. فهم الذين اقتحموا سوكال ودوبنو ونيش والبيافه. كل واحد منهم كان عبارة عن نابليون: «لقد قلت لعقيدنا ان يهتف لرئاسة الاركان ويقول لهم انه يمكن البدء بالهجوم».



وكان معظمهم من الرجعيين وكان الجنود العاديين يكرهونهم. وكان بعضهم من «المخبرين» ويشعرون بمتعة خاصة عند مراقبتهم لعملية إلقاء القبض على شخص ما وتكيله بالقيود. لقد تحولوا الى طبقة منغلقة، لم تكن لانانيتهم حدود.

3

كان الملازم الأول لوكاش ضابطاً نظامياً نموذجياً تابعا للملكية النمساوية الآيلة للسقوط. لقد حولته الكلية الحربية الى نوع من المخلوقات البرمائية. كان يتحدث بالالمانية في المناسبات الاجتماعية، ويكتب بالالمانية ويقرأ الكتب التشيكية، وحين درّس في دورة للمتطوعين لسنة واحدة، وكانوا جميعاً من التشيك، قال لهم بلهجة الثقة: «لنكن جميعاً من التشيك، ولكن لا حاجة الى ان يعرف احد بذلك. أنا نفسي من التشيك». كان يضع حقيقة كونه تشيكياً في كفة واحدة مع عضوية نوع من المنظمات السرية التي يفضل تجنبها.

ومن النواحي الاخرى كان رجلاً شريفاً، لا يخشى رؤساءه ويعتني بأفراد سرية في المناورات كما يليق. كان يبحث لهم دوماً عن اماكن مريحة للنوم في المخازن بل كان يسمح للجنود ان يفتحوا برميل جعة على حساب راتبه المتواضع.

كان يحب أن ينشد جنوده الأغاني خلال المسير. وكان عليهم ان يغنوا حتى خلال ذهابهم واياهم من التدريب. وكان يسير الى جانب سرية ويغني معهم:

«و حين انتصف الليل

قفز الشوفان من الكيس

تانتانتارا! زينغ! بوم!»

كان يتمتع بمحبة رجاله فقد كان عادلا على نحو غير عادي ولم يكن من عادته ان يتنمر على اي شخص.

كان ضباط الصف يرتجفون في حضرته وكان يستطيع في شهر واحد تحويل اكثر الرقباء الاولين شراسة الى حمل وديع.

صحيح انه كان يصرخ، ولكنه لم يكن يشتم أبداً. كان يختار تعابير وجملا منتقاة: «كما ترى فإنني لا أحب معاقبتك يا بني، ولكنني لا استطيع ان اتجنب ذلك لأن شجاعة وفعالية الجيش تعتمد على الانضباط، وبدون انضباط يكون الجيش اشبه بريشة في مهب الريح. اذا لم تكن بزتك في الوضع الصحيح وازرارك مخيطة بكاملها بل كانت ناقصة، فإنه من الواضح انك تهمل مسؤولياتك تجاه الجيش. ربما يكون غير مفهوم بالنسبة لك ان تسجن لان قميصك كان ينقص زرا واحدا خلال التفتيش البارحة، او بكلمات اخرى، انها مسألة صغيرة تافهة ليست لها اي قيمة في الحياة المدنية. ولكن، كما ترى، فإن اهمال المظهر الخارجي في الجيش سيؤدي الى معاقبتك. ولماذا؟ هنا المسألة ليست مسألة زر ضائع بل اضطرابك الى التعود على النظام. اليوم تنسى خياطة زرك وتبدأ بالعود على الكسل. وغدا ستجد انه من المضجر فك بندقيتك وتنظيفها. وفي اليوم الثالث ستنسى حربتك في حانة ما، وفي النهاية ستنام في موقعك؛ لانك بذلك الزر السيء الحظ قد بدأت تهبط منحدر مهنة «المتبطل». هكذا هي الامور يا بني، وأنا اعاقبك لانقاذك من عقوبة اسوأ بكثير على امور قد تفعلها إذا بدأت تنسى واجباتك ببطء وانما بثقة. سأرسلك الى الحبس لخمسة ايام، واريدك وانت تتناول الماء والخبز ان تفكر في ان العقوبة ليست انتقاما بل وسيلة للتعليم، هدفها هو اصلاح الجندي المعاقب وتحسين اوضاعه».

كان يجب ان يترقى الى رتبة نقيب منذ فترة طويلة، ولكن حذره في مسألة انتمائه الى وطنه الاصلي لم يسعفه، فقد كان يتصرف تجاه رؤسائه بصراحة كاملة وكان أبعد ما يكون عن التملق الذليل في العلاقات الرسمية.

كان هذا هو ما احتفظ به من ميزات فلاحي بوهيميا الجنوبية فقد ولد هناك في قرية تقع بين الغابات الكثيفة والبحيرات.

ورغم انه كان عادلا في معاملته للجنود ولم يكن يتنمر عليهم الا انه كانت لديه صفة واحدة تميزه: ألا وهي انه كان يكره وصفاء لانه كان دائما سيء الحظ في هذا المجال فلا يأتيه سوى اكثرهم مدعاة للاشمئزاز واكثرهم حقارة. كان يلكمهم على أفواههم ويصفعهم على آذانهم ويحاول ان يدربهم على المبادئ والمآثر دون ان ينظر إليهم كجنود. كان يناضل معهم عبثا خلال عدد من السنين، ويبدلهم باستمرار. وقد تنهد أخيرا وقال: «والآن حصلت على نغل قدر آخر». كان ينظر إلى وصفائه على انهم احط اشكال الحياة. كان مولعاً بالحيوانات الى حد كبير. كان لديه كناري من نوع «هارتس» وقطة من نوع «انغورا» وكلب من نوع «بنشر الاصطبلات» كان جميع وصفائه، كل بدوره، يعامل هذه الحيوانات على نحو ليس أسوأ من الطريقة التي كان الملازم الأول لوكاش يعاملهم بها اذا ما ارتكبوا عملا خسيسا.

كانوا يجوعون الكناري، كما فقأ احدهم احدى عيني القطة. اما الكلب فكانوا يضربونه كلما رأوه. وأخيرا اصطحب احد اسلاف شفيك ذلك الحيوان المسكين الى «بانكراتس»، وسلمه الى بائع جلود طالبا قتله، ودفع من جيبه لقاء ذلك عشرة كراونات دون اي ندم. ثم قال للملازم بكل بساطة ان الكلب هرب منه بينما كانا يتمشيان. وفي اليوم التالي مباشرة كان هذا الوصيف يسير مع السرية الى ساحة التدريب.

حين وصل شفيك ليقدم نفسه الى لوكاش على انه قد باشر واجباته اصطحبه لوكاش هذا الى غرفة الجلوس وقال:

- لقد زكاك القسيسين وآمل ألا تخيب ظنه فيك. لقد سبق لي ان عرفت اثني عشر وصيفا لم يستقر معي اي واحد منهم. عليّ ان احذرك من انني حازم واني اعاقب على نحو رهيب اية خساسة او كذب، واطلب منك

على الدوام ان تقول لي الصدق وتنفذ كل طلباتي دون تدمير. لو قلت لك: «ارم نفسك في النار» فعليك ان ترمي بنفسك في النار حتى لو لم تكن راغبا في ذلك. ما الذي تنظر إليه؟.

كان شفيك ينظر نظرات جانبية الى الجدار وباهتمام. كان هناك قفص معلق وفيه كناري، ثم ثبت عينيه اللطيفتين على الملازم الأول واجاب بلهجة ودية بهيجة:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني ارى كناريا من نوع هارتس هنا.

وبعد ان قاطع بهذا الاسلوب تدفق كلمات الملازم الأول، شد شفيك قامته ووقف وقفة عسكرية ونظر نحو الأمام باتجاه الملازم دون ان يرمش له جفن.

أراد الملازم الأول ان يقول شيئا لاذعاً ولكنه حين لاحظ التعبير البريء على وجه شفيك لم يقل سوى:

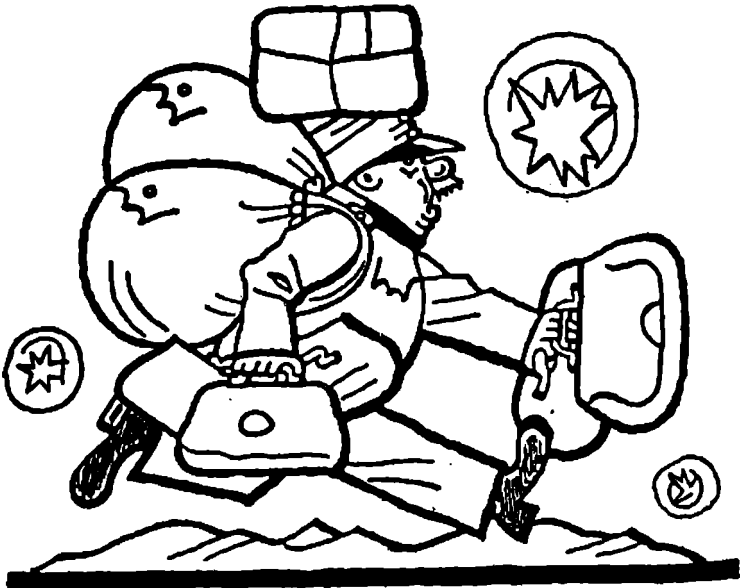
- لقد زكاك القسيس على انك احمق على نحو مخيف واعتقد انه كان على خطأ.

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انه لم يكن على خطأ وبكل تأكيد. حين كنت اخدم كجندي نظامي في الجيش صرفت من الخدمة نهائيا على اساس اني معتوه بل معتوه برخصة ايضا. في فوجنا لم يصرف من الخدمة سوى شخصين لهذا السبب، أنا والنقيب فون كاونيتس. وكلما كان النقيب يخرج الى الشارع، اذا ما سمحت لي بهذا التعبير يا سيدي، كان وباستمرار ينكش منخره الايسر بيده اليسرى ومنخره الايمن بيده اليمنى، وحين كان يسير معنا الى ساحة الاستعراض كان يجعلنا نقف في تشكيلة وكأننا سنسير في استعراض امام قائد كبير وكان يقول: «ايها الرجال، إحم، تذكروا، إحم، ان اليوم هو الاربعاء لان غدا سيكون الخميس، إحم».

هزّ الملازم الأول لوكاش كتفيه كرجل لا يعرف كيف يعبر عن فكرة معينة ولم يستطع ان يجد فوراً الكلمات التي تعبر عما يريد.

ذهب من الباب الى النافذة في الجانب الآخر من الغرفة ماراً بشفيك ثم عاد مرة اخرى الى حيث كان واقفاً. خلال هذا الوقت كان شفيك يحرك عينيه «يميناً» و«يساراً» مع حركة الملازم الأول وكان يقوم بذلك وعلى وجهه ذلك التعبير الرائع عن البراءة والى حد ان الملازم الأول اسدل نظره الى السجادة وقال شيئاً لا علاقة له اطلاقاً بما قاله شفيك عن النقيب الاحمق:

- أجل. معي يجب ان تكون نظامياً ونظيفاً وصادقاً. احب الصدق والامانة. اكره الاكاذيب. اعاقب عليها دون شفقة او رحمة. هل تفهم؟
- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني افهم. ليس هناك ما هو اسوأ من الكذب. ما ان يبدأ المرء بالكذب حتى لا يستطيع فكاً كما منه. في قرية تقع خلف «بلهر جيموف»، كان هناك مرة معلم يسمى «ماريك» اعتاد ان يصاحب ابنة حارس طرائد يسمى «شبيراً»، وقد افهمه حارس الطرائد انه لو واعد الفتاة في



الغابة ووجده هناك، فانه سيدخل فرشاة مليئة بالملح في مؤخرته. وقد ارسل المعلم يقول انه لا علاقة له مع الفتاة. ولكنه ذهب مرة ليقابل الفتاة وأمسك به الحارس وكان يريد تنفيذ العملية فيه حين قال المعلم انه كان في الغابة لقطف الزهور. وبعد ذلك قال انه في الغابة لاصطياد بعض الخنافس ثم حوصر اكثر فأكثر حتى اصيب اخيراً بالفرع واقسم بأنه قد جاء الى الغابة لينصب فخاخاً للأرانب البرية. وهكذا امسك به حارس الطرائد واقتاده الى مخفر الدرك، ومن هناك احيلت القضية الى المحاكم. وكان يمكن للمعلم ان يسجن بسبب ما فعله. لو انه قال الحقيقة لما كان سينال سوى الفرشاة وعليها الملح. في رأيي انه من الافضل دائماً الاعتراف والصراحة، ولو فعلت شيئاً فإنه من الافضل ان اقول: «أبلغكم بتواضع يا سيدي اني فعلت كذا وكذا». أما بالنسبة للامانة فانها شيء رائع جداً لانها دائماً افضل سياسة. وهذا ينطبق على سباقات المشي. ما ان يبدأ المتسابق بالغش ويعدو حتى يطرد من السباق. وقد حدث ذلك لابن عمي. الرجل الامين محترم في كل مكان، فهو يشعر انه مبجل كما انه راض عن نفسه ويشعر انه مولود من جديد حين يذهب الى فراشه ويقول: «اليوم مارست اللعبة مرة اخرى».

وبينما كان يتحدث جلس الملازم الاول لفترة طويلة على كرسيه وهو ينظر الى حذاء شفيك ويفكر: «يا إلهي، غالباً ما اهذر مثل ما يفعل شفيك الان والفرق الوحيد هو الشكل الذي افعل به ذلك».

رغم ذلك، قال حين انتهى شفيك من كلامه غير راغب في فقدان سلطته: - معي، عليك ان تنظف حذاءك وان تكون مهندياً وازرارك مخرطة على نحو صحيح وان تعطي الانطباع بأنك جندي وليس مدنياً بائساً. من الغريب انه لا يبدو على احد منكم انه قادر على التصرف كجندي حقيقي، واحد فقط من وصفائي كان يبدو كمحارب حقيقي، ولكنه سرق في النهاية بزتي الرسمية وباعها في الحي اليهودي.

صمت فترة ثم استأنف وهو يشرح لشفيك واجباته كلها، دون ان ينسى

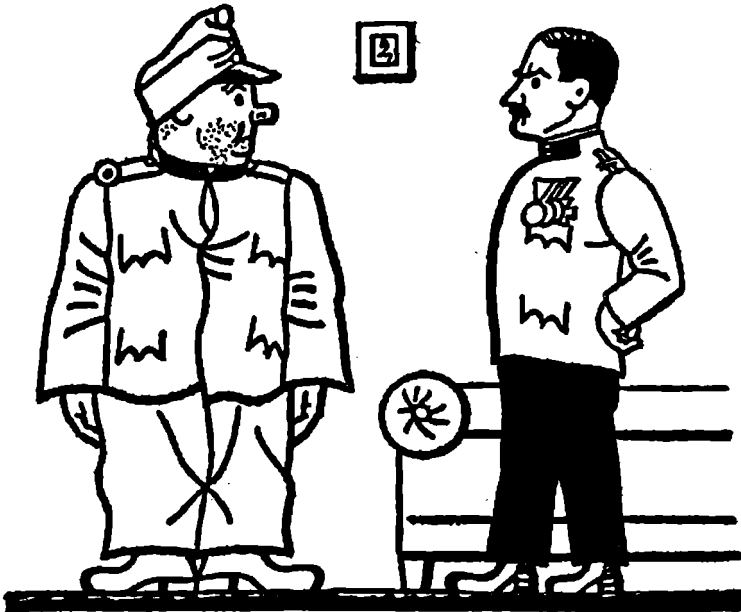
خلال ذلك ان يشدد على حقيقة ان عليه ان يكون مخلصاً وألاً يتحدث عما يحدث في بيته.

اضاف:

- وقد تزورني بعض السيدات، وقد تقضي احدهن الليل كله معي، هذا اذا كنت في اجازة لليوم التالي. واذا حدث مثل ذلك عليك ان تجلب لنا القهوة الى السرير عندما اقرع لك الجرس. هل فهمتني؟
- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني فهمت. اذا دخلت غرفة النوم دون تحذير مسبق فقد تنزعج السيدة. لقد جلبت مرة سيدة شابة الى بيتي وقد جلبت لنا خادمتي القهوة الى الفراش في اللحظة التي كنا نمتع فيها واحدنا الآخر على نحو هائل. وقد اصيبت بالفزع وسفحت القهوة على ظهري وقالت ايضا: «صباح الخير». اعرف ما هو ملائم وصحيح حين تكون سيدة نائمة في مكان ما.

- حسنا يا شفيك، علينا ان نظهر دائما لباقة استثنائية للسيدات.

هذا ما قاله الملازم الأول الذي بدأ مزاجه بالتحسن، لان المحادثة كانت



تتطرق الى موضوع يملأ ساعات راحته وذلك بين اوقات العمل التي يقضيها في الشكنة وساحة الاستعراض ولعب الورق.

كانت النساء حياة وروح شفته فقد كن بيته الذي يووي اليه. وكانت لديه العشرات منهن وقد حاولت بعضهن خلال اقامتهن ان يزين شفته بمختلف انواع التحف.

لقد طرزت له احدى السيدات، وكانت زوجة لصاحب مقهى عاشت معه لمدة اسبوعين حتى جاء زوجها واعادها الى البيت، غطاء مائدة جميلة، وخاطت له الاحرف الاولى من اسمه علي ملابسه الداخلية، وكانت ستكمل تطريز الستائر لولا ان زوجها جاء ليضع حدا لهذه الحكاية الغرامية الرائعة. وهناك سيدة اخرى جاء والداها لاصطحابها بعد ثلاثة اسابيع من مكوثها في البيت، وكانت تريد ان تحول غرفة نومه الى مخدع نسائي وتضع فيها مختلف القطع الفاخرة والمزهريات الصغيرة وتعلق صورة ملاكها الحارس فوق سريره.

في كل زوايا غرفتي نومه وطعامه نستطيع ان نشعر بأثار اللمسة النسائية. ويمتد هذا الى المطبخ حيث يمكننا ان نرى اكثر أواني وادوات الطبخ تنوعا، وهي كلها عبارة عن هدية رائعة من زوجة صاحب معمل كانت متميزة بحب الملازم الأول. فقد احضرت له مع عواطفها الحارة اداة لقطع كل انواع الخضار والملفوف وآلة لتقطيع الخبز وبشر الكبد، وعددا متنوعا من اطباق التسخين وادوات الشواء والمقالي ومغارف الطهو والله اعلم بالبقية. ولكنها رحلت بعد اسبوع لانها لم تستطع ان تنسجم مع فكرة ان للملازم عشرين عشيقة اخرى غيرها. مما كان يترك اثاراً معينة على اداء ذلك الذكر النبيل المرتدي للبزة العسكرية.

كما كان لدى الملازم الاول لوكاش مجموعة هائلة من الرسائل. فقد كان لديه ألبوم خاص بعشيقاته ومجموعة من التذكارات المتنوعة، فقد

بدأت تظهر لديه بوضوح خلال العامين الاخيرين ميول نحو مرض «الفتشية⁽¹⁾». وهكذا نجد عنده عدداً من رباطات الجوارب النسائية المختلفة واربعة أزواج جميلة من الألبسة النسائية الداخلية المطرزة وثلاثة قمصان نسائية من النوع الرقيق الشفاف، ومناديل قطنية ناعمة بل وحتى مشداً نسائياً وعدداً من الجوارب.

قال:

- اليوم لدى مناوبة. لن اعود حتى الليل. فليكن كل شيء جاهزاً. كما اريد الشقة في افضل حال من النظام. لقد ارسلت آخر وصفائي اليوم الى الجبهة مع الطابور المتقدم الى هناك وذلك بسبب خداعه لي.

وبعد ان وجه أوامر اخرى تتعلق بالكناري والقطة الانغورا خرج دون ان ينسى إبداء بعض الملاحظات القليلة حول الامانة والنظام وذلك عند باب الدار.

بعد رحيله قام شفيك بتنظيم الشئنة وترتيبها على أحسن ما يكون النظام والترتيب وهكذا فإنه حين عاد الملازم الأول لوكاش الى بيته في الليل، قال له شفيك:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي ان كل شيء على ما يرام إلا قطنك التي انتابها نوبة اذى فالتهمت كناريك.

هدر الملازم الأول قائلاً:

- ماذا؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي ان الأمر حدث كما يلي: اعرف أن القطة تكره الكناري وتحب اهانتها. وهكذا فكرت في ان اعرفهما علي بعضهما. واذا كانت تلك القطة المتوحشة ستحاول ان ترتكب سوءاً كنت سأسألخ

(1) انحراف جنسي يجري فيه تركيز الشهوة الجنسية على جزء معين من الجسم او قطعة من ملابس المرأة. (المترجم).

جلدها حتى تتذكر الى يوم مماتها كيف يكون عليها ان تتصرف نحو طيور الكناري، لاني مولع جدا بالحيوانات. في البناية التي اعيش فيها يسكن صانع قبعات درّب قطته على افضل نحو بحيث انها بعد ان التهمت ثلاثة كناريات توقفت عن ذلك، بل اصبح الكناري يستطيع ان يقف فوقها لو احبت ذلك. وقد حاولت ذلك ايضا وهكذا اخرجت الكناري من القفص وجعلت القطة تشمه، ولكنها، تلك القردة الصغيرة، قضمت له رأسه قبل ان ادرك ما حدث. لم اتوقع منها ابدا في الحقيقة ان تتصرف بتلك الخساسة. لو كان ذلك سنونوا يا سيدي لما قلت اي شيء، ولكنه كان كناريا جميلا ومن نوع «هارتس». ولكم التهمته بشراهة بل وبريشه حتى، كما راحت ثموء بسعادة مطلقة في الوقت نفسه. يقولون ان القطط لا تتمتع بأية ثقافة موسيقية ولا تستطيع احتمالها حين يغني الكناري، لان هذه الوحوش لا تفهمها. لقد شتمت تلك القطة ولكني اقسم بالله أنني لم افعل لها شيئا وانتظرت قدومك لتقرر ما ستفعله بها، تلك الحيوانة المتوحشة الحقيرة.

وبينما كان شفيك يقول هذا الكلام راح ينظر في عيني الملازم الأول بذلك الصدق الى حد ان هذا الأخير، ورغم انه قرّب قبضته منه، ولديه كل النوايا السيئة، إلا انه أبعدها وجلس على كرسي وسأله:

- اسمع يا شفيك، هل أنت فعلا ساذج ومعتوه؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انني كذلك. منذ كنت صغيرا كان حظي هكذا. أردت دائما ان اصلح الامور، ان اكون طيبا، ولكني لا اخرج إلا بالمشاكل لي ولكل من حولي. لقد أردت فعلاً أن أعرف هذين الواحد منهما على الآخر حتى يتفاهما. ولم استطع شيئا حيال أكلها إياه وكان ذلك نهاية معرفتها. في منزل يدعى «اوشتوبارتو» أكلت قطة منذ سنوات خلت البيغاء لانه كان يضحك عليها ويقلد مواءها. ولكن القطط تتعلق بعناد بحياتها، اذا اردتني ان اقتلها يا سيدي فسيكون عليّ ان اسحقها بالباب. وإلا فإنها لن تموت أبداً.

ثم راح شفيك والبراءة المطلقة تكسو وجهه. وبابتسامته اللطيفة البهيجة يحكي للملازم الأول كيف يتم اعدام القطط، وكان فحوى كلامه كافيا لارسال أي جمعية للرفق بالحيوان الى مصحح للأمراض العقلية.

وخلال روايته لذلك كشف شفيك عن معرفة تدل على خبرة عميقة الى حد ان الملازم الأول لوكاش نسي غضبه وسأله:

- اذن، فأنت تعرف كيف تعتنى بالحيوانات؟ هل لديك مشاعر تجاهها؟ هل تحبها؟

قال شفيك:

- أفضل الكلاب يا سيدي لانها تجارة رابحة لاي شخص يعرف كيف يبيعها. لم اكن قادرا على ذلك لاني كنت امينا على الدوام. ولكن رغم ذلك فإن الناس اعتادوا علي ملاحقتي واتهامي بأني بعثهم بطة عرجاء بدلا عن كلب اصيل الجسم. وكان على الكلاب جميعا ان تكون اصيلة صحيحة الجسم. وكان الجميع يطلبون فورا شجرة النسب. لذلك اضطررت الى طبع شجرات نسب عديدة وكنت أحول هجينا من «كوشيرجه» ولد في معمل للآجر، الى اكثر الكلاب الارستقراطية اصالة، كتلك المولودة في مؤسسات تربية الكلاب البافارية التابعة لـ«ارمين فون بارهايم». وبالواقع فإن الناس كانوا سعيدين جدا لو ان الامور كانت مواتية الى ذلك الحد واستطاعوا الحصول على كلب اصيل في بيتهم. كان يمكنني طبعاً ان اعرض عليهم كلباً من نوع «البوم» الفرشوفيتسي على انه «دشهند»⁽¹⁾، وكانوا سيدهشون من ان كلباً نادراً الى هذا الحد، ومستورداً من المانيا. كان اشعث مقوس القوائم. انهم يفعلون ذلك نفسه في كل مؤسسات تربية الكلاب. عليك يا سيدي انت ترى الكلاب التي لها شجرات نسب في المؤسسات الكبيرة لتربية الكلاب. هناك بالفعل عدد

(1) كلب ألماني صغير طويل الجسم قصير القوائم. (المترجم).

قليل جدا من الكلاب التي يمكنها ان تقول عن نفسها: «أنا اصيل». فاما ان أم ذلك الكلب قد نسيت نفسها مع وحش مخيف او فعلت جدته ذلك، او ان له عدة آباء وقد ورث شيئا ما من كل منهم، فورث من احدها أذنيه ومن آخر ذيله ومن ثالث باقة الشعر التي علي خطمه ومن رابع خطمه نفسه ومن خامس قوائمه الملتوية ومن سادس حجمه. ولو كان لديه اثنا عشر أباً لاستطعت ان تتخيل يا سيدي شكل هذا الكلب. لقد اشترت مرة كلبا كهذا اسمه، «بلابان». وقد كان كأبائه قبيحا الى حد ان الكلاب كلها كانت تتجنبه ولم اشتره الا من باب الشفقة فقد كان وحيدا مهجورا. كان من عاداته الجلوس في البيت في احدى الزوايا وهو في منتهى التعاسة حتى اضطررت الى بيعه على انه من نوع «بنشر الاصطبلات». كان اصعب شيء في العملية هو صباغته حتى يكون بلون الفلفل والملح. وقد ذهب وهو في هذه الحالة مع سيده الى منطقة مورافيا ومنذ ذلك الحين لم تقع عيناى عليه قط.

بدا الملازم الأول شديد الاهتمام في هذه المحاضرة الكلبية وكان بمقدور شفيك المتابعة دون مقاطعة:

- لا تستطيع الكلاب صباغة شعرها كما تفعل السيدات. ولكن هذا لا بد ان يتم من قبل الشخص الذي يريد بيعها. لو كان الكلب عجوزا جدا بحيث انه رمادي اللون تماما وتريد ان تبيعه على اساس انه جرو في السنة الاولى من عمره او ان تدعي بأن الكلب العجوز المرتجف عبارة عن جرو في الشهر التاسع من عمره. فعليك ان تشتري بعض نيترات الفضة وتحلها بالماء ثم تدهن الكلب بها فيتحول لونه الى الاسود الغامق وتبيعه على انه جديد تماما. وعليك ان تطعمه الزرنينج بكميات كبيرة بحيث يكتسب القوة ثم تنظف أسنانه بورق السنفرة الذي يستعمل لتنظيف السكاكين الصدئة. وقبل ان تأخذه الى زبون، عليك ان تصب بعض شراب السيلفوليتس في حلقه حتى يصبح ثملا بعض الشيء. وفجأة سيصبح حيويا ومرحا وينبح بمرح ويصادق

اي شخص يصادفه كما يفعل مستشار البلدة السكير. ولكن الامر الاساسي هو: عليك ان تتحدث الى الناس، يا سيدي، وتستمر في الحديث حتى يجن الزبون تماما. اذا اراد اي شخص ان يشتري منك «بنشر» من النوع المنمنم ولم يكن لديك في البيت سوى كلب صيد من نوع «بوينتر»، عليك ان تكون قادرا على ان تتحدث إليه وتقنعه بأن يصطحب معه كلب الصيد وليس «البنشر» من النوع المنمنم، واذا صدف ان لديك كلب «بنشر» من النوع المنمنم في البيت وأراد احدهم ان يشتري منك كلب حراسة المانيا شرسا من نوع «الدرواس» فعليك أن تخدعه حتى يأخذ معه في جيبه «البنشر» الصغير المنمنم بدلا عن «الدرواس». حين كنت اعمل في تجارة الكلاب، جاءتني سيدة لتقول لي ان ببغاءها قد طار الى حديقته وان بعض الاولاد الصغار الذين كانوا يلعبون لعبة الهنود الحمر امام فيلتها قد امسكوا به واتفوا له ريشات ذيله وزينوا انفسهم بها كأنهم رجال الشرطة. وقد مرض هذا الببغاء بسبب الخجل من فقدان ذيله وقد قضى عليه الطبيب البيطري بأطعامه بعض المساحيق. وهكذا كانت تريد شراء ببغاء جديد وكانت تريد ببغاء محترما وليس مبتذلا لا يفعل شيئا سوى الشتم. وما الذي كنت تستطيع فعله وليس لديّ من ببغاء في البيت ولا اعرف احدا لديه مثل ذلك الببغاء؟ كان لديّ في البيت كلب شرس من نوع «البلدوغ» وكان اعمى تماما. وهكذا كان عليّ ان امضي فترة ثلاث ساعات اي من الساعة الرابعة وحتى الساعة مساء وأنا اتحدث الى تلك السيدة لاقنعها بشراء ذلك «البلدوغ» الأعمى بدلا عن الببغاء. كان الموقف اسوأ من اي وضع دبلوماسي، فقلت لها وهي خارجة: «والآن هيا نطلب من الاولاد ان يشدوا له ذيله»، ولم اتحدث الى هذه السيدة بعد ذلك، حيث انها اضطرت لمغادرة براغ بسبب ذلك «البلدوغ»، فقد عض كل من في البيت. صدقني يا سيدي اذا قلت لك انه من الصعب جدا الحصول على حيوان محترم.

قال الملازم الأول:

- أنا شديد الولع بالكلاب، لقد اصطحب بعض اصدقائي كلابهم معهم الى الجبهة وكتبوا لي ان الحرب تمر على نحو ممتع جدا حين يكون لديك رفيق مثل هذا الحيوان المخلص الامين. وهكذا أرى انك تعرف كل سلالات الكلاب جيدا، وامل اني اذا حصلت على كلب فستعطني لي به جيدا. اي سلالة هي الافضل في رأيك؟ اعني كرفيق، انت تعرف ما اعني؟ لقد كان لدي مرة «بنشر اصطبلات»، ولكني لا اعرف...

في رأيي يا سيدي ان «بنشر الاصطبلات» كلب لطيف جدا. ولكن لا يستلطفه كل الناس، هذا صحيح، لان شعره خشن كالاسلاك المعدنية كما ان الشعر الذي يغطي أنفه قاس جدا. لذا يبدو مظهره كسجين افرج عنه حديثا. ان شكله قبيح جدا الى حد انه جميل وهو ذكي جدا في الوقت نفسه. اذا ما قارنا كلب «السان برنار» الكبير الحجم به يمكننا ان نتبين مدى غباء هذا «السان برنار» كما انه اذكى من «تريير الثعالب». كنت اعرف...

نظر الملازم الأول لو كاش الى ساعته ثم قاطع حديث شفيك قائلا:
- الوقت متأخر. يجب ان انام. غدا لديّ مناوبة ايضا ويمكنك قضاء اليوم بأكمله وأنت تبحث لي عن «بنشر اصطبلات» مناسب.

ثم ذهب لينام وتمدد شفيك على الارىكة التي في المطبخ وقرأ الصحيفة التي جلبها الملازم الأول معه من الثكنة.

قال شفيك لنفسه وهو يتابع باهتمام ملخص اخبار اليوم:

«حسنا، هذه هي القضية اذن. لقد قام السلطان بتقليد القيصر فيلهيلم «ميدالية الحرب» وأنا لم احصل حتى على الميدالية الفضية الصغيرة الى الآن».

فكر للحظة ثم قفز من مكانه: «لقد كدت انسى...»

ثم ذهب الى غرفة نوم الملازم الأول الذي كان قد سبق له واستغرق في النوم فأيقظه قائلاً:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني لم اتلق أوامرك بالنسبة الى القطة. قلب الملازم الاول نفسه الى الجانب الاخر وقال مدمدماً وهو نصف مستيقظ:

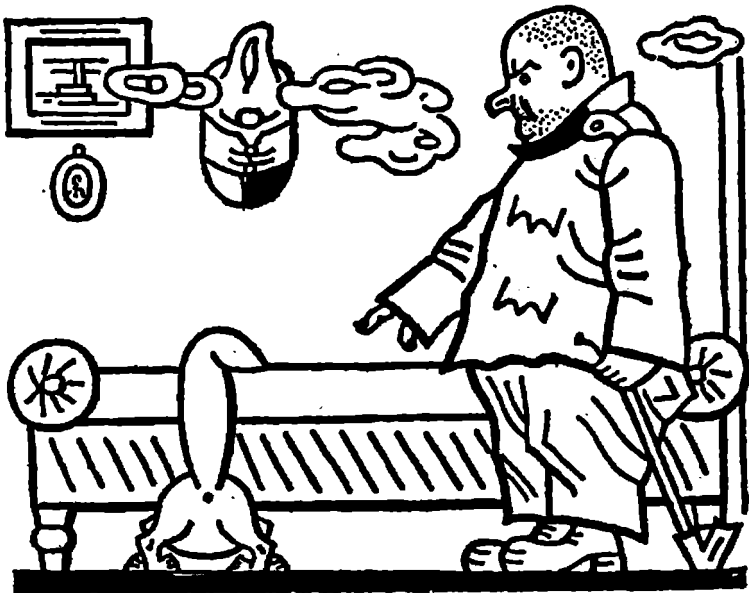
- ثلاثة ايام حبس في الثكنة!

ثم عاد لينام.

خرج شفيك من الغرفة وجر القطة البائسة من تحت الاريغة وقال لها: «عليك ثلاثة ايام حبس في الثكنة. انصرافاً!»
فعدت القطة «الأنغورا» لتتسلل تحت الاريغة مرة اخرى.

4

كان شفيك على وشك المغادرة بحثاً عن «بنشر اصطبالات» حين قرعت الجرس سيدة شابة وطلبت ان ترى الملازم الأول لوكاش. كان الى جانبها



حقيبتان ثقيلتان ولمح شفيك قبعة حمال تختفي هابطة الدرج.

قال شفيك بحزم:

- انه ليس في البيت.

ولكن السيدة الشابة كان قد سبق لها ودخلت الى الردهة واعطت الأمر

القاطع التالي:

- ادخل الحقيبتين!

قال شفيك:

- ليس بدون اذن الملازم الأول يا سيدتي. لقد وجه الي أوامر واضحة بالأمر

افعل اي شيء دون إذنه.

صاحت السيدة الشابة:

- أنت مخبل، لقد جئت لاقيم معه.

اجاب شفيك:

- ليست عندي اية معلومات بهذا الخصوص. الملازم مناوب اليوم ولن

يعود قبل حلول الليل ولدي أوامر بأن اذهب وافتش له عن «بنشر

اصطبلات». لا اعرف اي شيء عن اية حقائب او اية سيده. والآن سأقوم

بقفل باب الشقة وسأكون سعيدا لو تفضلت بالانصراف. لم يبلغني بأي شيء

ولذا لا استطيع ترك شخص غريب لا اعرفه في الشقة. لقد حدث مرة ان ترك

شخص ما في شقة طباخ المعجنات «نييلتشييسكي» المقيم في شارعنا وقام

هذا الغريب بفتح الخزانة ثم هرب.

ثم استأنف شفيك حين لاحظ ان السيدة الشابة قد بدأت تستسلم لليأس

وتكاد تبكي:

- ليس لدي شيء ضدك، ولكنك لا تستطيعين البقاء هنا بكل تأكيد، عليك

الاقرار بذلك لان الشقة موضوعة في عهدي وأنا مسؤول عن كل شيء فيها.

إذن عليّ أن اطلب منك مرة أخرى أن تلتفتي وتوفري الجهد على نفسك. وحتى استلم الأوامر من الملازم فاني لا اعرف حتى أخي. آسف فعلاً لاضطراري الى مخاطبتك بهذا الأسلوب ولكن لا بد من النظام في الجيش. كانت السيدة الشابة قد لملت نفسها بعض الشيء في هذه الاثناء، فأخرجت بطاقة زيارتها من حقيبتها وكتبت عليها بضعة سطور بقلم الرصاص، ثم وضعتها ضمن مغلف صغير فاتن وقالت باكتئاب:

- خذ هذه الى الملازم الأول. وفي هذه الاثناء سأنتظر الجواب هنا. وها هي خمسة كراونات لقاء تعبك.

اجاب شفيك وقد ازعجه عناد الضيفة غير المتوقعة:

- لن يجديك هذا. احتفظي بكراوناتك الخمسة. إنها هنا على الكرسي، واذا رغبت، تستطيعين ان تأتي معي الى الثكنة وتنتظريني هناك. سأسلم رسالتك واجلب لك الجواب. ولكني اعتقد انه ليس ممكناً لك الانتظار هنا.

بهذه الكلمات جر شفيك الحقيبتين الى داخل الردهة وقال بلهجة مفخمة وهو يرن بالمفاتيح كأنه سجان القلعة:

- حان وقت الاقفال.

خرجت السيدة الشابة باكتئاب نحو الممر. أغلق شفيك الباب وسار امامها. اسرعت الضيفة خلفه ككلب صغير ولحقت به حين ذهب ليشتري بعض اللقافات من بائع التبغ.

وها هي الان تسير الى جانبه وتحاول اثارة الحديث معه:

- هل ستسلمها فعلاً؟

- طبعاً سأسلمها طالما قلت ذلك.

- وهل انت واثق من انك ستجده؟

- هذا ما لا اعرفه.

سارا جنبنا الى جنب في صمت مرة اخرى حتى بدأت رفيقته في الحديث مرة اخرى وذلك بعد وقت طويل:

- هل تعتقد إذا أنك لن تجد الملازم الأول؟

- لا، لا اعتقد ذلك.

- وأين تعتقد انه سيكون؟

- لا اعرف.

ثم انقطع الحديث لفترة طويلة حتى استؤنف مرة اخرى بسؤال من الشابة:

- لم تضع الرسالة، أليس كذلك؟

- لا، لم اضعها؟

- اذن ستعطيها للملازم، أليس كذلك؟

- نعم.

- وستجده؟

- لقد سبق لي وقلت اني لا اعرف. ان ما يحيرني هو قدرة الناس على ان يكونوا شديدي الفضول وان يطرحوا باستمرار السؤال نفسه. هذا اشبه بتوقيف كل شخص في الطريق وسؤاله عن تاريخ اليوم.

وهكذا، فإن محاولاتها لعقد صفقة مع شفيك باءت بالفشل التام. ومرت بقية الرحلة الى الثكنة في صمت تام. ولم يكلم شفيك السيدة الشابة إلا حين توقفوا عند بوابة الثكنة فطلب منها الانتظار ثم بدأ يثرثر مع الجنود الواقفين عند البوابة حول الحرب. مما جعل السيدة الشابة في حالة من السعادة الشديدة لأنها راحت تدرع الرصيف جيئة وذهابا بعصيبة، وبدا عليها البؤس الشديد حين رأت ان شفيك مصمم على الثرثرة وقد لاح على وجهه ذلك

التعبير الغبي نفسه الذي كنا نستطيع ان نراه على الصورة المنشورة في ذلك الحين في مجلة «تاريخ الحرب العالمية» تحت عنوان: «وريث العرش النمساوي يتحدث الى طيارين اسقطا طائرة روسية».

جلس شفيك على مقعد كان موجوداً عند البوابة وشرح للجنود ان هجوم الجيش على الجبهة الكارباثية قد أخفق. ولكن قائد «برزيميسل» من ناحية اخرى، وهو الجنرال «كوسمانيك» قد وصل الى كييف وانه بقيت وراء خطوطنا في الصرب احدى عشرة قاعدة وان الصربيين سرعان ما سوف يصابون بالإرهاك فيتوقفون عن ملاحقة قواتنا.

ثم راح ينتقد معارك شهيرة بعينها وطلع باكتشاف ارخميديسي حقيقي يفيد أن على الكتيبة أن تستسلم إذا ما حوصرت من كل الجوانب.

وبعد أن ثرثر بما فيه الكفاية فكر في ان عليه ان يخرج الى السيدة اليانسة ويقول لها انه سيعود فوراً وأن عليها البقاء حيث هي. ثم ذهب الى الطابق العلوي الى المكتب حيث وجد الملازم الأول لوكاش الذي كان في تلك البرهة يحل لأحد مرووسيه تمرين خنادق وكان يقرعه لعدم مقدرته على الرسم ولأنه جاهل في علم الهندسة:

- انظر، عليك ان ترسمها هكذا. إذا كان علينا ان نرسم خطأ عمودياً على خط مستقيم، فإن علينا ان نرسمه بحيث تنتج معنا زاوية قائمة. هل فهمتني؟ اذا فعلت ذلك ستكون خنادقك في الاتجاه الصحيح وليس في اتجاه العدو. ستكون بعيداً عنه مسافة ستمئة متر. ولكنك بالطريقة التي ترسمها فيها ستدفع بمواقنا الى داخل خطوط العدو وستكون واقفا بخنادقك على نحو عامودي فوق العدو، بينما أنت في حاجة الى زاوية منفرجة. الأمر بسيط جداً، اليس كذلك؟

وقد وقف الملازم الاحتياطي. الذي كان يعمل في الحياة المدنية كأمين صندوق في مصرف، في حالة يأس كامل فوق تلك الخرائط والمخططات.

لم يستطع ان يفهم شيئاً. ثم تنفس الصعداء حين رأى شفيك يتقدم من الملازم الأول ويقول:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أن سيدة قد أرسلت لك هذه الرسالة معي وهي تنتظر الجواب.

وبينما كان يقول ذلك غمز بعينه بحميمية غمزة العارف.

لم يترك ما قرأه الملازم الأول انطبعا ايجابيا عليه. وكانت الرسالة بالألمانية وتقول:

«عزيزي هاينريش:

زوجي يضطهدني. عليّ أن أبقى معك بضعة أيام. وصيفك خنزير حقيقي. أنا بانسة.

المخلصة لك: كاتي»

تهند الملازم الأول لوكاش، واصطحب شفيك الى مكتب فارغ مجاور، ثم اغلق الباب وبدأ يذرع الغرفة جيئا وذهابا في الفراغ الذي بين الطاولات. وحين توقف في النهاية قرب شفيك قال:

- تقول السيدة انك خنزير، فما الذي فعلته لها؟

- لم افعل اي شيء وهذا ما أبلغكم به بتواضع يا سيدي. لقد تصرفت بكل احترام، ولكنها أرادت ان تنصب نفسها سيدة على الشقة فوراً. ولأنني كنت دون أوامر منك فلم اتركها لوحدها فيها. ومما زاد في الطين بلة انها احضرت حقيبتين معها وكأنها عائدة الى شقتها الخاصة.

تهند الملازم الأول تهيدة عميقة اخرى ففعل شفيك الشيء نفسه.

صالح الملازم الأول مهدداً:

- ما الذي قلته؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انها حالة صعبة... منذ عامين دخلت سيدة

شابة الى شقة منجد في شارع «فويتيشسكا» ولم يستطع إخراجها حتى اضطر الى ان يسممها و يسمم نفسه ايضاً بالغاز، وكانت تلك نهاية المزحة. ما أصعب التعامل مع النساء! اعرفهن معرفة جيدة.

كرر الملازم الأول بعد شفيك: «حالة صعبة». ويبدو انه لم يسبق له ان تلفظ بعبارة أصدق منها. كان هاينريش العزيز في موقف شديد الصعوبة. ها هي زوجة، يضطهدها زوجها، تأتي إليه في زيارة تدوم أياماً عدة، في اللحظة التي كان يتوقع فيها زيارة من السيدة «ميتسكوفا» من «تريجيونى» والتي من المتوقع أن تأتي لتقيم ثلاثة أيام لتكرّر عليه ما تعرضه عادة في كل فصل من فصول السنة لدى زيارتها لبراغ من أجل التبضع. وفي اليوم التالي بعد هذه الزيارة ستأتيه سيدة شابة اخرى. كانت هذه قد وعدته على نحو نهائي بأن تتركه يغويها وذلك بعد أن فكرت بالموضوع مدة أسبوع بحاله، فهي ستزوج مهندساً بعد شهر.

جلس الملازم الأول فوق طاولة ورأسه بين يديه. فكّر في صمت، ولكنه لم يستطع الخروج بأية نتيجة، ثم جلس الى احدى الطاولات واخرج ورقاً رسمياً ومغلفاً وكتب ما يلي:

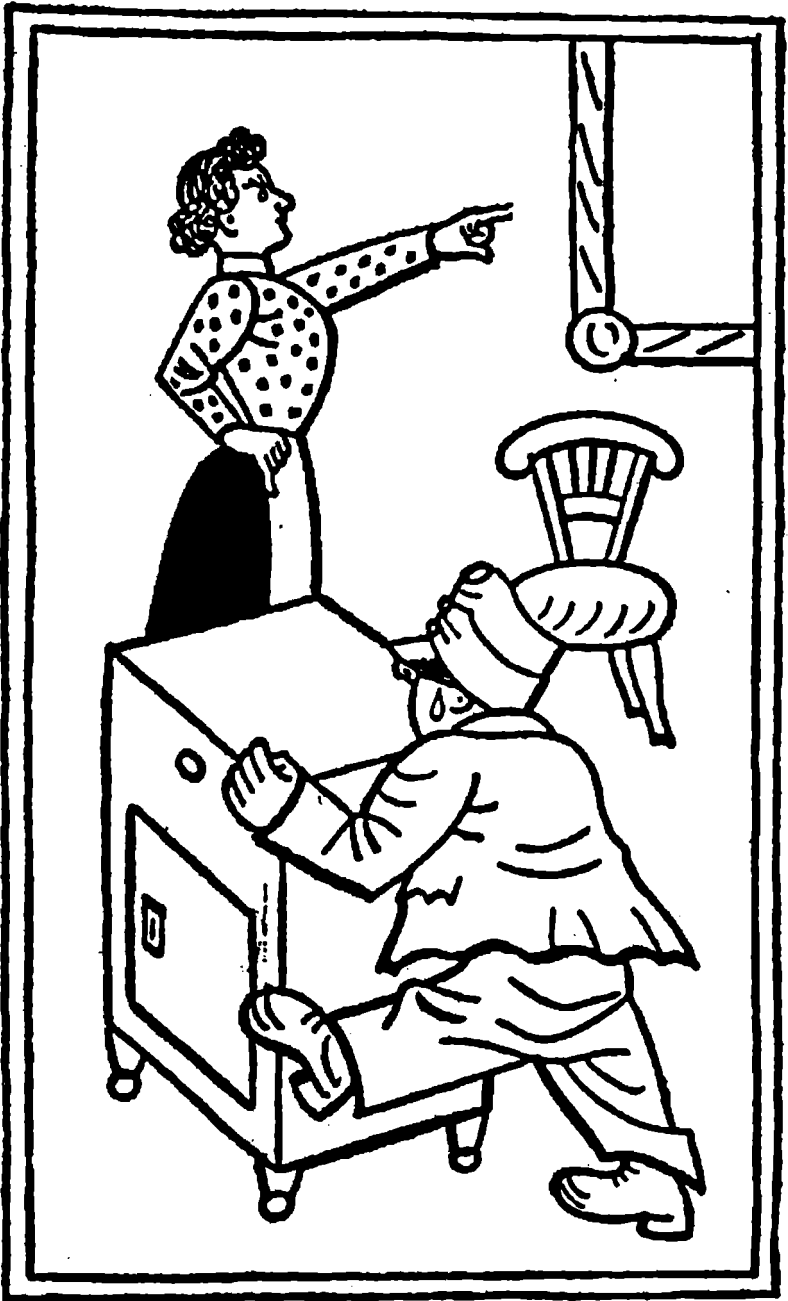
«عزيزتي كاتي:

أنا مناوب حتى الساعة التاسعة مساء. ارجو ان تعبري البيت بيتك. اما بالنسبة لوصيفي شفيك، فقد سبق لي وأمرته بأن يطيعك في كل شيء.

المخلص هاينريش»

قال الملازم الأول:

- خذ هذه الرسالة الى السيدة. وأوامرك هي ان تتصرف بكياسة وبلطف معها وأن تنفذ كل رغباتها إذ يجب أن تعتبرها أوامر. عليك التصرف بشهامة وان تخدمها على نحو لائق. إليك مئة كراون سأحاسبك عليها لاحقاً وذلك في حال رغبتها في إرسالك لشراء غرض ما، كما يمكنك ان تطلب لها الغداء



والعشاء وغيره. واشترت ثلاث زجاجات من النبيذ وعلبة لفافات. حسناً، لا شيء آخر في الوقت الحاضر. يمكنك ان تذهب ودعني اذكرك مرة اخرى بأن عليك ان تطيع كل رغبة من رغباتها مهما صغرت.

كانت السيدة الشابة قد سبق لها وفقدت كل أمل في مشاهدة شفيك ولذا دهشت تماماً حين رأته خارجاً من الشكنة باتجاهها وهو يحمل رسالة.
وبعد أن حيّاها سلّم لها الرسالة وقال:

- لقد أمرني الملازم الأول يا سيدتي بأن اتصرف بلطف وكياسة وأن اخدمك على نحو لائق واطيع كل رغبة من رغباتك. عليّ أن اطعمك واشتري لك اي شيء تريدنه. لقد دفع لي مئة كراون ولكن عليّ ان اشتري من اصل هذا المبلغ ثلاث زجاجات من النبيذ وعلبة لفافات.

بعد أن قرأت الرسالة عاد إليها تصميمها فكان أن اكدته بأن أمرت شفيك باستدعاء عربة، وحين تم ذلك، أمرته ان يجلس الى جانب الحوذي على الصندوق.

انطلقا نحو البيت، وحين دخلاه كانت السيدة ممتازة في لعب دور ربة المنزل. كان على شفيك أن يحمل حقيبتها الى داخل غرفة النوم وأن ينظف السجاجيد بالضرب عليها في ساحة الدار، كما أن نسيج عنكبوت صغيراً جداً خلف المرأة أصابها بحالة من الغضب الشديد.

بدا أن كل شيء يؤكد حقيقة ان السيدة تنوي أن تتخندق في البيت فترة طويلة وذلك ضمن المركز الذي تبواته.

عرق شفيك من التعب. فبعد أن نظف السجاجيد خطر لها ان تنزل الستائر وتضربها ايضا. ثم أمرته بأن ينظف نوافذ غرفة الجلوس والمطبخ. وبعد ذلك بدأت تغيير اماكن قطع الاثاث، وقد فعلت ذلك بعصبية شديدة، وبعد أن كان شفيك ينقل الاثاث كله من زاوية الى اخرى، لم يكن الأمر يعجبها، فتخرج بخطط جديدة وتدابير مستحدثة.

لقد قلبت كل ما كان في الشقة عاليه سافله ولكن طاقتها في بناء العش بدأت تتلاشى فتوقفت عن مضايقته.

أخرجت أغطية سرير نظيفة من خزانة الأغطية ووضعتها للوسائد واللحاف. وكان واضحا انها فعلت ما فعلته بالسرير بنوع من العاطفة، فقد أثار هذا ارتجافاً حسياً في منخريها.

ثم أرسلت شفيك لاحضار الغداء والنيذ. وقبل أن يعود غيرت ملابسها فارتدت ثوبا شفافا جعلها تبدو فاتنة وجذابة على نحو غير عادي.

شربت مع وجبة الغداء زجاجة نبيذ كاملة، ودخنت الكثير من اللفافات ثم ذهبت لتنام بينما كان شفيك في المطبخ يستمتع بالخبز العسكري الذي كان يغمره في كأس من شراب حلو مسكر.

نادت عليه من غرفة النوم:

- يا شفيك، يا شفيك.

فتح شفيك الباب فرأى السيدة الشابة في وضع مفر وقد اتكأت على الوسائد.

- ادخل.



سار شفيك نحو السرير. وبابتسامة عجيبة قاست بعينها جسده القصير القوي المملتى وفخذه المتينين.

أزاحت جانباً القماش الرقيق الذي كان يخفي ويكشف كل شيء، قالت بحزم وشدة: «اخلع حذاءك وبنطالك! تعال الى هنا!...»

وهكذا حدث أن الجندي الطيب شفيك استطاع أن يبلغ الملازم الأول حين عاد من الثكنة بما يلي: «أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني نفذت كل رغبات السيدة وخدمتها على نحو لائق وفقاً لأوامرك.»
أجاب الملازم الأول:

- شكراً يا شفيك. وهل كانت رغباتها كثيرة؟

- حوالي ست رغبات. والآن ها هي تنام وكأنها تعبئة تماماً من الركوب. لقد أطعت كل رغباتها بالفعل وكنت طوع بناتها تماماً يا سيدي!

5

بينما كانت جيوش هائلة مسمرة في الغابات المجاورة لنهري الدونا والراب، تقف تحت وابل من القذائف، ونيران المدفعية الثقيلة تمزق سرايا بحالها وتدفعها في الجبال الكارباتية، وبينما كانت آفاق ساحات المعارك تلتهب بنيان القرى والبلدان المحترقة، كان الملازم الأول لوكاش وشفيك يعيشان قصة حب بانسة مع السيدة التي هربت من زوجها وجعلت من نفسها ربة للمنزل.

حين خرجت للتزهر عقد الملازم الأول لوكاش مجلساً حريباً مع شفيك للنظر في كيفية التخلص منها.

قال شفيك:

- الحل الأمثل يا سيدي هو ان يعلم زوجها بمكانها فيأتي لاصطحابها حيث انها هربت منه وهو يبحث عنها، كما ذكرت في رسالتها التي جلبتها

إليك. يمكننا إرسال برقية له نقول فيها إنها عندك في البيت وانه يستطيع الحضور لاصطحابها. لقد حدثت قصة مشابهة في العام الماضي في فيلا تقع في «فشينوري». ولكن البرقية أرسلت الى الزوج من قبل الزوجة نفسها، وقد جاء إليها وصفها هي ومن كان معها، ولكنهما كانا مدينين كليهما. أما في حالتنا هذه فلن يجرؤ الزوج على مهاجمة ضابط في الجيش. وزيادة عليه فأنت لست بالمذنب اطلاقاً، لأنك لم تدع أحداً الى بيتك كما انها هربت من بيتها من تلقاء نفسها. سترى أن برقية كتلك ستكون شديدة النفع، حتى لو كانت هناك بضع لكلمات على الفك...

قاطعة الملازم الأول لو كاش قائلاً:

- انه شديد الذكاء، فأنا اعرفه. انه تاجر يبيع حشيشة الدينار بالجملة. يجب أن اتحدث معه. سأرسل له برقية.

وكانت البرقية التي أرسلها موجزة وتجارية جداً: «عنوان زوجتك الحالي هو...» ثم عنوان شقة الملازم الأول لو كاش.

وهكذا حدث أن تلقت السيدة كاتي مفاجأة غير سارة حين دخل بائع حشيشة الدينار مندفعاً من باب الشقة. وقد بدا عليه انه شديد الحذر والحرص حين عرقت السيدة كاتي، التي لم تفقد هدوءها في تلك اللحظة، زوجها على عشيقها إذ قالت: «زوجي، الملازم الأول لو كاش» ولم تستطع أن تفكر بأي شيء آخر.

قال الملازم الأول لو كاش بلهجة ترحيبية:

«أهلاً بك يا سيد فيندلر». ثم تناول لفافات من جيبه وقال: «هل لي ان اعرض عليك لفافة؟»

تناول تاجر حشيشة الدينار الذكي لفافة بلباقة عظيمة وقال وهو ينفث الدخان من فمه وبلهجة مدروسة:

- هل ستذهب قريباً الى الجبهة أيها الملازم الأول؟

- لقد طلبت نقلي الى الفوج الواحد والتسعين في «بوديوفيتسه»، حيث يمكن على الأرجح أن أرسل الى الجبهة حالما انهي تدريبي لعناصر دورة متطوعي العام الواحد. نحن في حاجة ماسة الى الضباط ومن الموسف ان الشباب المؤهلين للقبول كمتطوعين لعام واحد لا يتقدمون لمثل هذه الدورة. انهم يفضلون البقاء كجنود مشاة عاديين على أن يحاولوا أن يصبحوا برتبة مرشح.

- لقد سببت الحرب في تدمير تجارة حشيشة الدينار. ولكني لا اعتقد أنها ستدوم طويلا.

هذا ما قاله تاجر حشيشة الدينار وهو ينقل بصره ما بين زوجته والملازم الأول.

قال الملازم الأول لوكاش:

- وضعنا جيد جداً. اليوم لم يعد من أحد يشك في أن الحرب ستنتهي بانتصار قوى «المحور». ففرنسا وانكلترا وروسيا ضعيفات جدا امام الثبات العنيد النمساوي - التركي - الألماني. صحيح اننا قد عانينا بعض التراجعات البسيطة على بعض الجبهات، ولكن ما أن نخترق الجبهة الروسية بين سلسلة الجبال الكارباتية والدوناييتسه الأوسط، فلا شك أن هذا سيعني نهاية الحرب. كما ان الفرنسيين سيهددون قريبا بفقدان شرقي فرنسا كله وتغلغل الجيش الالماني الى باريس. هذا أكيد الآن. وبالإضافة الى ذلك فإن محاولاتنا في الصرب مستمرة على نحو ناجح جدا، كما أن «رحيل» قواتنا، والذي ما هو سوى إعادة تجميع للقوات، قد فسّر خطأ من قبل أناس كثيرين بأسلوب يتعارض وما يتطلبه التفكير الهادئ في زمن الحرب.

أخذ الملازم الأول تاجر حشيشة الدينار من ذراعه بلطف وقاده الى خريطة للمعارك كانت معلقة على الجدار وأراه بعض المواقع وهو يشرح قائلا:

- ان مرتفعات «السكيد» الشرقية قاعدة ممتازة لنا. وكما ترى هنا فإننا نتلقى دعماً عظيماً في القطاع «الكاربائي». لو قمنا بضربة قوية على هذا الخط فلن نتوقف حتى نصل الى موسكو. ستنتهي الحرب بأسرع مما تظن. سألت تاجر حشيشة الدينار وهو يفكر طوال الوقت في كيفية التطرق الى الموضوع الذي جاء من أجله:

- وماذا عن تركيا؟

أجاب الملازم الأول وهو يقوده الى الطاولة مرة اخرى:

- الأتراك صامدون جيداً. لقد وصل رئيس البرلمان التركي «غالي بيك» وكذلك «علي بيك» الى فيينا. كما تم تعيين «المارشال فون ساندرز» قائداً لجيش الدردنيل التركي. كما وصل «غولتس باشا» من القسطنطينية الى برلين للتو، وتم تقليد «أنور باشا» ونائب الاميرال «يوزدوم باشا» والجنرال «جواد باشا» الأوسمة من قبل امبراطورنا. نادراً ما يقلد هذا العدد الكبير جداً من الأوسمة خلال وقت قصير الى هذا الحد.

جلسوا جميعاً في صمت الواحد مقابل الآخر، حتى شعر الملازم الأول أن الوقت قد حان لمقاطعة ذلك الوضع المحرج بالكلمات التالية:

- متى وصلت يا سيد فيندلر؟

- هذا الصباح.

- يسعدني جداً أنك وجدته في البيت، لأنني اذهب دائماً الى الثكنة في فترة ما بعد الظهر كما انني أناوب في الليل دائماً. ولأن شقتي فارغة طوال النهار عملياً فقد أتيت لي ان اعرض على السيدة زوجته ضيافتي. لا يزعمها خلال بقائها في براغ اي شيء. وبما انها من معارفني القدماء...

سعل تاجر حشيشة الدينار وقال:

- «كاتي» امرأة غريبة بكل تأكيد ايها الملازم الأول. أرجو قبول شكري الحار على كل ما فعلته لاجلها. لقد قررت الذهاب الى براغ على نحو غير

متوقع، لأنها، كما قالت، تريد ان تعالج اعصابها. كنت مسافراً، وحين عدت الى البيت وجدته فارغا. كانت كاتي قد رحلت.

ثم سألتها بابتسامة متكلفة وهو يحاول أن يضع تعبيراً لطيفاً قدر الامكان على وجهه ويهز بأصبعه تجاهها:

- وهكذا فكرت، أليس كذلك، انه طالما كنت أنا مسافرا فبإمكانك أنت ان تسافري ايضا؟ وطبعاً لم تدركي أن ...

عندما لاحظ الملازم الأول لوكاش ان الحوار قد بدأ ينحو منحى حرجا، قاد تاجر حشيشة الدينار الذكي الى خريطة المعارك وأراه المواقع التي رسم تحتها خط وهو يقول:

- لقد فاتني ان أوضح لك شيئا شديد الأهمية: هذا المنحنى العظيم الذي يواجه الجنوب الغربي، حيث تشكل هذه المجموعة من الجبال رأس جسر اساسي، ضد هذه البقعة بالذات يوجه «الحلفاء» هجومهم. وإذا ما اغلقنا خط السكة الحديدية الذي يربط رأس الجسر بالخط الدفاعي الرئيسي للاعداء، فإن الاتصال بين الجناح الايمن «والجيش الشمالي» على نهر الفيستولا لا بد أن ينقطع. هل هذا واضح تماما لك؟

أجاب تاجر حشيشة الدينار بأن كل شيء كان واضحا له تماما، ولخشيتته - بسبب كياسته الفطرية - أن يفهم ما قاله على انه تنويه الى شيء آخر فقد قال وهو عائد الى مكانه:

- خلال الحرب خسرت حشيشة الدينار التي ننتجها أسواقها في الخارج. لم تعد فرنسا وانكلترا وروسيا والبلقان تشتري منا حشيشة الدينار. لا زلنا نرسل هذه الحشيشة الى ايطاليا ولكني اخشى ان تنجر هي الى الحرب ايضا في القريب العاجل، ولكن ما أن نكسب الحرب حتى نملي نحن أسعار بضائعنا.

قال له الملازم الأول محاولا أن يرفع من معنوياته:

- ايطاليا تحافظ على حيادها بحزم. انها...

- اذن لماذا لا تقر بأنها مقيدة بالتحالف الثلاثي مع النمسا - هنغاريا
وألمانيا؟

هذا ما انفجر به تاجر حشيشة الدينار فجأة في غضب شديد. ثم تابع
يقول:

- لقد توقعت أن تهجم ايطاليا على فرنسا والصرب. كانت الحرب
ستنتهي في مثل هذه الحالة. ان مخزون حشيشة الدينار في مستودعاتي
يتعفن، والسوق المحلية ضعيفة، والتصدير متوقف تقريباً، وايطاليا لا
زالت تحافظ على حيادها بحزم. لماذا جددت ايطاليا تحالفها الثلاثي
معنا عام (1912)؟ أين هو وزير الخارجية الايطالي، الماركيز سان
غوليانو؟ ما الذي يفعله هذا السيد؟ أهو نائم أم ماذا؟ هل تعرف كم كان
دخلي السنوي قبل الحرب وكم هو الآن؟
ثم استأنف يقول:

- لا تظن أنني لا اتابع ما يحدث.

بعد ذلك نظر الى الملازم الأول بغضب، وكان هذا ينفع من فمه بهدوء
حلقات من دخان اللفافات كانت الواحدة منها تلحق بالآخرى ثم تتحطم
عليها بينما السيدة كاتي تتابع العملية باهتمام شديد.

- لماذا عاد الالمان الى الحدود بعد أن كانوا قريين من باريس؟ لماذا هذا
التبادل الثقيل لنيران المدفعية بين نهري الماس والموزيل؟ هل تعرف انه عند
«كومبرس» و«فويفر» قرب «المارش»⁽¹⁾ تم احراق ثلاثة معامل للجعة كنا
نرسل إليها سنويا أكثر من خمسمئة كيس من حشيشة الدينار؟ كما أحرقت
في «الفوج»⁽²⁾ معامل هارتسما تشفيرلر للجعة كما تم تدمير معمل الجعة
الهائل في «نيدر سباخ» قرب «مولهاوزن»⁽³⁾، وهذا يعني خسارة ألف ومئتي

(1) مقاطعة فرنسية (المترجم).

(2) مقاطعة فرنسية (المترجم).

(3) في الالراس (المترجم).

كيس من حشيشة الدينار لشركتي كل سنة. لقد استعاد الالمان معمل «كلوستر هويك» للجنة ست مرات من البلجيك وهناك أصبنا بخسارة قدرها ثلاثمئة وخمسون كيسا كل سنة.

كان غضبه شديداً الى حد لم يعد معه قادراً على متابعة الكلام، بل نهض وتقدم نحو زوجته قائلاً:

- كاتي، تعالي معي الى البيت فوراً. ارتدي ملابسك.

ثم قال بعد لحظة بلهجة الاعتذار:

- كل هذه الحوادث تسبب في اثاره أعصابي الى حد كبير. من قبل، كنت إنساناً شديد الهدوء.

وحين ذهبت لترتدي ملابسها قال بصوت خفيض للملازم الأول:

- هذه ليست المرة الاولى التي تتصرف فيها بهذه الطريقة. في العام الماضي رحلت مع معلم قيد التجربة وقد وجدتهما بعد أن وصلا الى «زغرب». وقد قمت باستغلال الفرصة لاقامة اتصال مع معمل الجعة في «زغرب» وقد بعته ستمئة كيس من حشيشة الدينار، أجل، كان الجنوب منجم ذهب. كان نتاجنا من حشيشة الدينار يصل حتى القسطنطينية. واليوم نحن نصف مفلسين. وإذا ما حددت الحكومة انتاج الجعة هنا في الوطن فستكون تلك هي الضربة القاضية.

وبعد ان اشعل اللفافة التي عرضها عليه الملازم الأول قال يائسا:

- لقد كانت وارسو تشتري لوحدها (2370) كيسا من حشيشة الدينار. ان أكبر معمل للجنة فيها هو «الأوغسطي». وقد اعتاد وكيله ان يزورني بانتظام كل عام. في كل هذا ما يكفي لزرع اليأس في النفوس. من حسن الحظ انه ليس لي اولاد.

إن الاستنتاج المنطقي من الزيارة السنوية لوكيل المعمل «الأوغسطي» في وارسو، جعل الملازم الأول يتسم بلطف وقد لاحظ تاجر حشيشة الدينار تلك الابتسامة فمضى يقول وهو يستمر في شرح الأمور:

- كانت معامل الجعة الهنغارية في «سوبرون» و«غروس كانيشا» تشتري من شركتي حشيشة الدينار من أجل صنع الجعة المخصصة للتصدير، وقد كانوا يصدرونها حتى الاسكندرية، ويشترى مني ألف كيس من حشيشة الدينار كل عام تقريبا. والآن يرفضون ان يشتروا اي شيء بسبب الحصار. اعرض عليهم حسما قدره ثلاثون بالمئة ولكنهم لا يشترون كيسا واحداً. الكساد، الفساد، البؤس، وفوق ذلك كله المشاكل الداخلية.

صمت تاجر حشيشة الدينار للحظة، ولكن صمته قوطع من قبل السيدة كاتي التي كانت قد أصبحت جاهزة للسفر وراحت تسأل:

- ما الذي سنفعله بحقيتي؟

قال تاجر حشيشة الدينار بارتياح:

- سيأتون لاحضارهما يا كاتي.

لقد كان سعيداً ان تنتهي الامور على أفضل وجه دون مشاجرات او مشاهد فضائحية. قال:

- إذا اردت القيام بالمزيد من التبضع فقد حان وقت انطلاقنا، فالقطار يغادر في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة.

وقد قاما كلاهما بتوديع الملازم الأول بمودة، وكان تاجر حشيشة الدينار سعيدا جدا لان الامر انتهى بسلام حتى انه قال للملازم الأول في الردهة:

- إذا ما جرحت على الجبهة، لا سمح الله، فتعال للنقاها عندنا. سنعتني بك كأفضل ما يكون.

حين عاد الى غرفة النوم حيث ارتدت السيدة كاتي ملابسها استعداداً للسفر، وجد الملازم الأول على حوض الغسل اربعمئة كراون والرسالة التالية:

«أيها الملازم الأول: لم تدافع عني امام زوجي الغوريلا، ذاك الأحقق بشهادة. لقد سمحت له بأن يجزني معه كأنني أاثاث نسيه في شقته. وأنت

بفعلتك هذه قد سمحت لنفسك بأن تقول انك عرضت على ضيافتك. آمل ألا أكون قد جعلتك تنفق عليّ أكثر من مبلغ الاربعمئة كراون المرفقة هنا والتي ارجو أن تقاسمها مع خادمك».

وقف الملازم الأول لوكاش للحظة والرسالة في يده ثم مزقها ببطء الى قطع صغيرة ثم نظر بابتسامة الى النقود الموضوعة فوق حوض الغسل، فلاحظ انها بينما كانت تمشط شعرها امام المرأة نسيت في ثورة غضبها مشطها فوق المنضدة، فأخذه ووضعها بين مجموعته «الفتشية».

عاد شفيك في فترة بعد الظهر، كان قد ذهب لبحث عن كلب من نوع «بنشر الاصطبلات» للملازم الأول.

قال الملازم الأول:

- يا شفيك، أنت محظوظ. لقد رحلت تلك السيدة التي كانت تقيم عندي. لقد حضر زوجها وأعادها الى بيته. ومن أجل كل الخدمات التي قدمتها لها فقد تركت اربعمئة كراون فوق حوض الغسل. عليك أن تشكرها بلطف او تشكر زوجها بالاحرى، لأن هذا المال ماله. سأملئ عليك رسالة.

ثم أملئ ما يلي:

«السيد المحترم:

أرجو ان تغفلوا الزوجتكم شكري الحار للاربعمئة كراون التي تركتها لي لقاء الخدمات التي قدمتها لها خلال زيارتها الى براغ. لقد فعلت ما فعلته لأجلها بكل سرور، وبالتالي لا استطيع قبول هذا المبلغ بل اعيدته...

- هيا يا شفيك وتابع الكتابة. ما الذي يزعجك؟ أين توقفت؟

- بل اعيدته...

هذا ما قاله شفيك بصوت مترع بعاطفة تراجيدية.

- حسنا. استمر.

«... بل أعيده مؤكداً احترامي العميق. أقدم إليكم تحياتي المترعة بالاحترام وأقبل يد السيدة زوجتكم. يوسف شفيك وصيف الملازم الأول لو كاش».

- هل انتهيت؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انكم نسيتم التاريخ.

- العشرون من كانون الأول (ديسمبر) من عام (1914). والآن اكتب العنوان على الظرف واحمل هذه الكراونات الاربعمئة الى مكتب البريد وأرسلها الى ذلك العنوان.

راح الملازم الأول لو كاش يصفر بسعادة لحنا من أوبريت، «السيدة المطلقة»، ثم نادى على شفيك وهو خارج في طريقه الى مكتب البريد:
- شيء آخر يا شفيك. ماذا عن الكلب الذي خرجت تبحث عنه؟
- لقد وجدت كلباً مناسباً يا سيدي، كلباً جميلاً جداً، ولكن سيكون من الصعب الحصول عليه)، آمل ان احضره غداً على أية حال. انه يعرض.

6

لم يسمع الملازم الأول لو كاش الكلمة الاخيرة رغم أهميتها الشديدة. كان شفيك يريد أن يكرر قائلاً: «ذلك الحيوان يعرض بكل ما فيه من قوة»، ولكنه فكر في النهاية هكذا: «ما علاقة الملازم الأول بالموضوع؟ هو يريد كلباً، وسيحصل عليه».

من السهل طبعاً ان تقول: «احصل لي على كلب!» فأصحاب الكلاب شديداً الحرص على كلابهم حتى لو لم تكن اصيلة، والهجين الذي ليست له وظيفة في الحياة سوى تدفئة قدمي سيدة عجوز، هو المفضل من قبل صاحبه فلا تسمح لاي شخص بأن يمس شعرة في رأسه.

ولكن على الكلب، حتى لو كان اصيلاً، ان يشعر غريزيا بأنه في يوم من

الأيام سيسرق من صاحبه. انه يعيش في خوف دائم من ان ذلك سيحدث وانه يجب ان يسرق. مثلاً حين يخرج الكلب في مشوار فإنه يتتعد عن صاحبه للحظة واحدة. في البداية تراه سعيداً ومرحاً. وها هو يلعب مع الكلاب الاخرى ويتسلق على ظهورها لأسباب غير اخلاقية وتركب هي على ظهره. كما أنه يشم احجار الحواجز عند حافة الطريق ويرفع ساقه في كل زاوية بل وفوق سلة البطاطا الخاصة بزوجة الخضري، وباختصار فإن لديه فرحة الاستمتاع بالعيش الى حد كبير كما يبدو العالم له رائعاً كما قد يبدو لشباب نجح في امتحانات الثانوية.

ولكنك تلاحظ فجأة ان مرحه يتلاشى وانه يشعر بالضياع. وها هو الآن وقد انتابه اليأس الحقيقي للمرة الاولى. انه يعدو مذعوراً في الشوارع، يتشمم ويثني ويجر ذيله بين ساقيه في يأس كامل. ها هو يدفع أذنيه الى الخلف ويندفع في وسط الطريق ولا احد يعرف اتجاهه.

ولو استطاع النطق لصاح: «يا للمسيح ومريم، سيسرقني أحد ما!».

هل سبق لك وكنت في مؤسسة لبيع الكلاب ورأيت كلاباً مذعورة؟ هذه كلها مسروقة. لقد طوّرت المدينة الكبيرة صنفاً خاصاً من اللصوص يعيش على سرقة الكلاب فحسب. فهناك أجناس دقيقة الحجم من كلاب غرف الجلوس، وكلاب «البنشر المنمنم» الدقيقة التي يمكن وضعها في جيب معطف او غطاء اليدين النسائي المصنوع من الفرو. بل أنها تخطف حتى من هذه الأمكنة تلك الكلاب المسكينة. الكلب الألماني المتوحش من نوع «الدرواس المرقط» يخطف في الليل وهو يحرس على نحو ضار احدى الفيلات في الضواحي. أما الكلب البوليسي فيخطف من تحت أنف رجل الشرطة السرية. تخرج ومعك الكلب وقد ربطته بحبل فيقطعون الحبل ويختفي الكلب ويتركونك وأنت تحدق بغباء في طوق فارغ. ان نصف الكلاب التي نراها في الشوارع قد بدلت اصحابها مرات عدة، وغالبا ما يحدث ان تشتري كلبك نفسه بعد مرور سنوات وبعد ان يكون احدهم قد

سرقه منك وهو جرو بعد، وذلك حين اصطحبتة مرة للنزهة. إن خطر التعرض للسرقة يكون أسوأ حين تقاد الكلاب لتقضي حاجتها الجسديتين، الصغيرة منها والكبيرة. ففي تلك اللحظة التي تكون فيها منهمكة في فعل الكبيرة تضيع معظم هذه الكلاب. ولهذا، فإن على كل كلب، حين يكون منهمكا بهذه الطريقة، ان يتلفت بحذر من حوله.

هناك أساليب مختلفة يلجأ إليها لصوص الكلاب فهم إما يسرقون الكلاب مباشرة بأسلوب النشالين او عن طريق اغواء هذه المخلوقات التعيسة بالخداع والحيلة. الكلب حيوان مخلص ولكن فقط في الكتب المدرسية المخصصة لتعليم القراءة او التاريخ الطبيعي. ان الشخص يسمح حتى لأكثر الكلاب اخلاصا ان تشم المقائق المقلية المصنوعة من لحم الحصان ثم يضيع هذا الكلب، فهو ينسى صاحبه الذي يسير الى جانبه وينعطف ويتبعك بضم متحلب، كما انه اذ يتوقع مدى المتعة التي سينالها من أكل المقائق يحرك ذيله بطريقة ودية جداً ويفتح منخريه كأنه الجواد البري حين يقاد الى الفرس.

في «مالاسترانا» قرب «درجات القلعة» توجد حانة صغيرة جلس فيها في غسق أحد الأيام شخصان أحدهما جندي والآخر مدني. كانا يميلان الواحد على الآخر ويهمسان على نحو غامض وسري كأنهما متآمران من أيام «جمهورية البندقية».

همس المدني:

- كل يوم في الساعة الثامنة تأخذه الخادم الى زاوية «ساحة هافليتشيك» في طريقهما الى الحديقة العامة. ولكنه وحش حقيقي ويعض بكل ما فيه من قوة. لا يمكنك حتى أن تربت عليه.

ثم انحنى نحو الجندي وهمس في أذنه:

- انه لا يلمس المقائق حتى.

سأله الجندي:

- ولا حتى المقلية منها؟

- ولا حتى المقلية منها.

بصق كلا الرجلين.

- حسناً، وماذا يأكل الوحش؟

- الله اعلم. هذه الكلاب مفسدة ومدللة كرئيس اساقفة.

رن الجندي والمدني كأسيهما وهمس الأخير ثانية:

- في احدى المرات لم يتنازل «بوم» أسود، كنت في حاجة إليه لأبيعه لمؤسسة لتربية الكلاب عبر نهر «الكلاموفكا»، فينظر حتى الى المقائق أيضاً، لقد تبعته ثلاثة أيام، حتى لم اعد استطيع التحمل وسألت السيدة التي كانت تقوده عن نوع الطعام الذي يأكله، فقد كان شديد الجمال. شعرت السيدة بالاطراء وقالت انه يفضل اللحم المشوي مع عظمه (الكستلاته) وهكذا اشترت له «شنيتسل». لقد ظننت ان الشنيتسل افضل له. وهل تعلم ان ذلك الوحش لم يتنازل فينظر إليها حتى، لانها من لحم العجل وهو معتاد على لحم الخنزير. وهكذا اضطرت الى شراء كستلاتة الخنزير. تركت الكلب يشمها اولاً، ثم عدوت والكلب يلحق بي. صاحت السيدة: «يابونتيك، يا بونتيك!». ولكن اين كان «بونتيكها» العزيز؟ لقد ركض خلف الكستلاته حتى زاوية الشارع وإلى ما هو أبعد منها. ثم وضعت طوقاً حول عنقه، وفي اليوم التالي كان قد اصبح في مؤسسة لتربية الكلاب عبر نهر «الكلاموفكا». كانت لديه بقعة من الشعر الأبيض تحت عنقه وقد صبغوها باللون الأسود ولم يعد احد قادرا على معرفة ذلك الكلب. ولكن الكلاب الاخرى، وكان هناك الكثير منها، هجمت على مقائق لحم الحصان المقلية. سيكون من الأفضل ان تسأل الخادم ماذا يفضل الكلب ان يأكل، أنت جندي، ولديك شخصية جميلة، وسيكون من المرجح ان تقول لك ما يأكله. لقد سبق لي وسألتها ولكنها نظرت إلي كأنها

تريد أن تطعنني وقالت: «وما علاقتك بذلك؟» انها ليست جميلة جدا، انها تشبه القرود ولكنها مع جندي مثلك ستتكلم بكل تأكيد».

- هل هو بنشر اصطبلات حقيقي؟ ملازمي لا يريد سوى هذا النوع.

- انه بنشر اصطبلات أنيق جداً، وله لون الفلفل والملح، كلب اصيل فعلا كما انت شفيك وأنا بلاهنيك. وما أريد معرفته هو نوع الطعام الذي يأكله وسأقدم له ذلك واجلبه لك.

رن الصديقان الكؤوس مرة اخرى. حين كان شفيك في فترة ما قبل الحرب يتعيش من بيع الكلاب، كان بلاهنيك هذا يوردها له. كان رجلا ذا خبرة ويقال عنه انه كان يشتري الكلاب المشبوهة على نحو غير قانوني من باحة تاجر الجلود ويعيد بيعها. بل انه اصيب مرة بداء الكلب واقام فترة في «مؤسسة باستور» في فيينا. والآن كان يعتبر ان من واجبه ان يقدم المساعدة التزيهة للجندي شفيك. كان يعرف كلاب مدينة براغ وضواحيها كافة ويتحدث دائما بهدوء لانه كان عليه أن يحرص لثلا يكشفه صاحب الحانة. فمنذ ستة اشهر سرق منه جرواً من نوع «الدشهند» خبأه تحت معطفه واعطاه رضاعة حليب اطفال ليرضعها، وهكذا ظنه الجرو الأحمق أمه فلم يصدر اي صوت.

من حيث المبدأ كان يسرق سوى الكلاب الأصيلة بل ويمكن اعتباره خبيراً قانونياً بها. كان يزود كل مؤسسات الكلاب والاشخاص ايضاً بالكلاب وحسب ما يتوفر له منها، وحين كان يمشي في الشارع، كانت كل الكلاب التي سبق له وسرقها مرة تعوي عليه. بل كان يحدث احيانا انه حين يتوقف في مكان ما إلى القرب من واجهة محل، يرفع كلب تواق إلى الانتقام ساقه ويبول على سرواله.

* * *

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كان ممكنا مشاهدة الجندي الطيب شفيك عند زاوية «ساحة هافليتشيك» قرب الحديقة العامة. كان في انتظار



الخدام التي ترافق «بنشر الاصطبلات». وأخيراً جاءت ومعها كلب ذو شاربين وشعر منتصب وفرو خشن وعينين سوداوين حكيمتين. كان مرحاً شأنه شأن كل الكلاب بعد أن تكون قد قضت حاجتها، فجعل يطارد طيور السنونو التي كانت تتناول فطورها من روث الجياد في الشارع.

ثم مرّت المرأة التي كانت ترافق الكلب بشفيك، فلاحظ انها عانس عجوز قد ضفرت شعرها على شكل تاج أنيق. صفّرت للكلب ولوّحت بسلسلة وسوط أنيقين.

تحدث إليها شفيك:

- اعذريني يا آنسة، هل لك ان تدلّيني عن الطريق إلى «جيجكوف»؟
توقفت ونظرت إليه لترى ان كان يعني ذلك السؤال فعلاً، فانبأها وجه شفيك البريء انه كان بالفعل جندياً يريد أن يذهب إلى «جيجكوف»، مما لّين تعابير وجهها وجعلها تشرح له بسرور كيف يصل إلى هناك.

قال شفيك:

- لقد نقلت الى براغ مؤخراً فحسب. لست من هنا. أنا من الريف. أنت لست من براغ ايضاً، أليس كذلك؟
- أنا من فودناني.

- اذن لسنا بعيدين كثيراً عن بعضنا البعض. أنا من بروتيفين.

هذه المعرفة بطوبوغرافيا بوهيميا الجنوبية التي اكتسبها شفيك خلال اشتراكه في مناورات جرت هناك، ملأت قلب السيدة الطيبة بتوهج وطني محلي.

- اذن لا شك انك تعرف الجزائر «بيخار» في ساحة بروتيفين.

- طبعاً! انه أخي. الجميع يحبونه في البيت. انه طيب جدا ويساعد الآخرين. كما ان لديه لحما جيداً يزيد الوزن.

سألته وقد بدأت تشعر انها منجذبة نحو هذا الجندي الطيب:

- ألسنت واحدًا من أولاد «باريش»؟

- بل أنا كذلك.

- وأي «باريش» منهم، اهو ذاك القادم من «كرتش» قرب بروتيفين ام من «راجيتسه»؟

- من «راجيتسه».

- أما يزال يبيع الجعة؟

- نعم ما يزال.

- لا بد وانه قد جاوز الستين منذ زمان بعيد.

- لقد أصبح في الثامنة والستين في الربيع الماضي. والآن لديه كلب يرافقه دائماً، بل ويجلس على عربته. انه من نوع ذاك الكلب الذي يركض خلف السنونو. كلب صغير جداً، جميل جداً.

هذا ما قاله شفيك بهدوء، فأجابته صديقتة الجديدة:

- انه كلبنا. أنا اعمل لدى العقيد. ألا تعرف عقيدنا؟

- أعرفه. انه ذكي جدا. في بوديوفيتسه كان لدينا عقيد مثله.

- سيدنا شديد الحزم، وحين كان الناس يقولون مؤخراً اننا هُزمتنا في الصرب،

عاد الى البيت غاضبا وشكله مخيف، ورمى بكل الاطباق في انحاء المطبخ وأراد ان يطردني.

- اذن هذا هو كلبك؟ من الموسف الا يكون ملازمي من النوع الذي يتحمل

الكلاب. لاني مغرم بها جدا أنا نفسي.

ثم صمت للحظة واستأنف فجأة:

- ولكن لا يأكل اي كلب كل شيء.

- كلبنا «فوكس» على الموضة. فهو قد رفض أكل اللحم مرة من المرات،

ولكنه عاد ليأكله الآن.

- وما الذي يفضل تناوله على كل شيء آخر؟

- الكبد، الكبد المسلوق.

- كبد العجل ام الخنزير؟

- لا فرق عنده.

وهنا ابتسمت مواطنة شفيك حيث انها فهمت السؤال الاخير على انه

محاولة فاشلة للتكيت.

سارا معا لفترة قصيرة ثم انضم إليهما «بنشر الاصطبات» الذي تم تقييده

بالسلسلة الآن. كان ودوداً جدا تجاه شفيك وحاول ان يمزق له سرواله بأنفه

وأنيابه. كما قفز عليه، ولكنه توقف فجأة وكأنه احس بما كان يخطط له شفيك

وسار بحزن وكآبة، وهو ينظر نظرات جازية الى شفيك وكأنه يريد ان يقول:

«اذن سيحدث لي ذلك أنا ايضا الآن؟».

كما حكت له ايضا انها تأتي الى هنا مع الكلب كل مساء في الساعة السادسة وانها لا تتق بأي من الرجال في براغ. كانت قد نشرت مرة اعلانا في الصحيفة استلمت له جوابا من صانع اقفال يعرض عليها الزواج. ولكنه احتال عليها بشمانمة كراون لينفقها على اختراع من اختراعاته ثم اختفى عن الانظار. في الريف الناس اكثر صدقا وامانة. لو انها تزوجت فلن تزوج إلا من رجل من الريف وبعد نهاية الحرب فحسب. ففي رأيها ان زواج الحرب غباء، لان عروس الحرب غالبا ما تتحول الى ارملة.

لمح لها شفيك بأنه سيأتي في الساعة السادسة. ثم ذهب ليقول لصديقه «بلاهنيك» ان الكلب يأكل الكبد من اي نوع.
قال بلاهنيك بتصميم:

- سأطعمه كبد الثعلب. بهذا الأسلوب نلت كلب «السان برنار» الذي ينتمي الى مدير الشركة «فيردا»، وكان ذلك كلبا مخلصا جدا. غدا سأجلب لك الكلب في اتم الصحة.

كان بلاهنيك عند وعده. فحين انهى شفيك تنظيف الشقة في الصباح سمع عواء عند الباب وشاهد بلاهنيك يجر «بنشر الاصطبلات» الذي كان يقاومه وقد اصبح شعره اكثر انتصابا مما جعلته الطبيعة في الاصل. كان يقلب عينيه بجنون ويبدو مكفهراً أشبه بنمر جائع في قفص حديقة حيوان حين يرى زائراً سميئا يقف امامه. كان يطحن بأسنانه ويعوي وكأنه أراد أن يقول: «سامزك إرباً سألتهمك».

ربط الكلب الى طاولة المطبخ ووصف بلاهنيك كيف سرقه:

- مررت به وأنا ممسك بالكبد المسلوق الملفوف بورقة. بدأ يتشم ثم يقفز عليّ. لم امنحه شيئاً بل تابعت سيرتي، وهو يتبعني. عند الحديقة العامة انعطفت نحو شارع بريدوفسكا، وهناك اعطيته القطعة الأولى، فأكلها وهو لا يزال منطلقاً ورائتي بحيث لا اضيع عنه. ثم انعطفت الى شارع بيندرجشسكا حيث

منحته قطعة اخرى. وبعد أن التهم هذه ايضا وضعت حوله رقبتة طوقا وسلسلة وجررتة عبر ساحة فينتسيسلاس الى فينوهرادي ثم الى فرشوفيتسه. وفي الطريق مارس معي بعض الحيل الرائعة. وحين عبرت خطوط الترام تمدد على الأرض وامتنع عن الاستمرار في السير. ربما أراد ان يدهسه الترام. لقد جلبت معي شهادة نسب فارغة كنت قد اشتريتها من محلات «فوخس» للقرطاسية. هل تعرف كيف تزورها يا شفيك؟

- يجب ان تكتب بخط يدك. اكتب ان هذا الكلب قد جلب من مؤسسات تربية الكلاب «فون بيلوف» في لايتسيغ. اسم أبيه «أر نهائم فون كالسيبرغ» واسمه أمه «ايفا فون تراوتسدورف»، وهو ينحدر من ناحية أبيه من «زيغفريد فون بورزنتال». لقد نال ابوه الجائزة الاولى في معرض برلين للكلاب من نوع «بنشر الاصطبلات» عام (1912)، أما الأم فقد قلدت الميدالية الذهبية الخاصة بجمعية نورنبرغ لتربية الكلاب الاصيله. كم تعتقد انه يبلغ من العمر؟

- من أسنانه اعتقد ان عمره ستان.

- اكتب سنة ونصف.

- ولكن ذيله مقصوص على نحو سيء. انظر الى اذنيه.

- يمكننا تعديل ذلك، بل يمكننا ان نقصهما نهائيا بعد ان يعتاد علينا، ولكن ذلك سيغضبه اكثر الآن.

كان الحيوان المسروق يهر بجنون ويلهث ويدور في مكانه ثم يقعي على الأرض. كان ينتظر متعبا ومنهكا وبلسان مدلى من فمه، وذلك ليرى ماذا سيحدث له بعد ذلك.

وقد بدأ يهدأ تدريجيا الآن، ولكنه استمر في الأنين على نحو مثير للشفقة. عرض عليه شفيك بقايا الكبد التي كان بلاهنيك قد اعطاه اياها. ولكنه لم يلتفت إليها، ومنحها نظرة تحد وحدق إليها وكأنه يقول: «لقد احترقت اصابعي مرة. يمكنكما ان تأكلاها انتما».

اقعى على الأرض مستسلما وتظاهر بالنوم. وفجأة قرّر شيئا فقفز وبدأ يقف على قائمته الخلفيتين ويتوسل بقائمه الأماميتين. لقد استسلم تماما. ولكن هذا المشهد المسرحي المؤثر لم يترك اي انطباع على شفيك. صرخ بالحيوان البائس الذي اقعى مرة اخرى وراح يئن على نحو مثير للشفقة.

سأله بلاهنيك:

- ما الاسم الذي سأضعه على شهادة نسبه؟ كانوا يسمونه «فوكس» لذا علينا ان نجد شيئا ما شبيها به يفهمه فوراً.

- لماذا لا نسميه «ماكس»؟ انظر يا بلاهنيك كيف يرفع أذنيه. انهض يا ماكس!

وقف «بنشر الاصطبلات» البائس الذي سرق منه بيته واسمه وانتظر أوامر اخرى.

قرر شفيك:

- سنفك رباطه ونرى ماذا سيفعل؟

حين فك رباطه ذهب نحو الباب حيث نبح ثلاث مرات على مقبض الباب، اذ يبدو انه كان معتمداً على ما يبدو على كرم هذين الرجلين الشريرين. وما ان رأى على أنهما لا يفهمان رغبته وتوقه للخروج، صنع بركة صغيرة عند الباب مقتنعا بأنهما سيرميان به خارجا كما اعتاد الناس ان يفعلوا به حين كان صغيراً، ومثل ما كان العقيد يعلمه بأسلوب عسكري صارم كيف يكون صالحا للاقامة في البيت.

ولكن شفيك لاحظ قائلاً:

- انه مخادع. بكل تأكيد، انه «يسوعي» بعض الشيء.

ثم ضربه بحزامه ودفع بخطمه في البركة وذلك حتى ينهك نفسه في تنظيف نفسه لعقا بلسانه.

أن غضباً لهذه الالهانة وبدأ يركض في المطبخ وهو يتشمم يائساً آثار اقدمه. وفجأة قفز الى الطاولة وأكل بقية الكبد التي كانت على الأرض ثم تمدد الى القرب من المدفأة ونام بعد كل هذه المغامرة.

سأل شفيك بلاهنيك وهذا الأخير يودعه:

- بكم أدين لك؟

قال بلاهنيك بلطف:

- لا شيء يستحق الذكر. مستعد ان افعل اي شيء لأجل صديق قديم، خاصة وانه يخدم في الجيش الآن. وداعاً يا صديقي واياك ان تقوده عبر «ساحة هافليتشيك» حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه. واذا ما حدث واحتجت الى كلب آخر فأنت تعرف أين أسكن.

ترك شفيك ماكس نائماً لفترة طويلة واشترى له في هذه الاثناء نصف باوند من الكبد من عند الجزار ثم سلقه وانتظر حتى استيقظ وتركه يشم قطعة من الكبد الدافئ.

بدأ ماكس يلحق شفتيه وهو نائم، ثم مط قوائمه وتشمم الكبد وأكله. وبعد ذلك اتجه نحو الباب واعاد تجاربه مع مقبضه.

ناداه شفيك:

- يا ماكس! تعال الى هنا!

جاء إليه متشككاً. أخذه شفيك في حضنه وربت عليه وحرك ماكس للمرة الاولى بقايا ذيله المقصوص بطريقة ودية، ثم عض بلطف على يد شفيك، وأمسكها بين فكيه ونظر بحكمة شديدة الى شفيك وكأنه يقول: «لا استطيع فعل اي شيء. اعرف اني ضعت».

استمر شفيك في الربت عليه وبدأ يتحدث بلهجة رقيقة:

- كان هناك مرة كلب صغير يسمى «فوكس» يعيش مع عقيد. اخذته الخادم في نزهة وجاء رجل وسرقه. اتى فوكس الى عند ملازم اول واصبح اسمه الآن

ماكس. يا ماكس. اعطني كفك. والآن ترى ايها النغل اننا سنكون صديقين حميمين اذا ما كنت مطيعا وطيبا، والا سأشن عليك حربا شعواء.

قفز ماكس من حضن شفيك وبدأ يقفز عليه بسعادة. وحين حل المساء وعاد الملازم الأول من الثكنة، كان شفيك وماكس قد اصبحا افضل صديقين حميمين.

نظر شفيك الى ماكس وفكر متفلسفا:

- على اية حال، فإن كل جندي، على العموم، مسروق من بيته ايضا. دهش الملازم الأول لو كاش على نحو معقول حين شاهد الكلب الذي اظهر له سعادة كبيرة وذلك حين رأى مرة اخرى رجلا يتككب سيفا.

وجوابا على السؤال المتعلق بالمكان الذي اتى منه الكلب وثمانه، قال شفيك بكل هدوء ان الكلب قد منح له من قبل صديق استدعي الى الخدمة للتو.

قال الملازم الأول وهو يداعب ماكس:

- حسناً يا شفيك، في أول يوم من الشهر ستحصل على خمسين كراونا مني لقاء هذا الكلب.



- لا استطيع قبول المبلغ يا سيدي.

قال الملازم الأول بصراحة:

- يا شفيك، حين بدأت خدمتك معي افدتك بأن عليك اطاعة أوامري كلها. حين اقول لك انك ستحصل على خمسين كراونا، فعليك ان تأخذها وتنفقها على الشراب. ما الذي ستفعله يا شفيك بهذه الكراونات الخمسين؟ - أبلغكم بتواضع يا سيدي اني سأنفقتها على الشراب حسب أوامركم. - وفي حال نسياني لذلك يا شفيك، آمرك بأن تبلغني بأن اعطيك خمسين كراونا لقاء الكلب. هل تفهم؟ هل أنت واثق من ان الكلب لا يحمل براغيث؟ الأفضل ان تحممه وتمشطه. غدا لديّ مناوبة، ولكني سأصطحبه في نزهة بعد الغد.

وبينما كان شفيك يحمم ماكس، كان العقيد مالكة السابق، يرعد في البيت ويهدد بأنه سيحضر اللص امام محكمة ميدانية ويعدمه رميا بالرصاص وشنقا ويسجنه عشرين عاما ثم يقطعه الى اربعة اجزاء.

كان يمكننا ان نسمع الصراخ بالألمانية في كل ارجاء شقة العقيد بحيث كانت النوافذ تقعقع:

- اللعنة على ذلك الخنزير البغيض اللعين! سأعرف كيف انتقم من ذلك السفاح القاتل!

كانت سحب عاصفة كارثية تتجمع فوق رأس شفيك والملازم الأول لوكاش.

الكارثة

كان العقيد فريدريش كراوس، الذي يحمل لقباً إضافياً هو «فون تسيلرغوت»، وتسيلرغوت هذه قرية في منطقة سالزبورغ سبق لأسلافه أن سلبوها من كل شيء في القرن الثامن عشر، غيباً من النوع المبجل جداً. فحين كان يروي أي شيء ما كان يستطيع أن يتحدث إلا بالتفاهات ويسأل محدثه عادة عن قدرته على فهم أكثر التعبيرات بدائية: «وهكذا فإن النافذة أيها السادة، أجل، حسناً، هل تعرفون ما هي النافذة؟» أو: «المجاز الذي له مسال طويل ممتد على جانبيه يسمى طريقاً. أجل أيها السادة. والآن اتعرفون ما هو المسال؟ المسال هو حفرة يعمل فيها عدد من الناس. إنه أجوف. أجل. انهم يعملون بآلات مستدقة الرأس. والآن هل تعرفون ما هذا أيضاً؟».

كان يعاني من جنون الولوج بالتفسيرات وكان يمنحها بحماسة المخترع الذي يفسر اختراعاته.

«الكتاب أيها السادة عدد من الأوراق المقطوعة بأساليب مختلفة وأشكال متنوعة، ويطبع عليها ثم تضم معاً وتحزم وتلصق بالصمغ: أجل، حسناً، هل تعرفون أيها السادة ما هو الصمغ؟ الصمغ مادة لاصقة».

كان غيباً على نحو هائل وإلى حد أن الضباط كانوا يتجنبونه من بعيد حتى لا يضطروا أن يسمعوا منه أن الرصيف يعزل الشارع عن طريق العربات

وانه عبارة عن شريط مرتفع مرصوف على امتداد واجهة المنزل. وأن واجهة المنزل هي ذلك الجزء منه التي نراها من الشارع او من الرصيف. لا تستطيع ان ترى الجزء الخلفي من المنزل من الرصيف، وهي حقيقة يمكننا البرهان عليها فوراً عن طريق النزول الى طريق العربات.

وكان مستعداً لاقامة الدليل على هذه الحقيقة الهامة فوراً. ولحسن الحظ. فقد تعرض للدهس في احدى المرات على اية حال. ومنذ ذلك اليوم اصبح اكثر ميلاً للهذيان الجنوني. كان يوقف الضباط في الشارع ويدخل معهم في مجادلات مطولة لا تنتهي حول عجة البيض والشمس وموازين الحرارة والكعك المحلي والنوافذ والطوايع البريدية.

ومن البديع حقاً ان يستطيع هذا الاحمق ان يترفع من رتبة الى اخرى بتلك السرعة وان يكون من خلفه اشخاص ذوو نفوذ كذلك الجنرال في القيادة العليا الذي يدعمه رغم الانعدام المطلق للكفاءة العسكرية لديه.

في المناورات كان ينجز المعجزات مع فوجه. ما كان يصل أبداً الى اي موقع في الوقت المحدد، وكان يقود فوجه في تشكيلة طابور ضد المدافع الرشاشة، ومرة منذ سنوات كثيرة وخلال «المناورات الامبراطورية» في جنوب بوهيميا، ضاع هو وأفراد فوجه تماماً فوصلوا اخيراً إلى مورافيا حيث هاموا معه أياماً عديدة وذلك بعد انتهاء المناورات وعودة الجنود الى الثكنات. ولكنه لم يحاسب على ذلك.

كانت علاقته الودية مع الجنرال⁽¹⁾ واصحاب الرتب الرفيعة الآخرين في الجيش ممن لا يقلون عنه حمقاً قد جلبت له مختلف الأوسمة والنياشين، التي كانت تمنحه الاحساس بشرف استثنائي وتجعله يعتبر نفسه افضل جندي تحت الشمس وافضل منظر في الاستراتيجيا والعلوم العسكرية كافة.

(1) الجنرال: لم اترجم هذه الكلمة كما فعلت بالرتب العسكرية الاخرى حيث أنها يمكن ان تطلق على اربع رتب في الجيش او على رتبة واحدة بالذات: العميد، اللواء، العماد، الفريق. (المترجم).

خلال التدريبات التي تجرى في الفوج كان من عادته ان يشرع بالتحدث الى الرجال ويسألهم دائما السؤال نفسه:

- لماذا تسمى البنادق التي تستعمل من قبل الجيش الآن، «مانليشر»⁽¹⁾؟
في الفوج كانوا يلقبونه بـ«مجنون مانليشر». وكان يحب الانتقام على نحو غير عادي من مرؤوسيه من الضباط او يحاول تدميرهم اذا لم يروقوا له. وحين يريد احدهم الزواج كان يرفق تقارير سيئة جدا بطلباتهم المرسلة الى الجهات الأعلى.

كان قد خسر نصف أذنه اليسرى في مباراة خاضها في شبابه ليبرهن على صحة الحقيقة القائلة ان «فريدريش كراوس فون تسيلر غوت» كان أحق تماما.

ولو حللنا قدراته العقلية، لوجدناها لا تتعدى بدرجة واحدة تلك القدرات التي جعلت من فرانتس يوسيف هاسبورغ⁽²⁾ ذي الشفتين البضخمتين معتمها بشهادة.

يمكنك ان تجد لدى الشخصين ذلك التيار نفسه من الكلمات والمخزون نفسه من السذاجة الهائلة. ففي احدى الولايم في نادي الضباط قال العقيد كراوس فون تسيلرغوت فجأة، حين ذكر شيلر: «أيها السادة، رأيت البارحة محراثا بخاريا. كانت قاطرة بخارية تقوده، ولكن انتبهوا الى كلماتي ايها السادة، ليس قاطرة واحدة بل اثنتين. أرى الدخان، اقترب اكثر فأرى قاطرة واحدة ومن الطرف الآخر قاطرة اخرى. قولوا لي ايها السادة ليس هذا مضحكا؟ قاطرتان وكان واحدة لا تكفي».

صمت برهة ثم قال:

«حين ينفد الوقود الذي في السيارة تتوقف. لقد شاهدت ذلك البارحة

(1) هذه البندقية التكرارية العتيقة الطراز تسمى على اسم مخترعها (س. ب.).

(2) يقصد الامبراطور النمساوي. (المترجم).

ايضا. ثم يهدرون حول الحركة الدائمة ايها السادة! انها لا تسير، بل تقف في مكانها، لا تتحرك، فليس فيها وقود، أليس هذا مضحكا؟!».

ومع كل غيابته فقد كان ورعا الى آخر حد، بل ولديه في شقته مذبح منزلي. غالبا ما كان يذهب الى كنيسة القديس اغناطيوس، للاعتراف والمناولة وبعد اندلاع الحرب راح يصلي لأجل انتصار الجيوش النمساوية والالمانية. كان يمزج الدين المسيحي بأحلام الهيمنة الالمانية اذ كان على الرب ان يساعدهم حتى ينالوا ثروات وأراضي الأمم المغلوبة.

كانت تنتابه نوبات شديدة من الغضب كلما قرأ في الصحف انه تم اسر المزيد من جنود الأعداء، فيقول:

- لماذا اخذ الاسرى؟ يجب ان يقتلوا جميعا. لا رحمة ولاشفقة. ارقصوا بين الجثث. يجب أن يحرق كل المدنيين في الصرب حتى آخر رجل وأن يقتل الاطفال بالحرايب.

لم يكن أسوأ من الشاعر الالمانى «فيرورت» الذي نشر خلال الحرب قصائد تطالب بأن يكون لالمانيا روح من الحديد وان تكره وتقتل الملايين من الشياطين الفرنسيين.

«دع أكوام العظام البشرية واللحم المحترق

تصعد الى الغيوم فوق الجبال...».

بعد ان انهى تدريسه لدورة متطوعي السنة الواحدة قام الملازم الأول لو كاش باصطحاب ماكس في نزهة.

قال شفيك بقلق:

- أسمح لنفسى بأن احذرك يا سيدي بأن عليك ان تكون شديد الحذر مع هذا الكلب حتى لا يهرب. قد يكون مصابا بالحنين الى بيته القديم فيفر اذا تركته يفلت منك. كما أني لا انصحك بأن تأخذه الى ساحة هافليتشيك. فهناك يمر عادة كلب متوحش لأحد الجزارين يشبه الكلب الذي في لوحة

«صورة العذراء» وبعض على نحو مخيف. ما ان يرى كلبا غريبا في منطقتة، حتى يصبح غيورا خشية أن يأكل الغريب شيئا ما. انه اشبه بشحاذ كنيسة القديس هاشتال⁽¹⁾.

تقافز ماكس بفرح ودخل تحت قدمي الملازم الأول، كما انه لف سيره حول سيفه وعبر عن فرحة غير عادية لذهابه في نزهة.

خرجنا الى الشارع وانطلقا معا باتجاه «برجيكوبي» حيث كان على الملازم الأول ان يقابل سيدة عند زاوية شارع «بانسكا». كان غارقا في أفكاره حول العمل: ما الذي سيحاضر عنه امام المتطوعين في المدرسة غدا؟ كيف نحدد ارتفاع جبل ما؟ لماذا نحسب الارتفاع من سطح البحر؟ كيف يمكننا معرفة ارتفاع جبل ما من سفحة الى قمته من خلال معرفتنا بارتفاعه عن سطح البحر؟ اللعنة! لماذا تضع وزارة الحرب مثل هذه الأمور في برنامج المدرسة؟ انه لا شك موضوع يخص سلاح المدفعية. وهناك على اية حال خرائط الأركان العامة. حين يكون العدو على ارتفاع (312) لا فائدة من التفكير في السبب في ان ارتفاع الجبل يجب ان يحسب من سطح البحر او حساب مدى ارتفاع الجبل. ننظر الى الخريطة ونجد الارتفاع هناك.

وقد انتزعت من أفكاره هذه صرخة «قف!» قوية بالالمانية وذلك في اللحظة التي وصل فيها الى شارع بانسكا.

وفي اللحظة نفسها التي انطلقت فيها صرخة «قف!» حاول الكلب ان يفلت من الطوق ويرمي بنفسه وهو ينبج بسعادة على الرجل الذي صرخ «قف!» للتو.

أمام الملازم الأول كان يقف الآن العقيد كراوس فون تسيلرغوت. حيا الملازم الأول لوكاش العقيد ووقف أمامه باستعداد وهو يعتذر عن عدم

(1) وهي الكنيسة في براغ حيث القت الشرطة القبض على شحاذ كان يتخذ من رواق الكنيسة طريقه المعتاد لانه قام بطرد الشحاذين الآخرين

مشاهدته له.

كان العقيد كراوس مشهورا بين الضباط بولعه بايقاف الناس في الشارع. كان يعتبر التحية العسكرية شيئا يعتمد عليه النجاح في الحرب، كما تبنى عليه قوة الجيش كله.

اعتاد ان يقول: «على الجندي أن يضع روحه في تحيته». وكانت تلك أجمل انواع التأملات الباطنية الخاصة بالعرفاء.

وكان يلح على ان تكون التحية وفق أدق التعليمات العسكرية وان تنفذ بدقة وباحترام.

وكان يكمن بانتظار كل من يمر به، من جنود المشاة الى الضباط حتى رتبة المقدم. واذا ما حياه اي جندي مشاة عرضيا وكأنه يقول وهو يلمس قبعته: «باركك الله»، كان العقيد يأخذه الى الثكنة فوراً ليعاقبه.

وبالنسبة إليه لم يكن العذر القائل: «لم أرك يا سيدي» مقبولا.

كان يقول: «على الجندي ان يميز الضابط الأعلى رتبة حتى لو كان ضمن حشد من الناس، وألا يفكر في اي شيء سوى تنفيذ واجباته المنصوص عليها في «أسس النظام». وحين يسقط في المعركة عليه ان يحيي قبل أن يموت. ان لا يعرف كيف يحيي او يتظاهر بأنه لا يراني او يحييني عرضا، اعتبره حشرة طفيلية».

قال العقيد كراوس بصوت رهيب.

- ايها الملازم الأول، على الرتب الدنيا ان تقدم فروض الاحترام الى الرتب الأعلى. هذا الأمر لم يبلغ بعد. وثانيا: منذ متى يتنزه الضباط مع كلاب مسروقة؟ أجل، مع كلاب مسروقة. الكلب الذي يملكه شخص آخر كلب مسروق.

اعترض الملازم الأول لوكاش قائلا:

- هذا الكلب يا سيدي ..

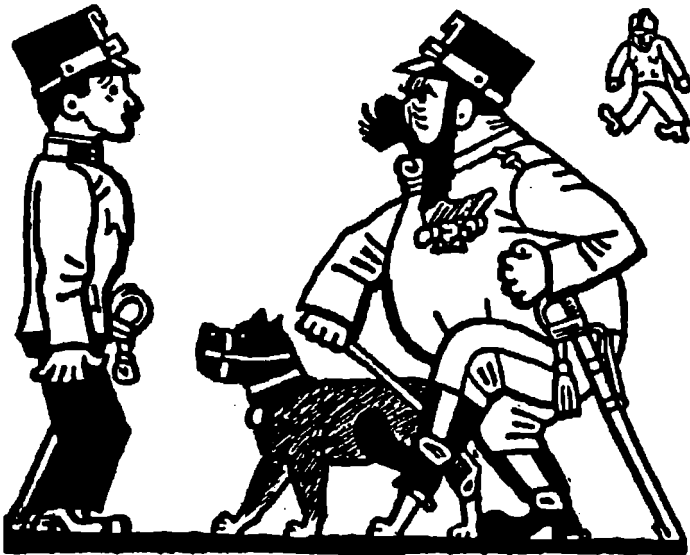
قاطعه العقيد بشدة:

- ملك لي . انه «فوكسي» أنا.

وقد تذكر فوكس وماكس سيده القديم وطرد الجديد من قلبه نهائيا. لقد افلت بالقوة وقفز على العقيد واطهر فرحا لا يظهره إلا عاشق متيم سابق «سادس في ترتيبه» حين يجد تعاطفا من حبيته.

أرعد العقيد كراوس وهو يربت على فوكس - ماكس الذي بدأ يهر على نحو خسيس على الملازم الأول ويعرّي أسنانه وكأن العقيد قال له وهو يشير الى الملازم الأول: «أمسك به»، قال:

- التنزه مع الكلاب المسروقة ايها الملازم الأول لا يناسب شرف ضباط في الجيش. ألا تعرف ذلك؟ على الضابط الا يشتري كلبا حتى يتأكد تماما وعلى نحو مسبق من انه يستطيع شراءه دون عواقب! ايها الملازم الأول، هل تعتقد انه يحق لك ان تركب حصانا مسروقا؟ أو لم تقرأ الإعلان في صحيفتي «بوهيمي» و«تاغبلات» حول ضياع كلبي الذي هو من نوع



«بنشر الاصطبلات»؟ او لم تقرأ الاعلان الذي نشره ضابطك الأعلى منك رتبة في الصحف؟

صفق العقيد بيديه.

- حقاً! يا لهؤلاء الضباط الشبان! أين ذهب الانضباط؟ العقيد ينشر الاعلانات والملازم الأول لا يقرأها.

فكر الملازم الأول لو كاش في نفسه وهو ينظر الى شاربى العقيد الضخمين المتدليين واللذين يذكران المرء بقرد «الاورانغ او تانغ»: «لو أني استطعت لكملك على الفك عدة لكلمات ايها الخرف العجوز اللعين!».

قال العقيد:

- تعال معي برهة.

وهكذا سارا معا وجرت هذه المحادثة الممتعة بينهما:

- في الجبهة، أيها الملازم الأول، لا يمكن ان يحدث لك مثل هذا مرة اخرى. ان التنزه مع كلاب مسروقة خلف الخطوط امر ممتع جدا حقاً. أجل، تتمشى مع كلب ضابطك الأعلى رتبة منك في حين نخسر كل يوم مئة ضابط في ساحات المعارك! كما ان الاعلانات لا تقرأ! كان يمكنني ان انشر اعلانات لمئة عام بأن كلي مفقود! متنا عام! ثلاثمئة عام!

نفّ العقيد بصوت عال، وهذه كانت من علائم غضبه الشديد، ثم قال:

- يمكنك الاستمرار في مشوارك.

ثم التفت ومضى بعيداً وهو يضرب بغضب على اطراف معطفه العسكري بسوط الركوب:

عبر الملازم الأول لو كاش الشارع الى الرصيف المقابل فسمع مرة اخرى: «قف!» بالالمانية. كان العقيد قد اوقف جندي مشاة احتياطيا سيئ الحظ كان يمشي وهو يفكر في أمه التي في البيت فلم ير العقيد في طريقه.

اصطحبه العقيد شخصيا الى الثكنة ليعاقبه وقد شتمه قائلا انه خنزير ونغل.
فكر الملازم الأول: «ما الذي سأفعله بشفيك؟ سأحطم له فكه، ولكن
هذا لا يكفي. حتى لو سلخت جلده عن بدنه شرائح صغيرة فلن يكون ذلك
كافيا لمعاقبة ذلك الوغد». ورغم انه كان سيقابل احدى السيدات إلا انه
تخلى عن ذلك وانطلق نحو البيت نائرا.
قال لنفسه وهو يصعد الى الترام: «سأقتله! ذلك الكلب القدر!».

* * *

في هذه الاثناء كان الجندي الطيب شفيك منهمكا في محادثة
عميقة مع مراسل من الثكنات. كان هذا قد جلب للملازم الأول
بعض الوثائق للتوقيع وكان جالسا ينتظره.
قدم له شفيك القهوة ثم ناقشا كيف سيتم سحق النمسا.
وقد استمر في هذه المحادثة وكأنها امر مفروغ منه. كانت هناك سلسلة
لا متناهية من الكلام الذي كان من شأن اي محكمة ان تعتبره خيانة يستحق
كلاهما الشنق عليها.
صرّح شفيك:

- لا بد وأن صاحب الجلالة الامبراطورية قد جن تماما الآن. فهو لم يكن
لامعا أبداً، وهذه الحرب ستنتهي حكما.

قال الجندي القادم من الثكنات وهو يؤكد ما يقوله بقناعة:

- انه طبعا مجنون. بل انه قد خرف الى حد انه لا يعرف ان هناك حربا
دائرة. ربما يخجلون ان يقولوا له. وإذا شاهدت توقيعه على بيان رسمي
موجه الى شعبه، فهو توقيع مزور. لا بد وانه يطبعونه دون معرفته فهو غير
قادر على التفكير في اي شيء.

اضاف شفيك عن معرفة:

- لقد انتهى. انه يبول في ثيابه كما انهم يطعمونه كالطفل الصغير. لقد سمعت رجلا في الحانة يقول ان لدى جلالته الامبراطورية مرصعتان ترضعانه رضاعة ثديية ثلاث مرات يوميا.

تنهد الجندي القادم من الثكنات قائلاً:

- لو أن الامر ينتهي ويهزموننا فتعرف النمسا السلام أخيراً!

وهكذا استمر الحوار بينهما حتى أذان شفيك أخيراً النمسا الى الأبد بالكلمات التالية:

- ملكية حمقاء كان يجب ألا توجد أبداً.

فقال الآخر متمما هذا الكلام بشيء عملي:

- حين اصل الى الجبهة سأهرب فوراً.

وحين استمرا كلاهما في تفسير وجهات نظر الشخص التشيكي العادي فيما يتعلق الحرب، كرر الجندي القادم من الثكنات انه سمع في ذلك اليوم في براغ ان المدافع يمكن ان يسمع هديرها في «ناخود» وان قيصر روسيا سرعان ما سيصل الى كراكوف.

ثم تحدثا عن انه يتم تحميل منتجات من الذرة بالعربات الى المانيا وكيف ان الجنود الالمان يحصلون على لفافات التبغ والشوكولاته.

ثم تذكر ايام الحرب القديمة وقال شفيك برزانه انه حين كانوا يرمون بالقدور التنتنة⁽¹⁾ في قلعة محاصرة لم يكن القتال في مثل ذلك الجو العابق بالأبخرة التنتنة نزهة في بستان. لقد قرأ عن حصار لاحدى القلاع في مكان ما دام ثلاث سنوات كان العدو خلاله لا يفعل شيئاً سوى التسلي بهذه الطريقة يوميا بأولئك المحاصرين في الداخل. كنا سنضيف شيئاً آخر ممتعا وهاما لولا ان محادثتهم قوطعت بعودة الملازم الأول لوكاش.

(1) جرة تشتمل على متفجرات وغيرها كانت تحدث ابخرة كريمة خانقة كانت تستخدم قديما في الحروب. (المترجم).

نظر الى شفيك نظرة مخيفة ساحقة وهو يوقع الأوراق، وبعد ان صرف
المراسل اشار الى شفيك كي يتبعه الى غرفة الجلوس.

كانت شرر مخيف كالبرق يلتمع في عيني الملازم الأول. وراح وهو
جالس على الكرسي ينظر الى شفيك ويتأمل في الطريقة التي سيبدأ بها
المجزرة.

فكر قائلاً: «اولا سألكمه بعض لكلمات على الفك، ثم سأحطم له أنفه
وانترع له أذنيه. وبعد ذلك سنرى».

ولكن واجهته تلك النظرة المحدقة البريئة واللطيفة التي كانت في عيني
شفيك الطيبتين البريتنين الذي تجرأ فقاطع الصمت الذي يسبق العاصفة
بهذه الكلمات:

- أبلغكم بتواضع ياسيدي انكم فقدتم قطنكم. لقد أكلت طلاء الحذاء
وسمحت لنفسها بأن تموت. لقد رميتها في قبر الجيران. لن تستطيع ان
تجد ثانية مثل هذه القطة الجميلة الطيبة من نوع انغورا.

التمعت في ذهن الملازم الأول الفكرة التالية: «ما الذي سأفعله به؟ يا
للمسيح! ما هذا التعبير الأحمق الذي على وجهه!».

وهكذا استمرت عينا شفيك اللطيفتان البريتتان في الاشعاع بلطف ورقة
مع تعبير من الهدوء الكامل. كأن كل شيء على ما يرام ولم يحدث اي شيء
البتة، وإذا كان شيء ما حذق حدث، فقد انصلحت الأمور الآن وكأنه لم
يحدث اي شيء.

قفز الملازم الأول لوكاش، ولكنه لم يضرب شفيك كما كان مضمماً في
الأصل. لوح بقبضته تحت أنفه وزمجر قائلاً:

- يا شفيك، أنت سرقت الكلب!

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني لا اعرف حالة كهذه وأود ان ألقت
انتباهكم الى انكم قد اصطحبتنم ماكس يا سيدي معكم عصر هذا اليوم في

نزهة ولذا لا يستطيع سرقة. لقد لاحظت فورا لدى عودتكم دون الكلب ان شيئا ما قد حدث لا بد. وهذا ما يسمى «تعقد في المواقف». في شارع «سبالينا» صانع أكياس يسمى «كونيش» وهو لا يستطيع ان يأخذ كلبا في نزهة الا ويضعه كل مرة. وهو يتركه في العادة في مكان ما في احدى الحانات او يسرقه منه شخص ما او يستعيره فلا يعيده...

- يا شفيك يا أيها النغل، يا الرب السماء، أمسك لسانك! إما انك وغد ماكر، او انك جمل وأحمق مغفل. أنت «درس عملي» حقيقي ولكني اقول لك انه من الحري بك ألا تحاول خداعي! من أين جئت بذاك الكلب؟ كيف حصلت عليه؟ هل تعرف انه ملك لعقيدنا الذي أخذه مني حين تقابلنا صدفة؟ هل تدرك ان هذه فضيحة عالمية هائلة؟ اذن قل الحقيقة الآن! هل سرقة أم لا؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لم اسرقه.

- هل كنت تعلم انه كلب مسروق؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني كنت على علم بأنه مسروق.

- شفيك، يا للمسيح ومريم، يا رب السماء، سأجعلهم يعدمونك رميا بالرصاص، أيها النغل، أيها البهيمة، أيها الاخرق، أيها الخنزير. هل أنت فعلا غبي الى هذا الحد؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني كذلك.

- لماذا جلبت لي كلبا مسروقا؟ لماذا وضعت ذلك الحيوان في شقتي؟

- لأنحك بعض السعادة يا سيدي.

وهنا بدت عينا شفيك لطيفتين ورققتين وهما تنظران الى وجه الملازم الأول الذي جلس وتنهده قائلا:

- لماذا يعاقبني الله بمثل هذا النغل؟

جلس الملازم الأول على الكرسي في استسلام هادئ وشعر انه ليست لديه القوة حتى على لف لفافة تبغ، هذا ناهيك عن ذكر ضرب شفيك مرة او مرتين على الفك، ولا يعرف حتى لماذا ارسل شفيك ليشتري له صحيفتي «بوهيمي» و«تاغبلات» حتى يستطيع شفيك أن يقرأ اعلان العقيد حول الكلب المسروق.

وهكذا عاد شفيك بالصحيفة وهي مفتوحة على صفحات الاعلان. اشرق وجهه واعلن بسعادة:

- انه هنا يا سيدي. العقيد يصف ذلك الكلب المسروق من نوع «بنشر الاصطبلات» على نحو جد جميل والى حد ان قراءته تشكل متعة خالصة. وزيادة على ذلك فإنه يعرض على من يجده مئة كراون. هذه مكافأة مجزية تماما. في العادة لا يعطون اكثر من خمسين كراونا. كان هناك شاب في «كو شيرجه» يسمى «بوجيتيخ» يتعيش من هذا الأمر. فقد كان يسرق الكلاب باستمرار ثم يبحث في الاعلانات ليرى ان كان هناك اعلان عن احدها



فيذهب فوراً لتسليمه. وفي إحدى المرات سرق كلباً أسود جميلاً من نوع «بوم»، ولأن صاحبه لم يعلن عنه في الصحف، حاول هو أن ينشر إعلاناً بنفسه. لقد انفق عشرة كراونات على الإعلانات حتى أعلن أحد السادة أخيراً أن ذلك الكلب كان كلبه، وأنه اضاعه، وأنه كان يعتقد أن محاولة البحث عنه عمل لا طائل منه إذ أنه ما عاد يثق بأمانة الناس. ولكنه يرى الآن أن بعض الناس لا زالوا يتمتعون بالأمانة وأن ذلك يمنحه سعادة هائلة. قال أنه لا يؤمن بمبدأ مجازاة الأمانة، ولكنه سيعطيه كتذكارة كتابه الذي ألفه حول موضوع النباتات التي تنمو داخل وخارج البيوت. وقد حمل «بوجيتيخ» الطيب الكلب من قائمته الخلفيتين وضرب به السيد صاحبه على رأسه، وأقسم منذ ذلك اليوم ألا ينشر أية إعلانات أخرى. أنه يفضل أن يبيع الكلب إلى مؤسسة لتربية الكلاب إذا لم يعلن عنه أحد.

أمره الملازم الأول قائلاً:

- اذهب إلى فراشك يا شفيك، أنت قادر على الهذر على هذا المنوال حتى صباح الغد.

وقد ذهب هو إلى فراشه أيضاً. وخلال الليل حلم بشفيك، وكيف سرق هذا حصان «ولي العهد» وجلبه له، وكيف مَيَزَ «ولي العهد» الحصان خلال استعراض عسكري، حين كان الملازم الأول البائس لو كاش يمتطيه وهو يتقدم سريره.

وفي الصباح أحس الملازم الأول وكأنه أمضى ليلة من الفسوق ضرب على رأسه خلالها مرات عديدة. كان هناك كابوس مزعج يلازمه. وبسبب إحساسه بالانهك من الحلم الرهيب عاد للنوم عند الصباح ولكن أيقظه قرع على الباب، وظهر وجه شفيك اللطيف وسأله عن الموعد الذي عليه أن يوقظه فيه.

أن الملازم الأول وهو بعد في الفراش وقال:

- اخرج ايها الوحش! هذا جحيم صرف!

ولكنه بعد ان نهض وجلب له شفيك إفطاره دهش الملازم الأول بسبب سؤال جديد وجهه إليه شفيك:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني اتساءل ان كنتم تريدون مني ان ابحث عن كلب صغير لطيف آخر لكم؟

قال الملازم الأول متنهدا:

- اعترف يا شفيك اني اشعر ان عليّ ان اقدمك الى محكمة ميدانية، ولكنهم سيبرنون ساحتك لانه لم يسبق لهم ان رؤوا شيئا له مثل حماقتك الهائلة هذه طوال حياتهم. انظر الي نفسك في المرأة. ألا تشعر بالغبثان عندما ترى ذلك التعبير الأحمق على وجهك؟ أنت أكثر «فلتات» الطبيعة حماقة. والآن قل لي الحقيقة يا شفيك، هل تحب نفسك فعلا؟.

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لا احب نفسي. في هذه المرأة أرى انه يعوزني التناسب نوعا ما او هو شيء آخر. ولكن زجاجها ليس من النوع الجيد. في محلات «الصيني» التي يملكها «ستانبيك»، كان لديهم مرة امرأة محدبة، وحين ينظر فيها اي شخص يشعر بالرغبة في الإقياء. الفم هكذا والرأس كدلو الغائط والبطن كمدفع سكران، وباختصار فزاعة طيور كاملة. ثم مر بها حاكم بوهيميا ورأى نفسه فيها وتوجب إزالة المرأة من مكانها فوراً.

التفت الملازم الأول بعيداً، تنهد وفكر في انه من الأفضل له أن يلتفت الى قهوته وليس الى شفيك.

كان قد سبق لشفيك ان بدأ يتسكع في المطبخ وسمعه الملازم الأول لو كاش يغني:

«غرنيفيل يسير عبر بوابة البارود

السيوف تلمع والفتيات الجميلات يكين...»

ثم وصلته اغنية اخرى من المطبخ:

«نحن الشبان الذين يثيرون الجلبة

ويفوزون بقلوب النساء جميعاً،

نقبض اجورنا ثم نستفيد من الفرص المتاحة».

فكر الملازم الأول في نفسه ثم بصق قائلاً:

- لا شك انك تتغتم الفرصة ايها النخل.

برزت رأس شفيك من الباب قائلاً:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انهم قد أتوا من الثكنة في طلبكم.

ثم اضاف بلهجة من يقول سرأ:

- ربما ل يسبب ذلك الكلب.

قال الملازم الأول حين أراد ضابط الاتصال ان يبلغه عن سبب مجيئه:

- لقد سبق لي وسمعت.

قال ذلك باكتئاب ثم خرج وهو يتحدث شفيك بنظرات قاتلة.

* * *

لم يكن الأمر استدعاء الى الفوج بل ما هو اسوأ من ذلك. حين دخل الملازم الأول مكتب العقيد جلس هذا في كرسيه وهو عابس على نحو مخيف.

قال:

- منذ عامين طلبت ايها الملازم الأول ان يتم نقلك الى الفوج الواحد والتسعين في بوديوفيتسه. هل تعرف اين بوديوفيتسه هذه؟ انها على نهر الفلتافا. اجل الفلتافا حيث يرفده هناك نهر «او هرجه» او ما شابه. المدينة كبيرة نوعا ما ومؤيدة لنا، واذا لم اكن مخطئا فإن لها سدا. هل تعرف ما هو

السد؟ انه جدار يبنى فوق الماء. اجل، ولكن لا علاقة لهذا بموضوعنا. لدينا مناورات هناك الآن.

صمت العقيد ثم نظر الى المحبرة وهو ينتقل الى موضوع آخر بسرعة:
 - لقد انهار كليي بعد الفترة التي قضاها معك. انه يرفض ان يأكل اي شيء. انظر ها هي ذبابة في المحبرة. من الغريب جدا ان يسقط الذباب في المحابر في فصل الشتاء. هذا مخالف للنظام.
 فكر الملازم في نفسه قائلا: «حسنا، قل ما تريد أيها العجوز الخرف اللعين».

نهض العقيد ثم ذرع المكتب جيئة وذهابا مرة او مرتين.

- لقد فكرت فترة طويلة أيها الملازم الأول فيما يتوجب عليّ ان افعله بك لمنع تكرار ما حدث، وقد تذكرت انك تريد ان تنقل الى الفوج الواحد والتسعين. لقد ابلغتنا القيادة العليا مؤخراً بوجود نقص كبير في ضباط الفوج الواحد والتسعين لانهم «قتلوا جميعا من قبل الصربيين». اعدك بشرفي انك ستكون خلال ثلاثة ايام في الفوج الواحد والتسعين في بوديوفيتسه، حيث يقومون بتشكيل «الكتائب المتقدمة المتجهة الى الجبهة». لا حاجة بك الى ان تشكرني. الجيش في حاجة الى ضباط...

ثم حين لم يعد لا يعرف ما يضيف نظر الى ساعته وقال:

- انها العاشرة والنصف وقد حان وقت اجتماع الفوج.

وهكذا انتهت هذه المحادثة اللطيفة، وأحس الملازم الأول براحة شديدة حين غادر المكتب وذهب الى مدرسة المتطوعين، حيث اعلن انه سينقل عاجلا الى الجبهة وانه سيقوم بالتالي حفلة وداع مسائية في «نيكازانكا».

حين عاد الى البيت قال بلهجة خطيرة لشفيك:

- هل تعرف يا شفيك ما هي الكتيبة المتقدمة؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي ان الكتيبة المتقدمة هي «مارشباتاك» والسرية المتقدمة هي «مارشكومباتشكا». نحن نستعمل الاختصارات دائما.

قال الملازم بصوت رزين:

- حسنا يا شفيك. أود ان اخبرك انك ستذهب معي لننضم الى «مارشباتاك» إذا كنت تحب استعمال الاختصارات. ولكن لا تصوّر انك ستستطيع في الجبهة ان تمارس حيلك اللعينة الرهيبة كما تفعل هنا. هل أنت سعيد؟

أجاب الجندي الطيب شفيك:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني سعيد الى حد كبير. سيكون من الرائع ان نسقط معا في ساحة الوغى في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية والعائلة المالكة...

* * *

خاتمة الكتاب الأول خلف المخطوط

وأنا انهي الكتاب الأول من رواية «الجندي الطيب شفيك وما جرى له في الحرب العالمية» وعنوانه (خلف المخطوط)، أود ان اعلن انه سيصدر كتابان آخران خلال وقت قصير، وهما «في الجبهة» و«في الأسر». وفي هذين الكتابين اللاحقين سيستمر الجنود والمدنيون بالتحدث والتصرف كما يفعلون في الحياة الحقيقية.

ليست الحياة «مدرسة لتثقيف البنات⁽¹⁾»، وكل شخص يتحدث بالطريقة التي تربي عليها. ان رئيس التشريفات، الدكتور غوت، يتحدث على نحو مختلف عن «باليفتس» صاحب حانة «كأس القربان»، وهذه الرواية ليست دليلاً لمفردات غرف الاستقبال المنمقة ولا هي كتيب لتعليم التعابير المستعملة في المجتمع الراقي. انها صورة تاريخية لفترة محدودة من الزمن. حين يكون ضروريا استعمال تعبير متطرف يستعمل بالفعل في الواقع، فلن أخجل تكراره كما قيل بالضبط. وأنا اعتبر استعمال المواردات المهذبة او استعمال «العلامة النجمية⁽¹⁾» على انه اغبي انواع الرياء والزيف. فهذه الكلمات نفسها تستعمل في البرلمان أيضاً.

لقد قيل مرة، وكان ذلك عن حق، ان الشخص ذا التريبة الجيدة قد يقرأ

(1) مدرسة تؤكد على الدراسات الثقافية وتعد الطالبات للنشاطات الاجتماعية المختلفة. (المترجم).

اي شيء. ان اولئك الذين يجفلون تجاه ما هو طبيعي تماما هم اولئك الخنازير الأشد سوءاً وفضل الخبراء في القذارة. انهم في اخلاقيتهم الزائفة التي تدعو الى الازدراء المطلق، يتجاهلون محتوى الكلمات الفردية ويهاجمونها بجنون.

لقد قرأت منذ اعوام نقدا لرواية قصيرة ثار فيها غضب الناقد لأن المؤلف كتب يقول: «نفّ ثم نظف أنفه». قال ان هذا الكلام يعادي كل ما هو جميل وسام، وهما الأمران اللذان يتوجب على الأدب تقديمها الى المجتمع. هذه صورة صغيرة فحسب للحمقى اللعينين الذين يولدون تحت الشمس.

ان اولئك الذين يجفلون من اللغة المتطرفة عبارة عن جناء، لان الحياة الحقيقية تصدمهم، كما وأن اشخاصا ضعفاء كهؤلاء هم الذين يلحقون معظم الضرر بالثقافة والأخلاق. انهم يودون ان يروا الأمة تتحول الى مجموعة من أناس صغار مفرطي الحساسية، الى ممارسي استمناء للثقافة المزيفة من النوع الذي يؤيده «القديس ألويسيوس» الذي يقال عنه في كتاب الراهب «يوستاشيوس» انه حين سمع شخصا يخرج ريحا قوية انفجر باكيا ولم يستطيعوا تهدئته إلا بالصلوات.

ان مثل اولئك الناس يعلنون عن سخطهم علنا، ولكنهم يجدون متعة غير عادية في الذهاب الى المراحيض العامة لقراءة ما يخط عليها من كلمات بذئية.

ان استعمال بعض الكلمات المتطرفة في كتابي هو تأكيد «عرضي» للطريقة التي يتحدث فيها الناس فعلا.

لا نستطيع ان نتوقع من صاحب الحانة باليفتس ان يتحدث برهافة السيدة لاودوفا والدكتور غوت والسيدة اولغا فاستروفا وسلسلة بكاملها من الناس الاخرين الذين يودون لو تتحول الجمهورية التشيكوسلوفاكية الى

(1) هي علامة تفيد الشك او الحذف وتستعمل في الطباعة. (المترجم).

صالون كبير أرضه مفروشة بالقطع الخشبية الصغيرة حيث يتجول الناس في ملابس السهرة الرسمية وربطات العنق والقفازات البيضاء، ويتحدثون بجمل مختارة ويحافظون على السلوك المهذب الخاص بغرف الاستقبال ولكن تحت هذا التمويه تنغمس سباع غرف الاستقبال هذه في أسوأ الرذائل والتجاوزات.

* * *

اغتنم هذه الفرصة لألفت انتباهكم الى حقيقة ان باليفتس لا زال على قيد الحياة. لقد نجا من الحرب حيث قضى فترتها في السجن، وقد بقي كما كان حين عانى من تلك المشكلة مع البقعة التي كانت فوق صورة الامبراطور فرانتس يوسف.

لقد جاء ليراني بعد ان قرأ انه موجود في الرواية، وقد اشترى اكثر من عشرين نسخة من الجزء الاول ووزعها على اصدقائه مساهما بذلك في نشرها.

لقد منحته احساسا حقيقيا بالسعادة حين كتبت عنه ووصفته بأنه يشتهر بلسانه القذر.

قال: «لا يستطيع احد تغييرى. طوال حياتي كنت اتحدث بالطريقة التي افكر فيها مهما تكن فاجرة، وسأستمر في ذلك. لن اضع منديل مائدة فوق فمي من أجل اي جبان. اليوم أنا شهير».

لقد ازدادت ثقته بالنفس الى حد كبير. هذا وتعتمد شهرته على عدد من التعابير المتطرفة. وفي هذا ما يجعله سعيدا، ولو قصدت من تكرار كلامه باخلاص وبدقة ان احذره بأن عليه ألا يتحدث بتلك الطريقة (وطبعاً لم يكن الأمر كذلك) لكنك قد اهنت ذلك الشخص الطيب.

في اللغة غير المشذبة التي يستعملها، عبّر باليفتس دون وعي. وبأسلوب

بسيط وصادق عن المقت الذي يكنه التشيكي العادي للأساليب البيزنطية. كان ذلك كله في دمه: قلة احترامه للأمبراطور وللجمل المهذبة.

* * *

لا زال «أوتوكاتس» حيا ايضا. انه التشخيص الحقيقي للقسيس.

وحين انهارت الملكية تخلى عن كل شيء وهجر الكنيسة واصبح اليوم مديرا للمعمل للبرونز والصباغ في شمالي بوهيميا. وقد كتب رسالة مطولة هدّد فيها بأن ينتقم مني لما فعلته. كما نشرت صحيفة المانية ترجمة لذلك الفصل الذي يوصف فيه كما يبدو بالفعل. وهكذا مضيت لأراه وسارت الامور على أحسن ما يرام. وفي الساعة الثامنة صباحا ما عاد يستطيع الوقوف على قدميه بل راح يعظ فقال: «أنا اوتوكاتس القسيس، أيها الحمقى المصنوعون من قوالب الجفصين».

* * *

كثيرون من طراز «بريتشنايدر» الراحل، ممن كانوا ايام العهد النمساوي اعضاء في الشرطة السرية، لا زالوا يمارسون المهنة نفسها في أيام الجمهورية الآن. انهم شديدا الاهتمام بما يتحدث عنه الناس.

لا اعرف ان كنت سأنجح في تحقيق هدفي من هذا الكتاب. ولكن حقيقة اني سمعت شخصا يسب آخر قائلا: «أنت احمق كبير بقدر ما هو شفيك»، لا تبرهن على اني حققت ذلك. ولكن ان كانت كلمة «شفيك» ستصبح عينة جديدة مختارة ضمن المجموعة المنمقة من كلمات السباب فيجب ان اشعر بالرضى لهذا الإغناء للغة التشيكية.

الفهرس

5	المقدمة
23	الرسوم التوضيحية
29	مقدمة
33	الفصل الأول: الجندي الطيب شفيك يتدخل بالحرب الكبرى
49	الفصل الثاني: الجندي الطيب شفيك في مقرّ رئاسة السلطة
62	الفصل الثالث: شفيك أمام الخبراء الطبيين
71	الفصل الرابع: شفيك يرمى به خارج مستشفى المجانين
78	الفصل الخامس: شفيك في مغفر للشرطة في شارع ساسلوفو
89	الفصل السادس: شفيك يعود إلى بيته بعد أن كسر الحلقة المفرغة
105	الفصل السابع: شفيك يذهب إلى الحرب
115	الفصل الثامن: شفيك المتمارض
138	الفصل التاسع: شفيك في سجن الحامية
168	الفصل العاشر: شفيك وصيفاً للقسيس
204	الفصل الحادي عشر: شفيك يذهب مع القسيس لإقامة قداس ميداني
217	الفصل الثاني عشر: مناظر دينية
227	الفصل الثالث عشر: شفيك يمارس مسح المحتضرين بالزيت
249	الفصل الرابع عشر: شفيك وصيفاً للملازم الأول لوكاش
310	الفصل الخامس عشر: الكارثة
328	خاتمة الكتاب

Twitter: @ketab_n



هذا الكتاب

قد لا تصل إلى تقييم حقيقي لرواية «الجندي الطيب شفيك» من دون فهم كامل لشخصية «شفيك» البالغة التعقيد... هذه الشخصية المترجحة، التي تظهر الشيء وضده على نحو يجعل القارئ يحار في تصنيفه: هل هو أحق أم إنسان بالغ الذكاء، وطني، مخلص للملكية أم يعتبرها «ملكية حمقاء إلى درجة أنه يجب أن لا تكون موجودة على الإطلاق»... جهول أو مثقف... مراقب دقيق للطبيعة البشرية وواثق الاستنتاج أم هو عكس ذلك؟..

أضف إلى ذلك أنه لا يسع القارئ إلا أن يربط بين شخصيته وشخصية مبدعه... فيلاحظ تارة تشابهاً يكاد يلامس التماثل، ويرى طوراً خلافاً يبلغ حدّ التعاكس... وكأنني به يلهث وراء صفات كان يود الارتباط بها...

كلمة أخيرة حول هذه الرواية الرائعة: إن ترجمتها إلى لغة أخرى غير التشيكية، لا بد ستجعل بعض النواحي المرهفة تضع مع الترجمة: إن لغة شفيك هي شفيك نفسه... ولسوء الحظ فإنه من المستحيل ترجمتها إلى أية لغة أخرى دون المخاطرة أن تفقد شيئاً من صورته وعصره وبنيته.

الناشر

ISBN 978302466-6



9 789781 024665

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان، بلوك ب طابق 3، شارع الكويت، المنارة، بيروت 2036 6308
لبنان - تلفاكس 009611-740110 - E-mail.alkhayal@inco.com.lb